d P
Arabic dupl.
(2)

حسين مجيب المصري
المدرس بجامعة فؤاد الأول

من أدب الفرس والترك

BOBST LIBRARY
3 1142 02883 5364

NEW YORK
UNIVERSITY
LIBRARIES

GENERAL UNIVERSITY
LIBRARY

حسين مجيب المصري

المدرس بمعهد الدراسات الشرقية
(كلية الآداب — جامعة فؤاد الأول)

al-Misri, Husayn Mujib

Min adab al-furs wa-al-turk

من أدب الفرس والترك

front

N. Y. U. LIBRARIES

الناشر
مكتبة الجامعة
شارع محمد على بالقاهرة

B

Near East
PJ
7518
.M5
c.1

إلى روح صديق

1-21-59 Orient. Lacey

~~2272~~
~~.651~~
.364

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

هذا كتاب ينطوى على فصول قصار تنتظم صدرا صالحا من أدب الفرس والترك ، وتجلو صورا من تاريخهم على نحو آمل أن يشوق ويروق ، ويجعل المطالعة فى مرغوب كل مطالع يود أن يستفيد ما ليس عنده ويتعلم ما لم يعلم . وقد حرصت الحرص الشديد على أن يكون خطابى فى هذه الصفحات إلى العالم المتخصص والمطلع المتأدب سواء بسواء ، فأرضيت الأول ما وسعنى أن أرضيه بمادة درستها حق دراستها ، وطلبتها فيما تحصل لدى من مصادرها ، كما تحببت إلى الثانى بعرضها عليه فى صورة تدفع الملالة عن نفسه وتثير شوقه إلى المزيد مما يفيد . والملحوظ أنى كنت أكثر توددا إلى ذلك القارىء الذى يؤثر ما يعجب ويطرب على ماعداه ، ورغبته فى يسير ممتع يترشفه القلب على لذة ، بقدر رغبته عن عسير جاف ليس له من مساغ ، فبعثتنى البواعث على أن أجمع الكثير مما أريد فى القليل مما أقول ،

وتجافيت عما يلزم العلماء به أنفسهم من إشارة إلى المصادر ، وتوفيق بين الروايات المتباينة ، والتدقيق فى تحديد التواريخ ، وغير ذلك من شروط البحث العلمى البحت . وقد سعيت من وراء هذا إلى إتحاف القارىء العربى بمستطرفات ومستظرفات من تراث أدبى إسلامى ، لا يجمل به أن يجهله تمام الجهالة . فمما يؤسف له جد الأسف ، أن يكون الخيام فى رأى جمهور المتأدبين هو الشاعر الفارسى الأوحد ، مع أن الفرس لا يعتبرونه من شعراء الطليعة عندهم ، ومما تذهب عليه النفس حسرات ، أن ينظر إلى الترك كقوم لم تدركهم حرفة الأدب ، ويا كثر ما نظموا رائقا ونثروا فائقا . والذى أرى أن الأخذ بالمنهج العلمى الدقيق فى عرض الأدب الفارسى والتركى ، ضئيل الجدوى إلا على تلك الفئة القليلة ممن وقفوا حيواتهم على الدراسات الفارسية والتركية ، واشهد لقد رأيت أعراضا عن هذه الآداب حتى من بعض المتنورين ، فقال قائلهم متبسطا ، إن هذا علم لا ينفع لانعدام من يفهمه ويتذوقه ، وفى هذا كثير من الشطط ، والوجه أن يقال ، إن حق المثقفين علينا — نحن المشتغلين بتدريس هذه المواد والمعنيين دوماً بحرثها — أن

نختصهم بشيء من عنايتنا ، فنخاطبهم على قدر عقولهم بلغة يفهمونها ، ونقدم إليهم مادة يسيغونها فيشتهونها . وليكن فى مكتبتنا العربية كتابان ، كتاب لصفوة المتخصصين ، وكتاب لخاصة المتعلمين ، وليزخر الأول بكل الرموز والمصطلحات ، وأسماء للمراجع فى جميع اللغات ، أما الآخر ، فليجانب فيه صاحبه كل ما يمكن أن يعد لبسا وغموضا ، وليذكر أنه إنما يسوق العبارة إلى من لا تكفيه الإشارة ، كما يحسن به أن يقدم الحقيقة العلمية فى جملة أدبية ، وأن لا يطلع القارىء إلا على ما يتقبله بقبول حسن ويقع من نفسه موقعا ، فقد يكون الموضوع علمياً يشهد للكاتب بعلو كعبه وتضلعه من علمه ، بيد أنه وعر لا طلاوة له تغرى به وترغب فيه . وهذا ملحظ جعلته منى على ذكر . فعمدت إلى التنويع ونقلت القارىء من بحث أدبى إلى عرض تاريخى ، وحدثته عن شاعر فارسى وآخر تركى ، ثم ترجمت له شعراً وقصصاً ، وأنا أريد بذلك لأزوده من العلم بأوفى نصيب وأوقفه على نواح متعددة فى إيضاح وإفهام ، ومن غير ما إبهام ولا إقحام . وجعلت كل فصل قائما برأسه . بعد أن حددت الغرض منه فى مقدمته ، ولما تصديت

للكتابة فى التاريخ ، لم أسرد الحوادث سرداً ، دون نظر وأعمال فكر وتوليد للمعانى الكثيرة من المعنى الواحد ، فإن التاريخ مادة أدبية أولا وبالذات تتسع فيه منادح النظر وآفاق الفكر .

أما المترجمات ، فخصصت أصحابها بأسطر معدودات للتعريف بهم والإشارة إلى ما لآثارهم من قيمة ونفاسة ، ومذهبي فى الترجمة أن تكون لروح المعنى لا لمدلول اللفظ .

والكتاب من ألفه إلى يائه متسم بطابع الجدة والطرافة والوجازة ، فإن ذلك أبقى فى الحفظ وآخذ بالقلب ، وكثير الكلام ينسى بعضه بعضا كما يقولون .

وإنى لزاعم لك أن هذا المنهاج الذى اخترته لنفسى ، أوفى بالغرض ، وأعون على تحقيق الفائدة المرجوة من تناولنا بالبحث ناحية دون غيرها ، أو شخصية بعينها ، فمن قرأ كل شيء عن شاعر تركى مثلا ، لا يتصور شعر الترك إلا تصوراً ناقصا ، ومن وقعت له صحيفة واحدة من تاريخ الفرس فقد عرف شيئا وغابت عنه أشياء .

ومن تحصيل الحاصل أن أقول انه قد سبق نشر هذه الفصول تباعا فى جريدة منبر الشرق ، غير أنى زدت عليها

القليل والكثير ، بعد أن رأيت ضرورة جمعها بين دفتى كتاب ليكثر تداولها ويسهل تناولها وتنتقل من محيط صحفى كانت غريبة عليه ، إلى محيط علمى هو مغرسها الذى تزكو فيه .

وبعد ، فإن هذا الكتاب فى واقع الأمر صنو لكتاب أخرجته للناس منذ عامين تحت عنوان (فارسيات وتركيات) . والأمل أن أعزز بثالث ورابع وأكثر ، إذا ما امتدت الأيام وكان فى العمر صلة ، وأبها لأمانة إن قدر لى أداؤها ، فهذا قصاراى وكل دنياى ؟

القاهرة فى ٣٠ مارس ١٩٥٠

حسين مجيب المصرى

الوطنية فى الشعر التركى

الترك أهل نجدة وشدة بأس ، فهم خواضو الغمرات والفرسان الأماجد وليوث الكريهة منذ فجر تاريخهم وأول أمرهم . وقد وسمتهم بهذه الصفات بيئة أسيوية من الأحراش والفيافى لايعيش فيها إلا مقدام يمتشق الحسام ، وعقلية قبلية بدائية تمجد القوى تمجيدا وتستحقر الضعيف استحقارا فلا تعرف له حقا من الحقوق ، وتقسو عليه كثيرا فتفرض عليه واجب الخضوع والخنوع . والأمثلة على ذلك مستوفرة ، ولا نعدمها حتى من اللغة ، فيقال إن (ترك) بمعنى قوة ، كما يسمى الفرس الغارة الشعواء غارة الترك ، وقد يبلغون حد الشطط فيطلقون لفظ (تركى) على المتلصص والفظ والصعلوك المتجول ، ويذكر الفرنسيون الترك فى أمثالهم فيقولون قوى كالتركى ، ويقول شاعرهم (لقد مر الترك من هناك . فما بعدهم إلا الدمار والبلاء والهلاك !)

وقد اقترنت هذه الصفات العنيفة باسم الأتراك فى ذهن الجمهور من المتأدبين حتى أنكروا عليهم أن يكون فيهم جانب للبلاغة والأدب ، فالبليغ مرهف الحس مجنح الخيال ، فى نفسه رقة ولقلبه خفقة ، وليس كذلك تركى غليظ شديد لاحظ له من براعة المتفنن وروحانية الشاعر .

وهذا وهم مردود لايصدر إلا عمن عدم الحجة وأعوزه البرهان . فللترك أدب يرجع عهده إلى نحو سبعة قرون خلت ، وشعرهم بعيد الغور متسع المذاهب . وإذا ماعرفنا التركى محربا وشاعرا ، فلا معدى لنا عن الاتجاه بفكرنا إلى ما عسى أن يكون له فى الوطنية من شعر . وغنى عن البيان أن الوطنية والجندية لازم وملزوم لاسبيل إلى الفصل بينهما فى التصور ، وكل قلب عامر بحب الوطن ، والناس لايختلفون إلا فى درجته من الشدة والضعف ، غير أنهم متباينون إذا فكروا وعبروا . فالوطنى الجندى وصاف للحروب لاينفك عن ذكر أهوالها وامتداح أبطالها ، والوطنى السياسى يرسل الحكمة ويبذل النصح ويضرب المثل ، وله صفة تعليمية لأنه يبصر بالحق والواجب ، وشاعر الوطنية بعامة هو شاعر الفخر والحماسة ، يعدد مفاخر قومه ويتغنى بمآثرهم ،

وإذا تغرب عن بلاده حن اليها ووصفها بكل جميل ، ولا يفوته مدح القادة والزعماء ، ورثاء ضحايا الوطن من الشهداء . فاذا نظرنا فى شعر الوطنية الفيناه محتويا على فنون عدة ، أو يكاد ينتظم أغلب مافى الشعر من فنون .

فأين الترك من هذا كله وأين مكان الوطنية من شعرهم ؟ وأول مايسترعى النظر هو أن الوطنية لم تظهر واضحة المعالم فى شعرهم القديم ونعنى به شعرهم قبل مائة عام ، ولذلك أسباب لاتخفى ، فقد جرى شعرهم القديم على نهج الشعر الفارسى الذى كان فى جملته مقصوراً على المعانى المجردة ، متجافيا عن الدنيا ومعتركها فى صوفية هائمة حالمة ، فلم يتسع المجال للوطنية . وكان التركى معتزا باسلامه قبل اعتزازه بأى شىء سواه فاذا خرج للقتال فقد خرج جيش الاسلام للجهاد ، فانعدم بذلك تفكيره فى قوميته وجنسيته ، ومن ثم ضعف وعيه القومى . وكان السلاطين مستعلين متسلطين يعسفون الناس عسفا شديدا ، فاشارتهم حكم وطاعتهم غنم . وكان المظلومون لايشعرون بهذ الظلم فلا يجدون مس الحاجة إلى الأخذ على يد الظالم ، ولا يسمعون ذلك الصوت الخفى الذى ينبعث من أعماق النفوس داعيا إلى صيحة المستنكر أو عزمة الثائر على

تحطيم القيود وهدم السدود .

أما فى منتصف القرن التاسع عشر فتبدلت الحال غير الحال وتمرس الترك بحضارة الغرب وتعرفوا إلى المبادىء الإنسانية وتسامعوا بأصول الحكم ، فانطلقت أفكارهم واستنارت عقولهم وكان العصر عصر نهضة واصلاح ، ولم يغفل الشعب عن حقه بعد أن عرف ماله وماينبغى أن يكون له ، وخاض الترك حرب اليونان وظفروا بالدستور عام ١٩٠٨ بعد طول تمنع وتأب من السلطان عبدالحميد ، فظهرت بواعث الوطنية واضحة جلية . وما كان أجملها فى مثل قول الشاعر محمد أمين من قصيدة له : « أنا تركى أنا تركى ، فالجنس جنس مجيد ، والدين خير الدين ، والنفس تلهبها نار الحمية ، والصدر خفاق بالوطنية ، والإنسان عبد للأوطان ، ولا استكانة لتركى وابن تركى فلأمض لطيتى . » وجرت على الألسنة والأقلام الفاظ كانت من قبل فى طى العدم كحرية ووطن ودولة . ووجد من زعماء النهضة وقادة الرأى من يتخذ الأدب أداة تصل فكره بفكر الشعب ووسيلة لايهتدى إلى سواها الوفاء بحق الوطن عليه ، فكتب الكتاب وخطب الخطباء . أما الشعراء ، فطوعوا الشعر للوطنية وفاض شعرهم بها حتى جعلوا منها أخص سمة يتميز بها الشعر فى هذا العهد

ومن أمثلة الوطنية العسكرية قول نامق كمال بك : « هو ذا العدو أمامنا شاكى السلاح ، فهبوا أيها الشجعان لنجدة الأوطان ، وتقدموا ثم تقدموا فالنصر معقود اللواء لنا ، وهبوا أيها الشجعان لنجدة الأوطان . إن مجد الوطن ورفعته فى ملاعبتكم للاسنة ، وبهاوقاء البلاد والعباد ، وانى يكون لكم بالله خذلان الوطن ! فهبوا أيها الشجعان لنجدة الأوطان . الجرح شارة الجدارة على صدور الرجال ، أما الموت فاعلى درجة يبلغها الجندى ، وظهر الأرض كبطنها سواءبسواء ، فهبوا أيهاالشجعان لنجدة الأوطان . »

فهذا نشيد وطنى يصور صلة الجندى بوطنه ليس إلا ، وهو يثير عاطفة خاصة ويدعو إلى الاستبسال والاستشهاد . ولهذا الشاعر قصيدة تسمى قصيدة الحرية وهى لون آخر من شعر الوطنية لأنهاتصدر عن رجل حنكته تجارب السياسة فكان حكيما فى تفكيره متزنافى تعبيره إذ يقول : «لما رأينا لهذا العصر أحكاما منحرفة عن جادة الحق وشرعة العدل ، آثرنا أن نبقى على عزتنا فمضينا عن باب الحكومة موفورين . من عرف معنى الإنسانية بادر إلى أخيه الإنسان معينا مسعفا ، والمروءة كل المروءة أن

تاخذ بيد المظلوم وتنصفه من الظلوم .

وإذا ما حقرت الأمة وهان شأنها ، فما ذلك بضائرها شيئا فى شرفها ، وهل الجوهر فى التراب إلا جوهر ؟ نحن أهل العزم والهمم وحسبنا أننا خلقنا هذه الدولة الكبرى من تلك العشيرة الصغرى ، وإذا جد الجد كان تراب القبر آثر عندنا من تراب الذل . ولا نبالى بنار الهول مادام ذلك فى سبيل حريتنا . لله ما اجملك ايتها الحرية ، وإن لك لفتنة ساحرة ، سنظل اسرى هواك وإن انطلقنا من كل قيودنا ، فلا تحجبى عنا بهاءك ولتبق ملء أعيننا إلى أبد الآبدين . »

ولتوفيق فكرت بك قصيدة واسعة الشهرة فى حكم السلطان عبد الحميد يسميها « الضباب » وهى على جمالها الشعرى تشهد لصاحبها بملكة نقدية قوية وقدرة على اصطناع الرمز والايماء ، كما تمثله وطنيا حذراً هادىء النفس . استمع إليه وهو يقول :

« أحاط الدخان بآفاقك ولم ينكشف عنها ، فكانت ظلمة بيضاء تتراكب وتتزايد على المدى حتى محت كل شبح تحتها ، وجعلت من الكائنات هياكل مغبرة ، وارتد البصر حسيرا عن أغوارها فانخلعت القلوب رعبا . ولكن هل هذا الستر الصفيق يحديك

نفعا يا مجمع المظالم؟ لاتحسبن أن أمرا من أمورك يخفى مهما جهدت أن تخفيه . » ولا ورخان سيفى قصيدة عنوانها « أرض الأناضول » وهى مثال جيد للوطنية الخالصة التى نعهدها فى كل وطنى ، فالشاعر هنا يحن حنينا إلى بلاده وهو فى أرض غريبة ويعبر عن عاطفته تعبيرا صريحا بين البساطة محزون النبرات ، وصدق الشعور أظهر ما فى هذه القصيدة . ولو أراد غريب أن يحدث عما يجول فى نفسه من نزعات وخلجات ، لما اهتدى إلى أحسن منها . فمن قوله فيها : « أن ركننا فيك مهما كان مهملا منسيا ليعدل فى الحسن عندى أرم ذات العماد .. والدار المتهدمة بك أو الموقد المطمور ، نعم البديل من تلك القصور التى تطاول الجوزاء . ووالله ما أستشعر عزة ولا زهوا إلا إذا تنسمت عذب نسيمك ، ولا أسير مرفوع الهامة وضاح الجبين إلا فى جبالك أو سهولك . آه لو جاد الزمان على يوما بالأوبة اليك فارتميت فى أحضانك وجرت دموع الفرح من عينى جريا بعد جرى ، ونعمت بالتجوال فى ظلال رايتك ، ولثمت منك الثرى والحصباء » .

وصدق من قال أن الترك جعلوا من نهضتهم الأدبية وسيلة إلى نهضتهم الوطنية .

رأى فى الخيام

قل من الشعراء فى شرق أو غرب من نال من بعد الصيت ونباهة الذكر ما نال الخيام أو بعض ما نال ، فإن اسمه مقترن بالأدب الفارسى وعلم عليه عند جمهرة المتأدبين . والنظر فى شعره صنيع كل من أخذ بطرف من أدب الشرق وأحب اكتناه سر من أسرار روحانيته .

وقد قيض الله للخيام من نقل شعره نظما إلى الإنجليزية منذ تسعين عاما أو نحوها ، فكان إلى ذلك مرجع الفضل فى سيرورة هذا الشعر واتساع شهرة هذا الشاعر ، وأى عجب فى ذلك إذا عرفنا أن ترجمة فتزجرالد لرباعيات الخيام من روائع الأدب الانجليزى التى لا تضاهيها فى المنزلة إلا مؤلفات شكسبير ، وأنه قلما تخلو دار فى بلد يتكلم الإنجليزية من هذا الكتاب ،

وما من رفقة مثقفة تتحلق حول المدفئة لتخوض فى حديث الأدب ، إلا كان الخيام موضع البحث ومحور الحديث . وقد بلغ من كرامة هذا الشاعر عليهم واعتزازهم بنفاسة شعره ، أن يتأنقوا فى طبعه وتزيين صفحاته برسوم جميلة تحيطه بجو سحرى حالم ، لينعموا منه ببهجة العين كما نعموا بمتعة الروح . قيل وطبعت منه نسخ محلاة بالذهب مرصعة بنفيس الجوهر ، وأخر نهاية فى صغر الحجم لتكون حلية تتدلى من سلسلة الساعة ، وكم كان جميلا أن تكتب أبيات من شعر الخيام لتستهدى بها قنينة خمر أو قارورة عطر . ولم يسع الموسيقيين إلا أن يلحنوا مختارات من هذا الشعر وكان ذلك عشر مرات أو تزيد . أما الممثلون فعرضوا على المشاهدين المعجبين فصولا ومشاهد من حياة هذا الشاعر الفارسى . وأحصيت اللغات التى ترجم إليها شعره فجاوزت الخمسين ، وتصدى له النقاد وأعيان البيان فمجدوه ماشاء الله أن يمجدوه ، وكان حقا أن يصبح الخيام بذلك كله شاعر الدنيا وشاعر الخلود .

وإن كان هذا مما يثير أعجب العجب فى نفوسنا فأولى به ثم أولى به أن يحرك الفكر فى عقولنا ، فنجهد أن نعلم البواعث التى

توصل بها الخيام إلى مالم يتوصل إليه غيره من مكانة لاتسامى .

وأول مايلوح لنا ، هو التفاوت الظاهر بين الخيام فى إيران والخيام فى غير إيران . فالرجل فى وطنه عالم يرصد النجوم ويرقبها فى مسالكها ليستخرج أصح التقاويم ، ويدق النظر فى علم الجبر وعلم الحساب فيحذقهما الحذق كله ، ثم يبتدع فيهما ويسبق إلى الجديد ، وهو طبيب معروف بالتنطس فى الطب يدعوه السلطان وقد اشتد به الوجع فيقع على معرفة الداء ويصف الدواء فيه الشفاء . ولا يخرج عن مألوف أهل زمانه من الجمع بين الطب والفلسفة ، فيتعلق بها تعلقا شديداً ويقتل مشاكلها بحثا وفهما ، ولم يفرق إلا الموت بينه وبينها ، فلما وافاه الحمام سنة ٥١٧ هجرية كان آخر ماأغمض عنه عينيه ، كتابا فلسفيا لابن سينا بين يديه ، وكان شاعراً كذلك ، ولكن من غير ألفاظ التفخيم والتعظيم التى تلحق بأسماء الشعراء فى هذه الأزمان ، ولم يفسح له قومه مكانا بين الفحول ممن سبقوه أو عاصروه ، ولم يجمع شعره فى مجموعة إلا بعد مماته ببضعة قرون ، واعتبروه حكيما يقول الشعر فى الحكمة ، ولعله كان ينصرف إلى النظم ليتخفف

من ثقل العلوم ويذود عن نفسه جفاوتها ، وليلتمس الراحة لذهن مكدود أعياه طول النظر فى طلاسم الأعداد ، فكأنه على ذلك كان يقول الشعر رياضة .

وقد اقتصر على نوع من النظم لم يتجاوزه إلى غيره وهو الرباعيات ، وتعتبر الرباعيات من الشعر الخفيف الذى لا يكلف الشاعر إلا قدرا من الجهد ولا يتطلب شاعرية أصيلة بالمعنى المفهوم تشهد له بطول النفس وتمام الأداة وحسن الصناعة ، وإن كان هذا لا ينفى أن يكون لفطاحل شعراء الفرس رباعيات إلى جانب شعرهم فى الأوزان الأخرى ، وأن الرباعيات أوفق ما يكون لشعر كشعر الخيام يصور به صاحبه فكرة ويصوغ فيه حكمة ، فكل رباعية وحدة قائمة برأسها وهى أشبه شىء بقضية منطقية كقوله : « يا من يحرم الصهباء على نفسه ، كف بعض اللوم عن صرعى الكؤوس ، سأتوب لا محالة من شربها إن تاب على ربى . ولكن لا يزهونك أنك لا تذوقها إن زادت سيئاتك شرا عن شرها وإثما عن إثمها . »

وكما قصر الخيام شعره على وزن واحد فقد أدار معانيه فى دائرة لا تتسع لأكثر من أن العيش فى هذه الدنيا شقاء لا شقاء بعده

والأمل سراب والناس ركب يساق بهم وهم نيام ، وكل ما في الحياة إلى فناء ، فسيهلكنا الدهر كما أهلك من قبل أوائلنا ، ولا قدرة لعقل بشر على فهم سر الوجود والعدم ، فالمرء أمام هذا الكون مرتاب متردد ، وفي بعض أئمة الدين جهل ورياء وعجز عن هداية الحيران ، فلنعب الشراب عبا ملتمسين نشوة تطير بنا عن هذه الدنيا العبوس ، ولعلنا بذلك نجد بعض العزاء عن ألم الحيرة الذي يملأ علينا الأرض والسماء . فالخيام لا ينفك يردد هذا في رباعياته وإن كان كثير منها مدسوسا عليه ، أو هو لغيره ونسب اليه .

والواقع من الأمر أن قارئها في الفارسية لا يكاد يجد فيها جمالا شعريا باهرا يهز النفوس وإن وجد كلاما رقيقا عذبا يسابق لفظه معناه ، وهي في جملتها قليلة الحظ من الشاعرية إذا قيست بغيرها من شعر الفرس واعتبرنا شهرتها وشهرة صاحبها التي طارت في كل الآفاق . تأمل قوله : « حللت مشكلات هذه الدنيا إن في الأرض أو في السماء ، فما انطلى على زور ولا نفعت في حيلة ، غير أن عقدة واحدة أعياني حلها ، إلا وهي عقدة الأجل . » فهذا كلام شديد الوضوح غني عن البيان لا يمكن أن ينسب إليه من الشعر إلا الوزن والقافية فذكره والسكوت عنه

بمنزلة عند من يطلب جديدا فى العلم ونورا فى الظلمات .

وإن كانت هذه صفات الخيام فى إيران وسمات شعره فى الفارسية فما ذيوع هذه الرباعيات فى ترجمتها إلى الانجليزية على الخصوص وإلى اللغات الأخرى على العموم ؟

والمعروف أن الخيام قبل ترجمته الانجليزية لم يكن عند المتأدبين من المستشرقين إلا شاعرا نحيلا وإن كان عند غيرهم من الأوربيين عالما كبيراً ، ففتزجرالد هو الذى قدمه للغرب أو هو الذى خلقه خلقا بترجمة بعدت من البلاغة شأوا ، فبلغ الشعر من قرائه مبلغا عظيما . ولا يفوتنا أن نقول إن جمال طبع الرباعيات وكون شاعرها إيرانيا من بلاد الورود والبلابل ، مما لفت النظر إليه وزاد من العناية به عند قوم يتعلقون بكل ما هو شرقى على أنه تحفة مستطرفة مستملحة . والخيام يوجه الخطاب إلى الإنسانية جمعاء ، ويتحدث بعبارة لا التواء فيها على لسان الناس طرا فكلامه يخطر على كل القلوب ويجول فى كل الأذهان ، وقد صادفت دعوته الصريحة الجريئة إلى التهالك على اللذات هوى فى النفوس ، فالمرء أميل إلى التبسط منه إلى التزمت .

وكلام الخيام جميل فى خيال الشعر ، وإن كان بعضه مقبولا

معقولا في موضع فإن معظمه غير معقول ولا مقبول في مواضع ، اللهم إلا إذا فهمناه على أنه رمز وإيماء وان ابلغ الشعر أكذبه كما قيل .

هذا ، ولا ريب ان الخيام حظيظ سعيد الطالع لما حظى به من حسن الأحدوثة ، فقد رقم اسمه على جبين الدهر ونال بحظه فوق ما كان ينبغى أن ينال بكفايته ، ولعله قد وجد من طيب الذكر بعد مماته، تلك السعادة التى كان ينشدها ويدعو إليها فى حياته .

في تاريخ الأدب التركي ظاهرة تستوقف النظر وتستلفت الفكر ، وتجعل في هذا الأدب سمة يختص بها وحده دون سواه من الآداب قديمها وحديثها ، فقد كان من حسنات الزمان أن طاب لربة الشعر سكنى قصور السلاطين من آل عثمان ، فرقت للشعر قلوبهم ، وتأصلت ملكته في نفوسهم وانطلقت ألسنتهم بروائعه وشاركوا فيه أحسن مشاركة ، فكان من السلاطين والامراء شعراء كرموا بالشعر وكرم الشعر بهم ، وعزت دولة الأدب في عصورهم ، وارتفع الأدباء إلى أعلى مرتبة واسمى منزلة وكأنما كان هؤلاء السلاطين يتوارثون الشعر كما يتوارثون الملك ، فاذا أحصينا من كان منهم شاعرا وجدنا عشرين أو ما يقرب

ولبعضهم دواوين تنطوى على الرقيق الأنيق ، وللبعض الآخر أبيات تتفاوت فى حظها من الجودة ، وإن شهد معظمها على دقة النظر وصفاء الروح .

ومما يذكر ، أن تعلق السلاطين هذا بالشعر والقول البليغ إنما يعزى إلى لون ثقافتهم ونوع البيئة العلمية التى أحاطت بهم ، فقد كان الفتى منهم يجلس إلى مؤدبيه ليتلقن الفارسية لغة الأدب الرفيع فى هذا الزمان التى لم يكن للمتأدب معدى عن تعلمها والضرب بسهم فى آدابها ، وما آدابها فى جملتها إلا الشعر العالى فى أوسع آفاقه وأعذب أنغامه ، فلا جرم أن يشب الناشىء على عبقرية الخيال ورقة العاطفة وحساسية الذوق ، وهى مقومات الشعر وملهمة الشاعر إن واءمها حسن استعداد وطبع مداد .

وقد دأب الترك على هذا فى تأديب النشء فترتب عليه أن كان الشعر التركى القديم صدى للشعر الفارسى يردد معانيه ويرسم صوره ويستعير لفتاته ولمحاته ، ومن ثم كان شعر الفرس والترك صنوين متلازمين وشطرين متكاملين ، كما اشتد ولوع الترك بالشعر فعالجوا صناعته ، حتى أحصى أحد مؤرخى الأدب التركى أكثر من ألفى شاعر مع إيراد النماذج من شعرهم .

ونخلص من هذا إلى أن ثقافة العصر السامية هى التى أعانت السلاطين على قول الشعر فقاله معظمهم تطبعا ، وإن كان ذلك لم يقعد بهم عن الإجادة فلم يتخلفوا كثيراً عمن قال الشعر طبعا واستمداداً من ملكة أصيلة .

وأول السلاطين الشعراء هو مراد الثانى المتوفى سنة ١٤٥١ وتعليل اختصاصه بالأولوية أن السلاطين من قبل لم يعالجوا النظم جدياً وإنما قلدوا ما كانوا يقرأون على مؤدبيهم من شعر الفرس أيام الشبيبة ، ومراد أول الجادين ، ويعتبر عصره فاتحة عهد جديد ، فقد ندر من السلاطين الذين خلفوه من لم يتوفر على نظم الشعر . وبلغ من حب هذا السلطان للأدب وإكرامه لأهل الأدب أن يدعوهم إلى مجلسه حيث يأخذون فى كل فن ولا يدعون طريفاً إلا ذكروه ، ولا جميلا إلا ألقوه على مسمع السلطان ، فيفيض عليهم من سوابغ نعمه ويغمرهم بألطافه ، وكثيراً ما كان يلحق فقراءهم بالأعمال لسد حاجتهم وكفهم عن السؤال . ومن شعره رباعية لطيفة تخطر بالبال شعر الخيام وهى : « صب كأسى من شراب الأمس ياساقى ، وسل القلب عن سر فيه يخفيه ، والىَّ بالرباب والعود . ومادمت حياً فحق لى

هذا الأنس وهذا الطرب ، فسوف يحل يوم يضيع فيه كل أثر لى فى التراب . »

وكان محمد الثانى أو محمد الفاتح شاعراً ، وإذا ذكرناه فلا مندوحة لنا عن ذكر قولته المشهورة الباقية على وجه التاريخ ، فبينما كان يفتتح القسطنطينية عام ١٤٥٣ وقف بقصر تهدم وتخرب فتمثل بقول الشاعر الفارسى : « اليوم تنعق البوم على قباب الأكاسر ، والعنكبوت تضرب نسيجها على قصور القياصر . » وكان الظن بالشاعر فى مثل هذا الموقف أن تجود قريحته فيرتجل لا أن يتمثل بقول غيره . وديوانه لطيف الحجم يدل على أنه مقل مجيد ، فمن قوله : « أنا عبد لسلطان من عبيده سلاطين الدنيا ، ونور شمسه يبهر شمس الضحا ، وإذا قتلنى بالسهم أو أهداب العيون فسواء على القتيل فتكة الحسام أو قتلة السهام . لك شعر هو ليلة القدر ، وحاجبك هلال العيد ، وما وصالك إلا فرحة العباد بحلول الأعياد ، أما فراقك آه من فراقك فهو شهر الصيام ! » وقال متبسطاً ومعبراً عما تصوره له نفسه فى مجلس شرابه : « أدر علينا الخمر ياساقى فهذا البستان إلى ذبول وذوى ، وإذا وافى الخريف فلا ربيع ولا رياض ، أنا إن شاهدت هذا الجميل

ضاع زمامي من يدي وغلبت على زهدي وتقواي . ألا لا يغرنك هذا الحسن . ومتى دام للجميل جمال ؟ فالوفاء الوفاء لنا . » وكان الفاتح يستقدم العلماء ويغدق عليهم من عطاياه . وقيل أنه كان يجرى الأرزاق على ثلاثين شاعرا كما كان يصطفى وزراءه من أهل الأدب ، وهو أول سلطان ذكر اسمه المستعار فى شعره .

ومن الأمراء الشعراء الأمير جم ، وهو أشعرهم ولا جدال ، وقد حيا حياة تعسة رنق صفوها النزاع والتخاصم بينه وبين أخيه بايزيد فاختلفا أيهما يكون له الملك ، وهاجت الحرب بينهما عبوسا شعواء وكان النصر دوما لأخيه ، وعاش جم طريداً شريداً يضرب فى أرض الله الواسعة فاعتورته المحن وتواردت عليه أيام يشيب منها الوليد ، وكان شاعراً بحق ففاضت شاعريته بشعر حزين ، ولم يتقيد بتقاليد الشعر فى عصره كغيره من الأمراء والسلاطين الذين جمدوا على القديم فكانت أغراضهم محدودة وألفاظهم براقة وللذوق نبوة عن كثير من مبالغاتهم . ومن قوله متحدثا عن محنته : « هو ذا السيل يجرى ضاربا صدره بالحجر حزنا على ، ألا فتأمل كيف يرثى السكون بأسره لحالى ، فقد شق الشفق جيبه جزعا وفاضت

السماء دما فى الفجر ، وبكى السحاب مدرارا وله على الجبال دموع تنحدر ونشج الرعد نشيجا يثير الأسى . » فهو هنا ينظر إلى الطبيعة بعين دامعة وقلب حزين فيبكى ويستبكى وتهيم روحه فى الكون فيفنى فيه فناء . وللأمير جم قصة غرام مع فتاة عرفها فى فرنسا وبادلها حباً شديداً بحب أشد وفيها يقول : « ابشرى أيتها الروح بمقدم حبيب القلب ، وليهنك أيها الجسد أن ترد عليك حشاشتك ، تم سعدى فى ليلتى هذه ، فقد وافى الحبيب فكأن بدر التم لاح فى علياء سمائه ، فهيا ياجم ، جد بالسويداء ، إكراما لضيف حل أهلا ونزل سهلا . »

وكان السلطان سليم الأول فى طليعة المجيدين من الشعراء وله مكانة مرموقة لأنه نظم بالفارسية ، فنفح الأدب الفارسى بديوان كبير ولم ينسب اليه إلا بيت فى التركية وأبيات فى العربية ، وقد ظلمه أدباء الترك بإغفال ذكر شعره لأنه بالفارسية كما سكت عنه أدباء الفرس لأنه تركى . والواقع من الأمر أن شعره متصف بالجزالة متميز بصدق الشعور والتعبير ، وهو فيه معتد بنفسه مزهو بغزواته وفتوحه فنسمعه يقول : « أنا من سيَّر الجحافل من استانبول إلى إيران فاغرقت الفرس أعدائى فى

بحار من الدماء ، وجعلت والى مصر عبد رق لى ، فرفعت لوائى إلى الجوزاء . وسرت هذه البشرى من العراق الى الحجاز لما ترنمت الأوتار فى مهرجان نصرى . وصهرت ذهبي فى بوتقة الشمس فضربت باسمى عملة العالم بأسره ! » وقد يخفف سليم من غلوائه ويكسر من كبريائه فتلين شدته وحدته ويرق وتعذب منه رقته فيقول : « لا رغبة منى فى الجنان ولا مأرب لى فى كوثرها ؛ وكل أملى أن أتوصل الى موطىء قدميك ، وأقسم ان نفسى لتطيب بالتجرد من هذا الملك العريض إن جدت يوما برضاك ، والعفاء العفاء على هذه الدنيا وكل ماحوته من طيبات ونعيم . » ولم تعرف الفارسية فى عصره من شعرائها من يتعلق بغباره . أما شعره العربى فعليه مسحة ملكية وكأنه ترديد لأبيات مشهورة قالها الرشيد فى جواريه . يقول سليم :

ظبي يصول ولا اتصال اليه
جرح الفؤاد بصارمى لحظيه
يسقى المدامة من سلافة ريقه
ويخصنا بالغنج من جفنيه
الناس طوع يدى وأمرى نافذ
فيهم وقلبى الآن بين يديه

عجبي لسلطان يعز بعـدله
ويجور سلطان الغرام عليه

لولا أخاف الله ثم جحيمه
لعبدته وسجدت بين يديه

واستوى بعده على العرش ولده سليمان القانونى عام ١٥٢٠ وعصره هو العصر الذهبي للأدب التركى ، فقـد نبغ فيـه مائتا شاعر ، ومادام الناس على دين ملوكهم كما يقولون فلا عجب أن يكون هذا السلطان من الشعراء ، وله ديوان جيد يؤخذ منه أنه شديد التأثر متقلب المزاج ؛ والظاهر أن اليأس والأمل كانا يتناهبان حياته والفرح والترح يتداولان عليه كما يتراءى لبعض النقاد فبينما نراه يقول : « لما صورك مصور القـدرة فابدع تصويرك ، حار فيك كل وهم ، وهام فيك كل خيال ، وإذا خطرت فى البستان فلا قد للسرو بجانب قدك ، وأن حمر الورود لتنشق حسداً إذا تحركت شفتاك بكلمة ، لقد خلبت لبي فبالله انى اصيب جميل صفاتك » ، إذ به يخرج من هـذا الشعر المشرق إلى شعر كئيب قاتم فيقول : « ليس على وجه البسيطة إلا من يطلب الهناءة ، ولا هناءة إلا فى برهة من عافيـة ، مهما كثرت

اعوامك وامتد بك عمرك ، فلن يبلغ ساعة من عمر هذا الفلك الدوار . »

وبعد ؛ فقد أوجب فيلسوف قديم أن يكون الحاكم فيلسوفا ، فما اعجب ألا يوجب الترك أن يكون السلطان شاعراً ! !

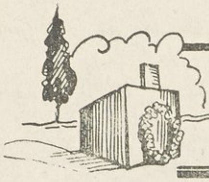

على قبرها

فى مقبرة حزينة بطهران يغمرها الموت بسكون حالم ، لولا حنين طير غريب بين الفينة والفينة ، وتحت سروة لها انحناءة الأم على مهد واحدها ، يشاهد الزائر الخاشع قبرا منزويا يدل ظاهره على ألم دفين وسر خفى ، ويصف للأحياء خبرا عن الأموات ، وما ذاك إلا لبيتين من الشعر طمس البلى على الحجارة نقشها أو كاد ، وهما : «إن الحديث المستفيض عن ياقوت ثغرك يتناهى إلى مسمعى حيثما توجهت ، فأى حرقة لمدمعى ويلاه تهرب ! وما تكون هذه الوردة الحمراء التى تحرق قلبى نارها كلما نفح عطرها ! » ، وعلى حاشية هذا الشعر سطر من الخط الجميل يقول لقارئه أن (كلجهره) محبوبة (صبوحى) ترقد فى ثرى هذا القبر .

ولهذين العاشقين قصه جرت على الألسنة وطاب للعشاق فى

ايران أن يتناقلوها ، كما حسن موقعها من نفوس المتأدبين ، فكانوا يزورون هذا القبر فى كل يوم جمعة ، وهناك يدعون له بالسقيا مترحمين على صاحبته ، ويأخذون بأطراف الحديث بينهم ، وما حديثهم إلا عن لوعة القلوب وخفقاتها بالهوى ، وليس فيهم إلا من يقول الشعر عذبا رقيقا . أما إذا جرى ذكر للقبر الذى أمامهم وللإنسانة التى تنطوى عليها ظلماته ، فان قائلهم يقول :

كانت كلجهره فتاة لأسرة رقيقة الحال تعيش على الكفاف من كسب عائلها الفخارى الذى لم تطل أيامه ، فمات عن ابنته قبل أن تتم السابعة من سنيها ، وخلفها كلا على أم حزينة لا طاقة لها بدفع عادية الزمان إلا بيدين ضعيفتين لا تحسنان إلا غسل الثياب ليتقاطر من ذلك رزق ضئيل يمسك الرمق . وعاشت الفتاة فى ذل اليتم وحرمان الفاقة حتى جمعتها ملاعب الطفولة يوما بفتى يقال له صبوحى . وكان كمثلها ضعف شأن ، فانجذب الشبيه إلى الشبيه ، وأكدت الألفة بينهما غرارة الصبا . ثم مرت أيام تفتح الأكمام عن الزهر وتنضج الثمر فى الشجر ، فأزهر حسن الفتاة واكتملت شبيبة الفتى ، وآن أوان حب يعطف قلبا على قلب

ويجمع شملا بشمل ، فعرفا حنين الشوق ونجوى الهيام ، وكان الفتى أميا لايحسن أن يقرأ ، إلا أن شاعرية أصيلة فى نفسه وروحانية يستوحيها من حبه ، ورغبة فى إعجابِ صاحبته ، أطلقت من لسانه ، ورققت من عاطفته ، فقال الشعر شيئا عجيبا . وقد وهب صوتا نديا فترنم بالشعر ترنما جميلا ، وحلا له أن يقف بدار الحبيبة فى كل أمسية ليردد عذب النغم ويقول أرق المعنى ، فتطل عليه فتاته وتبسم له عن ثناياها الغر وتبعث الاشراق فى فؤاده ، وبرد الراحة فى قلب خافق مشبوب .

وظل هذا دأبه أياما بعد أيام ، غير أن الحال تبدلت ، وكان الذى خاف أن يكون ، وأذاقه الزمان كأسا أذاقها لكلجهوه من قبل ، تلك الكأس التى مزج لها فيها مرارة الموت بمرارة الحاجة فقد مات عنه أبوه ليتركه مستوحشا مع أم عجوز يحزن لمرآها وينوء تحت اعبائها . وثاب المسكين إلى نفسه فلم يجد له معدى عن الضرب فى أرض الله الواسعة انتجاعا للرزق ، فسعى إلى الفتاة ليستودعها وفاءه وبقاءه على عهدها . وكانت وقفة للوداع يالها من وقفة ، آلمت قلبين وشردت روحين ، وأبطلت فيها الضرورات كل الشفاعات .

وقدم صبوحى طهران وامله الحصول على عمل ، فسار طويلا وسأل كثيرا . وبعد أن كاد يستيئس ، وجد العمل فأصبح خبازاً . ومر الزمن وطالت الفرقة على الحبيبين فضعف قلب كلجهره عن أن يحتمل الوجد وتباريحه ، فصح عزمها على اللحاق بصبوحى ، فارتحلت إلى طهران وهناك تنسمت اخباره وبحثت عنه فى مظان وجوده حتى إهتدت إليه بعد لأى ، ورأته أمام تنوره يستدر القوت بكد اليمن وعرق الجبين . وكان لهذا اللقاء فرحة بددت احزان فراق طويل ، بيد أن هذه الفرحة كانت قصيرة الأمد ، فقد استوخمت الفتاة العاصمة وتأذن صحتها بجوها ، فما لبثت أن أعتلت وخامرها السل ، فعصف بجسمها الضاوى عصف الريح بالغصن الذاوى ، ونالها من الشحوب ماينال الشمس قبل الغروب ، ومضت كلجهره الجميلة المسكينة التى طالما ملأت الحياة أنسا والعيون حسنا والقلوب غراما .

كانت الفجيعة من الشدة بحيث زلزلت نفس صبوحى فى أعماقها ، فجزع جزعا شديدا وحزن حزنا وجيعا لا ينفع فيه صبر ولا عزاء ، وارتفع صوت ضميره باللوم الجارح على هجره لها وايثاره عليها دنيا يصيبها ومالا يكسبه ، وشرد لبه بعد اقتناعه

بأنه سبب البلاء وانها شهيدة الوفاء ، فبات مؤرقا ولم يسعه إلا أن يقضى سواد الليل فى المقبرة واقفا على قبرها يروى ثراه بالدمع الهتون مقلبا كفيه ومناجيا نفسه تارة ، ومن فى القبر تارة أخرى . ودامت حاله على ذلك الليالى ذوات العدد حتى ظن به إختلاط العقل ، وعلم صديق له بأمره فادركته الرقة عليه ، وجهد أن يخفف من بلواه ويكشف من كربه ، وكان عليما بولوعه بالشعر وشدة طربه لروائعه ، فجعل يقرأ عليه شعر حافظ الشيرازى . شاعر الغناء والغزل فى إيران ، وأشعر شعراء الفرس غير منازع ، فكان صبوحى يلقى سمعه مأخوذا بروعة الشعر ، ومناغما كل بيت بالتأوه والنحيب ، واستتم سماع الديوان برمته فى نحو من أربعين ليلة رأى بعدها فيما يرى النائم كأن حافظا يقدم إليه كأسا دهاقا ، فيأبى أن يتناولها منه ، غير أن الالحاح فى قبولها يجعله يشربها ، فيقول له حافظ : «لا يحزننك ياصبوحى أن تموت عنك من تهوى ، فقد جعلت لك نعم العوض ممن فقدت ، وليهنك اليوم إنى جعلتك شاعرا غزلا رقيقا ، فامض لطيتك . . .»

وقد أصبح صبوحى منذئذ شاعرا بحق ، يتصرف فى فنون

الشعر ويتميز بالإجادة فى شــعر الحب والرثاء والخمريات والزهريات ، ومن شعره قوله : « فى القلب من حبك نار اشقى بها ، ووالله ما كان ظنى بالزمان أن يسعدنى بالشقوة ، لقد تنفس الفجر ياساقى وحان وقت الصبوح ، فهات الـكـأس ، واشربها شمولا . »

ولم يمتد العمر كثيرا بصبوحى بعد كلجهره وانى البؤس إلا أن يلازم حياته إلى آخر لحظة له فيها ، حتى انه لما مات لم يجدوا الوسيلة إلى تجهيزه ودفنه الا ببيع ثيابه والانفاق على ذلك من ثمنها . ومن أسف أن تنقطع وسيلتنا إلى رؤية ديوانه الذى قيل لنا أنه طبع فى إيران منذ يسير ، فنحن لا نعرف له إلا البيتين السابق إيرادهما بالإضافة إلى ما كتب على قبر محبوبته ، وكم كان بودنا أن نقرأ هذا الشعر الذى يعتبر مثالا لصاحب الملكة والسليقه والطبع الصادق ، الذى لا يقول إلا استجابة لهاتف الوجدان وباعث الشعور ، وان لم يسلم خبره من مواضع محمولة على المبالغة والأغراق فيما يلوح . أما إذا صح فى العقول أن يصنع الحب بالعشاق ما صنع بصبوحى وكلجهره ، فليس عجبا أن يوصف سلطان الحب بالجور والطغيان !

عرش وسلطان

كانت السلطانة الوالدة مع ولدها السلطان عبد العزيز فى حديث مقعد مقيم ، يتجاذبه قليل من الرضا تارة ، وكثير من السخط تارات ، حتى إنبعثت من عينيها السوداوين نظرة شديدة ، وارتفع لها صوت لا يرتفع إلا لأمر أو نهى ، ثم قالت : « أى معنى لهذا التردد وأى جدوى لهذا الاحجام ! اجعل ولاية العهد من بعدك لابنك يوسف ، وانتزع له العرش من ابن عمه مراد ، فان ذلك عليك حتم لزام . لا أرحام بين الملوك والحكم لمن غلب لابد من موت مراد بضربة سيف أو جرعة سم ، ليستقر بيوسف عرش أبيه . كأنى بك تخشى مرادا هذا وتخصه بشىء من رحمتك ، ذلك المخنث الخائر العزم الذى لا يصلح للملك بحال ،

ولا يحسن إلا التطريب والضرب بالمعازف ، عجل ولا تتريث ، اجهد أن تحصل من شيخ الاسلام على فتوى بخلع مراد من ولاية عهدك ، واعلم يقينا أن روسيا على أتم الأهبة لمدنا بعشرين الفا من رجالها الشداد إن شغب الشعب علينا . والله إن نفسى لتزين لى أن أقتل يوسف اليوم بيدى لأريحه مما ينتظره من موت زؤام أو حياة شقوة وعذاب إذا استوى على العرش مراد . »

وجعلت العجوز تضرب على هذا الوتر لتنفث السم فى قلب عبد العزيز ، وتوغر صدره على ابن أخيه ووريثه الشرعى ، وهى بذلك إنما كانت تزيد فى الطنبور نغمة ، لأن عبد العزيز كان على نية خلع مراد منذ بعيد ، فقد حاول ذلك تكرارا فى أعياد جلوسه ، غير أنه منى بالخيبة على الدوام لاعتراض شيخ الاسلام واستنكار الانجليز ، ولم يكن يخفى عليه تعلق الشعب بمراد وحبه له ، وأن هذا الحب كان بقدر كراهيته ليوسف وزهده فيه .

وكان مراد أهلا لهذه المحبة فهو الرقيق الحليم ، والعاقل المستنير ، والمتأدب المتوفر على قراءة الشعر والأدب ، والذى لا يسمع عليه قط من سوء ، وهو إلى كل ذلك متفنن مشغوف

بالموسيقى إلى أبعد الآماد ، وقد أكسبته هذه الصفات اعجاب الملوك . فقد اتفق أن صحبه السلطان عبد العزيز مع ابن عمه يوسف فى رحلة إلى ممالك أوربا ، فأنس به كثيرا نابليون الثالث وقدر ملكاته ملك بروسيا ، أما الملكة فيكتوريا فما وسعها إلا الثناء المستفيض على حصافته ولبقاته ، ومن عجب ألا ينال يوسف من كل هذا الاعجاب والاطراء شيئا ، فيحز ذلك فى نفسه ونفس أبيه ، ويعود المرتحلون إلى الوطن فيحاط مراد بالعيون وتحصى عليه الحركات والسكنات ولا يزايل القصر إلا فى مركبة مرخاة السدول .

وطالت الحيرة بعبد العزيز ، ولم يهتد إلى حيلة تخرجه من هذا المأزق المتضايق ، فهو مدفوع بوحى من أمه ذات الحول والسلطان ، ومسوق بهاتف من نفسه التى تحلم بنيل رغائبها فتستشعر اليأس فى كل يوم ، وتذهب أحلامها أباديد ، ويمر بخاطره أن يستجيب لنزغات الشيطان فينتفض أباء واستنكافا ، ويتعاظمه الذنب إن أزهق الروح الزكية ، ولا يملك إلا أن يسأل المنجم فلا يقدر المنجم على شىء !

ودارت الأيام وضاق الناس بحكم عبد العزيز الذى أراد

بيع بلاده للروس عن رضا وطواعية ، وقيد تركيا بديون يصعب الانطلاق من أسرها ، وكان كثير الاهواء شديد التعصب والجمود على القديم ، فاحفظ ذلك الشعب واسخط الوزراء ، وفى طليعتهم عونى باشا ، ومدحت باشا ، فصح عزمهم على التخلص من عبد العزيز بخلعه وتولية مراد لحاجة فى نفس يعقوب .. فما كان أيسر وأسرع من استصدار الفتوى بذلك فقضى الأمر ، وهب عبد العزيز من نومه منزعجا ذات صباح ، فقد أيقظه دق عنيف على بابه ، ودخل عليه من سلمه قرار العزل ، وأمر السلطان مراد بأن يغادر القصر مع أهل بيته . فاسقط فى يده وكاد ينشق غيظا وحزنا ، وذكر ابن أخيه وكيف جازاه نكرا بعرف ، فتعجب كثيرا وندم أشد الندم على الرأفة به والابقاء عليه ، أما السلطانة الوالدة فانطلق لسانها من اللعنات بماله وقع السياط ، ولـكن أنى للسهم المنطلق أن يرتد إلى القوس ، وللمتسخط أن يحبس الأفلاك عن دورتها ؟ قصفت المدافع ودوت الأبواق وطاف المنادون على ظهور الجياد يزفون البشرى بذهاب عبد العزيز واياب مراد .

وتم كل ذلك فى خفية من مراد الذى لم يكن يدرى من

الأمر أكثر من سخط الشعب على عمه ورغبة الوزراء في عزله والخلاص منه بحال من الأحوال ، وقد سبق لعونى باشا أن أشار تلميحا إلى ضرورة قتله ، فذعر مراد واستغفر الله من ذلك ، وآثر أن يموت على أن يرتضى قتل عبد العزيز . وما كان أشد فزع مراد ودهشته حين دخل عليه عونى وسلم بالسلطنة ، فسأل عن عبد العزيز مستفسرا عن مصيره ومشفقا عليه من أى سوء يناله ، حتى وقف على جلية الأمر فعاودته الطمأنينة وهدأت نفسه هونا ما ، تلك النفس التى عز عليها الهدوء منذ دهر طويل ، فقد كانت نهبا للهموم والغموم كلما طاف بها حقد عبد العزيز وزمرته الغاشمة التى كانت تتمنى العثار لمراد وتتربص به الدوائر ، فشرد لبه وسهر ليله واستعان بالصهباء على النسيان والسلوان ، والتمس فى إشراق كأسها ما يبدد عنه ظلمات بعضها فوق بعض ، فداوم على الشراب حتى ساءت صحته ودقت حساسيته ، فاشتد عليه وقع الحزن وتأثر لما لا يمكن أن يتأثر له غيره .

ومما ينهض دليلا على تأصل الخير فى قلبه وتجافيه عن الشماتة والتشفى ، أن يبكى مدرارا لمشاهدة عمه المخلوع مع والدته وولده فى القارب الذى مضى بهم إلى حيث مقرهم الجديد ، كما أوصى

بهم واستعطف عليهم حتى انه أجاب عبد العزيز إلى رغبته فى سكنى قصر (جراغان) على كره شديد من وزرائه .

وحل يوم عبوس حزين أنبىء فيه مراد بمصرع عبد العزيز ، وتضاربت فى ذلك الروايات ، فمن قائل أنه انتحر ، وقائل إن الوزراء تآمروا على قتله ، وان عونى باشا رأس هذه المؤامرة لأنه كان يريد أن يكون الحاكم الفعلى إذا جعل مرادا الحاكم الصورى ، ولم يعدم عبد العزيز من يثأر له فيقتل عونى شر قتلة ، ولا ينجو غيره من الوزراء إلا باعجوبة الأعاجيب ، فانخلع قلب السلطان لهذا النبأ وازدادت نفسيته ثورانا وتوترا ، وأخذه مر الاسى فاعتل وساءت حاله . قيل وعز نومه وامتنع قراره ، فما كان يصيب من الطعام الا يسيرا ولا يميز خيالا من حقيقة ، وهو يذرع حجرته جيئة وذهوبا مختلج الأعضاء هاذيا بما لا يفهم ، حتى ظن به ذهاب العقل . وقرر الطبيب أنه مصاب بهزة عصبية عنيفة يحتمل زوالها ان فى الحال أو فى المآل ، غير أن مدحت باشا الذى كان يريد خلع مراد لحرية مبادئه ورغبته فى الحد من إمتيازات رجال الدولة ، أوعز إلى الطبيب أن يعلن جنونه وأرغمه على ذلك بالوعد والوعيد ، حتى يفتى شيخ الاسلام

بعزله . ونال مدحت باشا أربه من الطبيب كما أفلح بعد لأى فى إقناع شيخ الإسلام . وخلع مراد كما خلع عبد العزيز من قبل بعد أن حكم ثلاثة وتسعين يوما . وعرض الملك على أخيه عبد الحميد فامتنع فى بادىء الأمر ، واشترط إلا يمس أخوه بسوء ، ثم قبل بتحرز وتحفظ ، فلم يكن الشعب راضيا عنه كما أعتبره أعضاء حزب تركيا الفتاة مغتصبا ، لجلوسه على العرش فى حياة أخيه .

وأقام مراد فى قصر جراغان لقضاء ماتبقى له من عمر قصير كما زعم المغرضون وافترى المفترون ، وفى الحق أنه تماثل من مرضه ومسح الله مابه ، فثاب اليه عقله الراجح ورأيه الصائب إلا أنه أصبح حبيسا فى القصر فلا دخول عليه ولا خلطة به ، وقد حظر ذلك حتى على أهله وولده ، فلم يكن له من أنيس يؤنس وحشته إلا البيانو الذى كان يحسن العزف عليه الاحسان كله ، فتهيم روحه مع الانغام ويعيش فى الأحلام متناسيا بذلك مرارة الأسر وقسوة الحرمان .

فهل كان مراد حقا على ماوصف أعداؤه ؟ ذلك السلطان الذى رسم الخطة لإلغاء الرق ونظام الخصيان ، وعزم على تحرير

المرأة التركية ، وفكر فى حشد أولاد المسلمين والنصارى واليهود فى مدرسة واحدة ، واجلاسهم لتلقى العلم جنبا إلى جنب ، ليشبوا على روح التسامح ، ويجبلوا على الاتحاد والتراحم؟ كلا إنها الأهواء والمطامع ، وصروف الليالى ونكد الطالع .

ومات مراد بعد أن قضى فى الأسر ثمانية وعشرين عاما ، وكان ذلك سنة ١٩٠٤ فانسدل بموته الستار على مأساة فى تاريخ الترك .

الشاعر الحزين

حزين شديد الحزن ، لا عن ميل طبعى يستوحش صاحبه من الدنيا وزهرتها ، فالأسى يغمر جنبات نفسه ، والكآبة تلح عليه أبدا ، كما قد يسبق إلى الفهم من معنى حزن الشاعر ، وإنما لخطب ألم ، ورزء حل ، فاستحال عرس الحياة مناحة ، ونورها ظلاما وجرت عبرات بعد أن أشرقت بسمات .

أما هذا الشاعر فعبد الحق حامد بك رائد الشعر التركى فى عصره الحديث ، وأما قصته الدامية الباكية فتبدأ فى الهند حيث كان عمله بالسفارة التركية ، وتنعمه بهناءة الحياة وصفائها إلى جانب زوجته الشابة فاطمة هانم التى كان يحبها حبا لا ينطوى عليه إلا قلب شاعر مثله ، ولا تحلم به إلا حسناء فى مثل حسنها . وقد اجتمع شملهما وتمت النعمة عليهما بطفل وطفلة ، فتعاطف القلبان ورق الروحان بين الأبوة وحنان الامومة . ومرت الأيام

كأسعد ماتمر الأيام ، حتى حل يوم دارت بالنحس أفلاكه ، وأخلفت فيه الآمال ما كان من وعدها . فاعتلت فاطمة وهاجت أوجاعها ، وكانت علة تعجز الطبيب وتيئس العليل وتفجع العواد ، فجزع عبد الحق حامد أشد الجزع إذ يرى شمسه تجنح إلى الغروب ليطمس بيته من بعدها ليل طويل ، وحار ولم يجد له مخرجا ، وعدم كل حيلة يرد بها الحبيب الغادى ، واصطرع اليأس والأمل فى قلبه الذابل المحزون ، فزينت له نفسه أن يرحل بالعليلة إلى استانبول ، وكأنه كان يلتمس دواء فى نسمات البحر ، وشفاء فى فرحة الإياب إلى الوطن ، وظلت هذه النية تملك عليه تفكيره المكدود وخياله الحائر ، غير أن هذا المطلب عز عليه ، لأن انقطاعه عن عمله وجسيم مسئوليته أمر عظيم ، ولن يعذره فى ذلك العاذرون مهما اتسعت له المعاذير ، وأيا ما كان ، فقد أحس بمس الحاجة إلى الفرار من عذاب يضنيه ويشقيه ، وبلاء يضيق عليه الأرض والسماء ، فنسى كل شىء أو تناسى كل شىء . وشاهدت بمباى ذات يوم سفينة مقلعة فيها عبد الحق حامد ساهما واجما ، مع زوجته الضاوية الذابلة وصغيرين كأنهما من ضعاف الطير .

واضطربت السفينة فى بحر غضوب يخاله السفر أبد الأبيد ، فتأذت بذلك كثيراً صحة فاطمة ، وما ألقيت المرســـاة فى بيروت حتى أيقن عبد الحق باستحالة أن يتابع رحلته ، فقد بلغت المريضة من الإعياء مبلغا يعجزها عن تكبد أيسر مشقة ، وجعل بيروت خاتمة المطاف ، وفيها كان آخر العهد بفاطمة .

واهتزت المدينة لموتها ولم يبق فيها إلا من بكاها ، وشيعها خلق كثير فى طليعتهم صفوة القوم ، وتقدمت جنازتها مظاهر الإجلال والإعظام ، ثم أودعت قبرا يزدان بهذه السطور :

« آه أيها الزائر ! لاحول ولا قوة للأنام شيبا وشبابا أمام فتكة الحمام ، وإن أسرارا إلهية لتكمن فى تراب المقابر ، والقبر الذى ترى مثوى لفاطمة هانم زوجة عبد الحق حامد الحبيبة إليه الأثيرة لديه . وكانت ـ يرحمها الله ـ يتيمة لأسرة بيرى زاده ، وقد خامرها السل فمضت فى ربيع العمر ، وفى أرض غريبة ، ولهذا الصدى روح ساكنة تطلب إليك قراءة الفاتحة . »

بيروت فى ٦ رجب سنة ١٣٠٢ .

وشاء الله أن ينهدم هذا القبر بعد أعوام ، فلا تبقى منه إلا

أحجار متناثرة فى ساحة تجر بها الرياح ذيولها ، غير أن انهدام القبر وزواله عن وجه الأرض ، وغياب صاحبته فى أطواء الغيب عن أعين الناظرين ، لم يمح من الدنيا ذكرى فاطمة ، فقد نظم عبد الحق حامد كتابا أسماه (المقبرة) ، وهو مرثية جميلة طويلة ضمنها نفسه الثكلى وقلبه الكسير ، فكانت أثرا فريداً فى الأدب التركى وتحفة فى الأدب الإنسانى ، وأجاد الشاعر فيها إيما إجادة لصدق عاطفته ، ومواتاة قريحته التى انطلقت على سجيتها ، ولسبب آخر لا يخفى ، فرثاء الزوجة متميز عن كل أنواع الرثاء ، وماذاك إلا لأنها زوجة وحبيبة ، فلها صفتان ولغيرها من الأموات واحدة ، والقصيدة تنوح ألما وتفيض دمعا وتدل دلالة واضحة على أن الشاعر كان ملهما لا مستلهما ، وحزينا باكيا لا حزينا متباكيا ، فليس فكره مسلسلا ، ولكنه متنقل من معنى إلى آخر ، ومعبر عما يمليه عليه فؤاد يعصف به الأسى ، فلم يصطنع صناعة الشعراء ، ولم يتأثر خطواتهم فيجرى فى الرثاء ، على عادتهم من ترديد معان مألوفة وترتيب أفكار معروفة كاستهلال الشعر بشكوى الزمان ومذمة الدنيا ، ثم الخروج من ذلك إلى تعداد مآثر الميت وذكر محاسنه . وشاعرنا يصور

الفجيعة ويعبر عن أثرها على حسه النفسى والأدبى ، ويسرد قصته من غير ماتزيد ولا إقحام ، فيذكرها فى موضع ويتوجع فى مواضع ، ثم يتفكر فى صرف الزمن وسر الموت والحياة . وكاد يتفلسف لولا حكم قلبه لعقله . وتغلب وجدانه على فكره تغلبا عطله وصرفه عن وجهته . وقد بدأ مرثيته بقوله :

« أواه ! لم تبق لى دار ولم يبق الزمان على حبيبى ، تخفق القلب ببكائى ونحيبى ، كانت ملء عينى وبين يدى ، ثم ارتحلت عنى إلى الآباد بعد قدومها إلى من الآزال . وانطلقت أنا لطيتى وتخلفت هى لتكون نهبا للبلى فى ركن لحد . ولم يبق لى من أنيس الروح ، ويلاه ، إلا هذا القبر فى بيروت . بالله أين أنشد هذه الجميلة ومن أسأل عن هذه المسكينة ؟ رحماك يارب هلا دللتنى وأرشدتنى؟ من ذا الذى ألقى بى فى البلاء والشقاء يارب؟ يريدوننى على نسيان الحبيب ويقولون انه زايل عالم الفناء إلى عالم الخلود والبقاء ، كيف يتسع لتلك الحقيقة خيالى ، وأنى تشاهد ذلك عيناى ! »

ويمضى الشاعر فى وصف بثه وبلواه بشعر طلى لا أثر فيه لتعمل ولا تكلف ، وهو حتى إذا هام فى الخيال وطابت له

نجوى الأحلام ، لايعدو حقائق تدور بالخلد وخطرات تمر على البال ، كأن يقول متمنياً : « هيا انهضى من لحدك يافاطمة ولنجددالعهد القديم ، جودى على ببنت شفة ولاتكتمينى سرا ، وإن القلب والله مشوق إلى حديث منك . أطلعينى على بسمة الورود من ثغرك ، واتحفينى بدواء للفؤاد من عندك . ولتتم أيام حياتى بنظرة لك ساحرة أو ضحكة فاتنة . »

أما إذا هدأت بلابله ورقأت مدامعه ، فإنه يفكر ويستبصر وينظر إلى الموت نظرة المشدوه المتسائل ، والحائر الذى لايستقر على حال فيقول : « يارب ، ليت شعرى مايكون هذا النعش الخشبى ، أليس حقيقا أن تذهل منه العقول ، وكيف يمكن أو يسوغ أن تتولى عجوز شمطاء تكفين جسد له هذا الرواء وذاك البهاء ! »

ويضرب على هذا الوتر الحزين إلى نهاية مرثيته التى دارت على حبيبه المفقود ، فكانت رقيقة المعنى أنيقة اللفظ ، وقد صرح برأيه فيها فقال : إنها ليست موضعا لإعجابه وإنما يعتز بها كثيراً لأنها ترجمان قلبه ولسان حاله والتذكار الباقى للحبيب الغادى .

وله منظومة أخرى تسمى « الميت » وتعتبر تتمة « للمقبرة » وامتدادا لها ، وأن اختلفت عنها بعض اختلاف ، وظهرت فيها آثر مرور الأيام على تلك المأساة التى بعثت الشاعر على نظم مقبرته ، فقد تسعر الجمر ثم خبت ناره تحت أكفان الرماد ، ووجد المحزون الولهان شيئا من برد السلوان ، فهدأت العاطفة وسكتت لتفسح للعقل مجال القول ، فالشاعر هادىء متزن عميق الفكرة يقبل على الموت مفكراً فيه بعد أن كان ينفر جزعا منه ، ويريد ليكشف خفاياه وخباياه ، وهو الذى كان لا يطيق له تصورا ولا ذكرا ، فعبد الحق حامد فى مرثيته هذه يعرض علينا صورة لفلسفته وهى صورة حزينة يستمدها من موت فاطمة الذى هاض جناحه وهد منكبه وترك جراحا فى قلبه تنكؤها الذكرى من حين إلى حين. والملحوظ عليه فى هذه القصيدة أنه يفكر أولا ثم يحس بالتالى ، فنصيبها من التفكير أكثر من نصيبها من الحس والشعور ، والآية منعكسة فى مرثيته الأولى فكأنه بهاتين القصيدتين قد ساق لنا أحسن مثال للنفس الانسانية المحزونة . ويقول متحدثا عن مشكلة الموت ، وواصفا عجز المرء وقلة حيلته أمام طلاسمه : « حرام والله ألا يحيط

القلب بشيء من ذلك علما مادامت للمرء عيون لاتشاهد إلا الحقائق فى هذا الوجود . نحن لانملك إلا اشتياقا إلى الوقوف على السر ولكن هيهات ! ، فلن يبلغ العقل من ذلك شيئا . الموت موقظنا من رقدة الغفلة وإن كان لايخرجنا عن ظلمة الحيرة ! »

ويطّرد شعره على هذا النسق التأملى والنحو الفلسفى حتى يشكل الأمر على القارىء فيكاد ينسى أنه تجاه قصيدة فى رثاء فاطمة ، لولا أن يذكرها راثيها بين الفينة والفينة كأن يقول : «فى الموت حارت البابنا ، ولولا الموت ما كان وجود ، بالله كيف الام على البكاء والشكوى إذا ذكر القلب من أهوى وما آلت اليه حالها ، فقد أودعتها رمال بيروت ، وكانت وردية الثغر فذبلت ورقاته وانتثرت منه اللآلىء . »

ولعبد الحق رأى فى الحزن طريف ، فيرى أن من القلوب مايتسع للفرح والكدر جميعا ، كما أن منها مالا يكن إلا أحدهما ، وهناك نفوس لاتمحو آلامها كل مافى الحياة من متعة ومسرة ، وإلى جانبها نفوس تحزن ، وسرعان ماتطرح عنها الأحزان ، ثم يتحدث عن نفسه فيقول . إن الافراح تزيد اتراحه ، ولذلك فهو يطلب السرور لينعم بالألم ، ويقر بعجزه عن تعليل ذلك وتفسيره . وقد تزوج غير مرة بعد فاطمة ، فهل كان ذلك منه لذكرها أم لنسيانها ، ووفاء لها أم تخونا لعهدها !؟

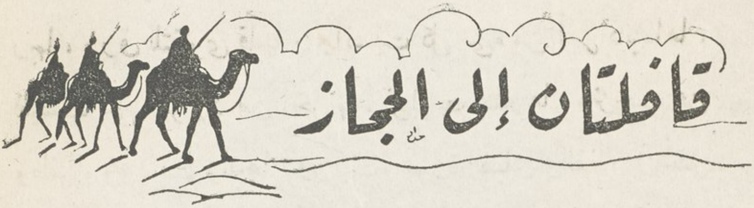

قافلتان إلى الحجاز

منذ مائة عام أو أكثر قليلا ، كانت القافلة تسير سيرا وئيدآ تناغم حركاته خفقات فى صوت الحادى الحزين ، ورنات ضاحكة لجلاجل فى أعناق الابل ، فتعمر بذلك وديان موحشة قفرة ، وينطق بالصدى صخر الجبال ، فكأن غريبا يؤوب إلى وطنه وينقلب إلى أحبته ، وفى قلبه فرحة يختلج منها صوته ضحكا وبكاء .

وحق للركب أن يطرحوا عنهم اصر أحزانهم ، ويفرحوا ما اتسعت للفرح أرواحهم ، لأنهم انما كانوا فى سبيلهم إلى بيت الله حيث تتطهر النفوس ، وتغتفر الذنوب ، وتستجاب الدعوات ، ويرتحل الانسان من عالم العناء والفناء ، إلى عالم الصفاء والبقاء . ولئن زان القلادة واسطتها ، فقد زان القافلة

هودج ستوره من حرير ، وحشاياه من مخمل ، يتضوع مسكا ويدل مظهره على مخبره . وهل يصح فى الافهام الا أن يكون مركبا لكريمة من الكرائم ، وعقيلة من العقائل ، لبت نداء ربها ، ورق للتقوى قلبها ، وأنسيت كل شيء من أمر دنياها ، فليست على ذكر إلا من آخرتها . فزايلت خدرها ، ونزحت عن وطنها ، وودعت ولدها ، وركبت وعورة الفيافى والقفار فى سفر بعيد الشقة كثير المشقة ، أيامه عطاش أجهدها العطش ، ولياليه مسهدة سهدها الفزع ، وآثرت اداء الفريضة على حياة ناعمة حالمة كانت تحياها فى القصر بايران ، فصاحبة الهودج هى (بيكم جان خانم) احدى زوجات فتحعليشاه قاجار صاحب الحول والطول والملك والسلطان ؛ ورفقتها سرب من جواريها الحسان وبعض النساء من صفوة القوم .

ومضت القافلة تمشى على سكينة ، فقربت ما كان بعيداً ، وأبعدت ما كان قريبا ، إلى أن وافت بلاد الترك ، وهناك طاب للمسافرين أن ينزلوا ، وللمتعبين أن يستريحوا ، فضربوا الخيام بظاهر احدى المدائن ليتلبثوا أياما معدودات يتابعون بعدها رحلتهم بأهبة أحسن ، وقدرة أشد . وكان العداء فى هذا الزمان

مستحكما بين الفرس والترك ، ولا غرو فإن الفرس شيعة مجتهدون والترك أهل سنة متزمون ، فكل يتربص بعدوه الدوائر ، ويكيد لخصمه متمنياً فرصة لشفاء غيظه منه ، ومنتظرا زلة تصدر أو هفوة تبدر ، ليحتكم إلى السيف وينفس به عن دماء طالما غلت غضبا وحنقا .

فما كاد المقام القصير يستقر بالنزلاء الايرانيين ، حتى تحرك الحقد فى نفوس الترك ، فنسبوا الى بعض التجار المهاجرين انهم يخفون قدرا من سلعهم عن أعين الحراس تهربا من اداء مكس عليها ، كما ظنوا ، وبعض الظن اثم ، انهم يحتالون على ذلك بدسها فى أمتعة النساء من هؤلاء الحجاج .

وافترص الحراس الترك ذلك لينالوا الايرانيين بما يكرهون من بحث عن السلع المخفية فى طواياها الأحمال وثنايا الثياب ، وما يتبع من هتك للستور وانتهاك لحرمة ربات الخدور وبينهن زوجة الشاه بمهابتها وسمو منزلتها . فكبر على الايرانيين أن يركبوا بالصغار ، ويساموا ذل العبدان ، وتهيأوا للذود عن أنفسهم بالسيوف المشرعات ، ووقفوا للقتال صفاصفا ، وجاء الحراس بشرذمة من الانكشارية لاستخدام العنف إذا استلزم الأمر

العنف ، غير أن قائدهم كان رجلا موفور الحظ من حصافة الرأى ورجاحة العقل ، فبدلا من أمر جنوده بالشد والتقدم ، أشار اليهم بالاحجام والتقهقر ، وطلب مقابلة أمير الحج وكان يدعى (حاجى ميرزا علیرضا) . فدخل عليه مسلما ، وأخبره أنه انما جاء مستفسرا عن الحال ، وسأله ان كان به إلى الميرة حاجة ، كما عاهده على دفع كل مكروه ينال فرداً من أفراد القافلة ، ثم أحسن الاعتذار عما وقع من أمر قد يكون عكر الصفو وكدر النفس فطيب خاطره ، وعرض أن يسهر على راحة الحجاج فهم ضيفان النبي ، وضيفان أينما حلوا وحقهم الاعزاز والاكرام .

وهكذا ألقى المتخاصمون سلاحهم ، وتناسوا كل ضغن كان بينهم ، كرامة للنبي العربي الكريم وزواره الأكرمين . وكفى الله المؤمنين القتال .

وان قصة هذه القافلة لتعيد إلى الذكر قصة قافلة أخرى خرجت من ايران فى عهد الشاه طهماسب المتوفى سنة ١٥٧٦ م يرأسها من يدعى (معصوم بيك) وكان عظيم الجاه عزيز الجانب يمت بالقرابة إلى الشاه وله من هيبة الملوك ما يرفعه فوق الناس كافة ، ويجعله سيداً فى قومه مسموع الكلمة مطاع الاشارة وقد

تطاولت أيامه وامتد عمره حتى ذرف على الثمانين ، فأدركته سأمة من تلك الحياة الطويلة ، بعد أن نال منها منية المتمنى ، ولم يذق للحرمان يوما طعما مرا ، كما أنه لم يغفل عن أن لكل أجل كتابا ، وأن الموت يأتيه ولو كان فى برجه المشيد ، وأحس دنو آخرته ، وما سوف ينتظره فيها من نعيم مقيم أو عذاب أليم ، فظمئت نفسه إلى قضاء مناسك الحج ، والتزود بذلك من دنياه لعقباه .

وسارت قافلته سيراً ليس بالعنيف ، رأفة بشيخوخته ، وإبقاء على ذلك الرمق الذى أبقته فيه الأيام ، فكان السفار ينيخون مطاياهم فى كل بلد يحلون به . فيرى الناس من سماحة معصوم بيك وسخائه شيئا عجبا لم يعهدوه إلا فى أقاصيص الكرماء ، وكأنما أراد الرجل أن يخرج عن كل ماله حتى لا يرى كفا تمتد بالسؤال ، ولا يسمع أنينا يرتفع من جوف جائع . فطار صيته فى الآفاق وذكر فى كل مجلس بالحسنى ، حتى جاء مكة بعد طول زمان ، وكان من رحمة الله به أن يحقق فيها أمله الأوحد .

غير أنه رأى هناك ما ساءه وأحزنه ، فقد أغارت طائفة من

شذاذ العرب وصعاليكهم على قافلة تضم كثيرا من النفوس وجزيلا من الأموال ، وكان المغيرون غلاظا شدادا ، لا يقنعون بالأسلاب وان عظمت ، بل يحبون أشباع خبيث طبائعهم ومجنون نزواتهم بتقتيل الابرياء وتعذيب الأسرى ، وبلغ من عتوهم وجبروتهم أن أعيا أمرهم جنود الترك المنوط بهم تأديب أمثالهم والأخذ على أيديهم ، فاعتل الجنود بكثرة عددهم وشدة بأسهم . وتحركت أريحية معصوم بيك وثارت حميته ومروءته ، ورأى أن يغير المنكر بقلبه ولسانه ويده ، فأمر من كان يرافقه من الفرسان والاتباع أن يقاتلوا هؤلاء الاعراب المفسدين ، فحاربوهم وصدعوهم فتصدعوا ، وفروا إلى كل وجه ، بعد أن تركوا ما سلبوا وأطلقوا من أسروا .

واستحق معصوم بيك ورجاله البواسل بذلك من الحجيج كل ثناء وتمجيد ، وان كان هذا النصر الحاسم قد كشف عن عجز جند الترك ، وأثبت فشلهم وخور عزائمهم ، فشعروا بوصمة العار فى جباههم ، والشنار ينكس رءوسهم ، فاضطغنوها على معصوم بيك وطوعت لهم نفوسهم أن يقتلوه ، وبيتوا على ذلك نيتهم ، ورصدوه يوما مع أصحابه فقتلوهم جميعاً وهم حرم .

وذهب ضحية الخبث وأقبح الغدر ، وقتل لا لشر صنعه بل لشر منعه ، وصدق من قال : أن الحسود مغيظ على من لا ذنب له .

وان الفرق لبعيد بين مصير أصحاب هاتين القافلتين مع الترك ، فقد أكرم الأولون وهم فى سبيلهم إلى الحجاز على نية الحج ، أما الآخرون فاستشهدوا فى مكة وهم يحجون . وهكذا يكرم الله قوما فى حياتهم وقوما بعد مماتهم .

شاعر السجان

إذا ماجرى للسجن والسجين فى الشعر ذكر ، فالشاعر متميز بحساسية الوجدان ، وحرارة العاطفة ، وصدق التعبير ، والمجال أمامه منفسح للاتيان بالرقيق الأنيق ، فأسباب الإجادة أو معظمها مهيأة ، لأن الشعراء السجناء منطلقون على سجيتهم ، يتحدثون عما يقع تحت حسهم ، فلا يحاولون مستحيلا ، ولا يعرفون إلى التصنع سبيلا كما يفعل المتغزلون مثلا فى الأحايين الكثيرة . وإن السجن وما يلقاه السجين من الألاقى فى غياهبه ، لما يبعث على التحدث عن النفس ووصف الحال ببليغ التعبير ، ومن ثم كانت الحبسيات فى جملتها جيدة ، كما يلحظ أنها قليلة ، ومرد قلتها إلا أنها ليست فنا شعريا قائما بذاته منصوصا عليه كالوصف والرثاء والهجاء ونحو ذلك ، ومحال أن يقول الشعراء

الشعر رياضة فيها ، فلا بد لشاعرها من تجربة خاصة ، وأمر يقع له دون سواء ليصبح من شعرائها . وما هي من فلتات اللسان ، وإن كانت فلتات اللسان وزلاته أول سبب في إيصالها إلى حيز الوجود .

وأصحابها بطانة الملوك وندماؤهم ، المعرضون منهم لسخط قد يسلمهم إلى الجلاد أو إلى السجان . و قديما قال أحد الحكماء : إن ثلاثة ليس لها أمان ، البحر والسلطان والزمان !

وإن آداب الفرس والترك لتعتز كثيراً بشاعرين من هؤلاء السجناء وهما مسعود سلمان الفارسي المتوفى سنة ١١٣١ ميلادية وأحمد باشا التركي الذي مات سنة ٩٠٢ هجرية .

وكان كلاهما من فحول الشعراء في عصره ، غير أن شعرا ترنما به في محبسهما ، فاختنقت نبراته بين جدران كالحة ، وضاعت نغماته في صليل ثقيل الأغلال ، هو الذي رفع من ذكرهما ، ونشر في الآفاق صيتهما .

وقد عاش مسعود سلمان في عهد الغزنويين الذين ناصروا العلوم والآداب في إيران فبلغت شأوا بعيد المدى ، ثم فتحوا الهند وأنفذوا إليها حضارة إسلامية زاهرة ، وأدبا فارسيا

رفيعاً ، وهو ينتمى إلى أسرة عرفت بالعلم والفضل ، وورث الأدب أفرادها كابراً عن كابر . وفى مدينة لاهور بالهند كان مولده ، وبها أمضى زهرة العمر متقلبا فى أعطاف نعمة سابغة ، ولا غرو فقد كان من أهل المنزلة عند الحكام . واتفق للسلطان ابراهيم الغزنوى أن جعله من خاصته ، وأهل مشورته . فأقبلت عليه الدنيا وعظم جاهه وزادقدره فاقتنى الضياع وابتنى القصور .

ودارت الأيام فتبدلت الحال وتعكر الصفو ، لأن الرجل كان محسداً كثير الأعادى محاطا بالواشين والدساسين الذين أوغروا عليه صدر السلطان ، فما كان منه إلا أن أمر بزجه فى السجن فاحتوته قلعة يقال لها (ناى) . وقد ألقى المرجفون فى روع السلطان أنه يتآمر على سلامة ملكه ، وفى الواقع ، كان الرجل برىء الساحة مما نسب إليه ، وإنما أرادبعض الظالمين أن يغصبوه حقه فى ضيعة له ، وأراد أن يرد كيدهم ويستعدى السلطان عليهم ، فكانت فى نفوسهم . ومشوا بنميمهم حتى جروا البلاء عليه . وفى ذلك يقول :

« مولاى العظيم ! لقد لبثت فى السجن أعواما عشرة أو نحوها ، وللهموم عصفات بنفسى وفتكات بروحى ، بالله أنى

يكون لى تحول عن دولتك السنية وأنا صنعتها وعبد إحسانها كما كان سلفى من قبل . كلا . لقد قام سعد سلمان فى خدمتك خمسين عاما حتى أتيح له بالكد والجد أن يمتلك ضيعة وعقارا وقد بخسنى الظالمون حقى ، فضاقت ذات يدى ، وأصبحت معدما ، وجئتك متظلما مستعديا ، أطلب العدل والنصفة ، ولم يدر بخلدى ما خبأ القدر لى فى طواياه . والله ما أدرى أى ذنب كان منى ؟ ! غير أن أعداء خبثاء مكروا بى وكادوا لى . »

ومن طريف ما يروى عنه ، أنه زامل فى سجنه سجينا يقال له بهرامى وكان رجلا عالما بالنجوم وأحكامها ، فسرعان ما تأكدت المودة بين السجينين وجرى بينهما حديث العلم مخففا للبلوى ، مؤنسا للوحشة ، وتتلمذ مسعود لبهرامى فى علم الفلك ، وقد وصف حاله وذكر قصته مع بهرامى فى قوله : «تلك قصتى فاستمع إليها ، وزنها بعقلك فإن العقل ميزان العدل . لقد اطلعت فى هذه القلعة على أسرار النجوم فى مسالكها حتى رأيت قرانها واحتراقها . وكنت أجلس فأشاهد أمامى شبحا للموت فاغرا فاه كالأفعى ، ولقد أوهت الكبول ساقى وأضوانى ما ألقاه من هول العذاب ورهبة المحن ، ولا أجد من أقول له وأسمع منه ؛

ولولا بهرامى لساءت حالى ، فقد كان المسكين يصف النجوم لى تارة ، ويحدثنى عن سر الأفلاك تارة أخرى ، حتى عرفت منه علمها ، وأحطت علما بشكلها » .

وله بيتان مؤثران يذكر فيهما أمه العجوز ، والحال التى آلت إليها من بعده ، والعجب أنه لا يصطنع فيما يقول اغراقا ولا مبالغة . فكلامه حقائق يقررها بشعر لا أثر فيه للمحسنات اللفظية وقد وجد فى رقة المعنى عوضا عن جمال اللفظ . يقول مسعود سلمان : « لولا أسى تلك العجوز التى وهنت قواها وأصبحت عينها سحابا ، ودمعها أمطارا ، وران الهم على قلبى حتى غابت الدنيا عن بصرى ، لما اهتززت لذلك والله على ما أقول شهيد » .

وقد شفع الشفعاء له عند السلطان فادركته الرقة عليه وتجاوز عنه ، فخلى سبيله ورد إليه ماله وضياعه . ومات السلطان ابراهيم الغزنوى وخلفه ولده السلطان مسعود الذى جعل ولاية الهند لولده عضد الدولة شيرزاد ، وكان أحد رجال الدولة وهو أبو النصر الفارسى ممن يعزون مسعود سلمان لمنزلته فى الشعر والأدب ، وأراد أن يكافئه فما زال بالوالى حتى اقنعه بضرورة اسناد حكم أحد الأقاليم إلى مسعود سلمان ، وتم الأمر فأصبح

من الحكام ، إلا أن أبا النصر الفارسى الذى كان بالأمس صفيه أصبح فيما بعد عدوه ، فشكاه إلى السلطـــان الذى أمر بسجنه فسجن فى قلعة (مرنج) وأقام ثمانية أعوام فى ألم ممض وعذاب غليظ . ومن قوله يصف حاله : « إذا رأيت وحدتى فى محبسى حدثتني النفس أنى فى صحراء ، فحجرتى قبر شديد الظلمة. وسجانى خنزير قبيح الهيئة كريه الخلقة ، فاستسلم للهم مستيئسا أو أطفىء بالدموع نيران قلبى ، لقد ضعف جسمى فقويت روحى، وانعقد أملى بلطف ربى » .

غير أن محنة مسعود سلمان لم تكن شرا محضا فقد أقر بأنها لم تخل من خير أصابه ، لأنه عرف نعمة الألم وأثرها فى تهذيب النفس حتى صرح بأنه مدين للسجن بالفضل ، فهو القائل : «كيف اجحد فضلا على لهذه القلعة التى زادتنى علما وفهما ، وان الحك والنحت ليظهران من السيوف جوهرها ومن السهام نقشها » . كما قال : « لا تضق بصروف الدهر يا مسعود ، وإذا نالتك بما تكره من أذى فلا يحزنك شىء من هذا ، وارفع الرأس عاليا كشجرة السرو ، إذا ما هوت على رأسك الدنيا » . وانطلق مسعود سلمان من سجنه شيخا فانيا ، لا يتماسك ضعفا ، وقد

سم الحياة التى امتلأت عليه هما وغماواسرا وظلاما ، فقضى بقية أيامه معتزلا متخليا من الدنيا يعبد الله ويسأله التعجيل به إلى حيث يلقاه ويشهد حياة هى من حياته خير وأبقى .

أما أحمد باشا فقد ولد فى مدينة بروسه بالأناضول ، وهو من أسرة كريمة لها حظ من أبهة الحكم ، وتلك المهابة التى تحيط كالهالة باصحاب المناصب الرفيعة ، فأبوه قاضى عسكر السلطان مراد الثانى ومن سلالة النبى صلى الله عليه وسلم . ولم يكن أحمد باشا أقل من أبيه رتبة ، بل أعلى منه فى واقع الأمر ، لأنه كان مؤدب السلطـان محمد الفاتح ذلك السلطـان الذى كان يعرف له قدره ، ويذكر له عليه فضله ، وقدأشركه معه فى فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ، وبوأه أعلى المناصب فاتخذه وزيراً له ، وكانت منزلته فى دولة الأدب كمنزلته فى دولة الرتب . فهو شاعر كبير ويعتبره مؤرخو الأدب التركى أول من قال الشعر فى اللهجة العثمانية بعد أن أصبحت لهجة الترك الأدبية . ولهذا الشاعر قصة عجيبة مع السلطان محمد الفاتح ، فقد مر بسمع السلطان أن أحمد باشا يطيل فى وصف غلام جميل الشعر ، على أن الشعراء موكلون بالحسن يتغزلون فيه أينما وجدوه ، فكره السلطان مغبة الأمر ، واشفق من

أن يختلط ذلك على العوام ، فتحدثهم عقولهم بأن الوزير يقول الشعر فى الغلام ذهابا منه إلى المجون والصبوة . ولم يكن السلطان على ثقة من صحة الخبر فأراد أن يمنع اللبس بالتجربة ويعرف الحقيقة بالدليل ، فأمر بالغلام فجزت ناصيته وأرسل إلى حمام أحمد باشا حاملا قدحا من الشراب ، وما وقعت عليه عين الباشا حتى تحركت شاعريته فقال على البديهة : « جزت للصنم الجميل ناصيته فبقى من الكافرين ، وقطع المجوسى زناره ، فما أصبح من المؤمنين » .

ووقف السلطان على جلية الأمر فاستشاط غضبا وأصدر أمره فقبض على الباشا وحبس إلى أن يرى فيه رأيه ، وما كان رأيه إلا أن يضرب عنق معلمه ورئيس دولته . فأخذ الأسى من أحمد باشا كل مأخذ وكبر عليه أن يمعن السلطان فى اذلاله هذا الامعان على غير ذنب كان منه ، فالشعراء فى كل واد يهيمون ويقولون ما لا يفعلون ، فكتب وهو فى محبسه صحيفة انفذها إليه ، وكانت هذه الصحيفة منطوية على قصيدة معروفة فى الأدب التركى بقصيدة الكرم ، ومن قوله فيها : « ان كرمك بحر والقطرة منه بحر للكرم ، والسخاء خميلة ترتوى من شآبيب

كرمك . بالله لاتستذلنى ، فانت الذى من قبل قد أعززتنى ، ولا تقرع على المعروف سنا للندم ، فتلك شيمة الكرام . واذا ما فرط من عبد ذنب ، فما ضر لو غفرت له فرطاته ولم تؤاخذه على سقطاته».

وقرأ السلطان القصيدة فوقعت منه موقعا حسنا ، وصفح عن احمد باشا صفحا جميلا ، غير أنه خلعه من الوزارة وناط به منصبا آخر .

ومن واضح الأمر أن حبسية احمد باشا لاتقاس فى الجودة بحبسيات مسعود سلمان ، غير أن الشاعرين جميعا دون سواهما ، قالا هذا اللون من الشعر فكان ظهورهما البين فى تاريخ أدب الفرس الترك .

غضبة الأرض

يذكر التاريخ فيما يذكر من أخبار الزمان وأهله ، أن داء عياء ألم بزبيدة زوج الرشيد فأشفت منه على الفناء ، وهاجت على الأيام أوجاعها ، واكتوت من وقد الحمى بما تذوب له العظام وتطير العقول شعاعا ، واستفسر عما تشتكى نطس الأطباء ، فقلبوا الرأى مليا ، وقال قائلهم أن المريضة تستوخم بغداد ، فمن الخير أن ترحل عنها وتنتجع الشفاء فى بلد أطيب هواء . فكان مالا بد أن يكون ، وسار الركب بالمريضة إلى بقعة فى شمال غرب إيران ، وهناك تلبثت أياما فمسح الله مابها ، وخمدت الحمى بعد طول إضطرام ، وعاودتها العافية كما يعاود بستان الخريف رونق الربيع ونضرته ، فسرت سرورا لا مزيد عليه ، وبلغ من فرط بهجتها ، أن أمرت بتشييد مدينة فى تلك الناحية ، واختارت لها اسما واضح المعنى ، وهو تبريز أى شافية الحمى . وفى عام ١٦٥

هجرية ، رفعت تبريز مآذنها ونفخت قبابها كأنها تتيه على المدائن بأنها شفت زوج أمير المؤمنين ، وعمرت دورها واستبحر عمرانها على هذه الذكرى السعيدة التى لا تزداد إلا جدة على كر الجديدين .

غير أن المدينة الجميلة كانت شقية بجمالها فأرضها طيبة فى ظاهرها غير طيبة فى باطنها ، لأن أقليمها معروف بآذربيجان ومعنى آذربيجان الأرض التى تكن النار . ومرد هذه التسمية إلى أن ذلك الأقليم كثير الزلازل ، معرض بطبيعته لويلاتها ونكباتها ، فقد زلزلت الأرض زلزالها فى تبريز قبل أن يمضى على تشييدها سبعون عاما فهوى شاهق البنيان من عليائه ، وسويت الدور بالتراب هدما ، وامحت آيات المدينة وهلك من أهلها الجم الغفير ، بعد إذ رأوا من ذلك اشراط الساعة وأهوال القيامة ، ومنيت بمثل هذه النكبة عام ٤٣٤ هجرية ، ويقال أن منجما يدعى أبا طاهر الشيرازى تنبأ بهذا البلاء قبل وقوعه بزمن يسير ، ولما عرف الناس ذلك زايلوا ديارهم وهاموا على وجوههم يطلبون الفرار ، فضربوا الخيام فى الصحراء ، حتى وقع الخطب وهدم الزلزال ما هدم وقتل من عزه أن ينجو من شديد بطشه .

وللشاعر الفارسى قطران المتوفى سنة ٤٦٥ هجرية قصيدة عصماء ، أصاب فيها صفات هذا الزلزال ، وهو لم يقتصر على وصفه اقتصارا تاما وإنما تجاوزه إلى غير ذلك كشكوى الزمان والتعجب من صروفه ؛ كما يقتضى المقام هذا ، والبساطة طابع القصيدة ، وقد بلغت البساطة فى شعره حدا جعلها أشبه شىء بالسذاجة . وقطران شاعر طويل النفس مشرق الديباجة يؤثر الجزالة والمعانى الناطقة ، على المحسنات اللفظية التى كثيرا ما شوهت من جمال الشعر . وقد استهل قصيدته بالاخبات والرضا بقضاء الله ، واظهار عجز الإنسان أمام قدرة الرحمن ، فقال : « لا نفع لك ولا جدوى إذا تعلق قلبك بالمحال ، فى عالم لا دوام له على حال من الأحوال . انت أن حلت فلا يحول الليل ولا النهار ، وإذا تغيرت فلا تغير لحال من أحوال الدنيا . فما الافتنال وزجر الطير ! لا تشتغل بذلك القلب عبثا . أن للقضاء حكما لا بد على القلب يسرى ، وهو مع ذلك من حكم القضاء يشكو ، ونفسك نهب للأمل فأنت تخشى إنقضاء الأجل . فبالله دع عنك ذكر الاتراح فى يوم الافراح ، واطو حديث الفراق يوم الوصال . »

وهو إذا فرغ من قوله هذا يواجه موضوعه فيدخله من بابه فى سهولة ويسر ، فيروى الخبر بلسان صدق ، ويقول :

« ليس فى الآفاق بلدة تضاهى تبريز فى جمالها وطيبها وأمنها وغناها ، وأهلها ينعمون بالطيبات ، ويرشفون اللذات فى كؤوس مترعات ، وقد شغل كل من فيها بآمال له يحققها ، وسواء فى ذلك سيد ومسود ، عظيم وغير عظيم . فمن عابد للخالق ، إلى خادم للمخلوق ، ومن طالب دنيا إلى آمل فى عقبى ، وفيها شارب الصهباء ومستمع للغناء ، ومطلق الفهود لصيد الغزلان . وصب الله على أهل تبريز البلاء والفناء صبا ، وأراد لنعمتها الزوال فزالت ، وأصبحت نجادها وهادا ، ووهاد نجادا ، وصار رمادها رمالا ، وتصدعت الأرض وتمزقت زروعها ، وفارت البحار وسارت الجبال ، وكم قصور كانت تناطح الأفلاك بقبابها ، لم يبق منها سوى أطلال ، وكم دوحة كان فرعها بين النجوم ، لم يبق منها غير آثار لها . وليس من يقول لغيره لا تبك ولا تنتحب . »

وهكذا رسم قطران للزلزال هذه الصورة التى لم تتعد الصدق فى شيء . وقد أيد كثيرا من أوصاف تلك المدينة الرحالة

فلاندن الذى زار إيران سنة ١٨٤٠ ميلادية أى بعد موت الشاعر بأعوام طوال ، فقال إن تبريز مدينة حزينة ، لأن أهلها يخافون الزلازل فيبنون ديارهم فى منخفضات من الأرض ولا يجعلون للمسجد منارة ، ولذلك تعرت أسـواقهم وديارهم ومساجدهم عن كل زينة .

وفى عام ١٨٩٤ تزلزلت الأرض فى استانبول فهلك بشر كثير . وللشاعر التركى توفيق فكرت بك قصيدة جميلة فى هذه المناسبة ، ولاغرو فهو من رواد الأدب التركى فى عصره الحديث وشعره متميز بالمعنى العام والتعبير الدقيق ، والذى نراه ، أن توفيق فكرت بك أكثر شعراء الترك المحدثين غوصا على المعانى وهو يتعب القارىء فى الأحايين الكثيرة حتى يتفهم المعنى الخفى ، وذلك لاصطناعه الرمز والإيماء وتحليقه فى أبعد الآفاق ، مما يجعل شعره مثالا للشعر العالى عند الترك وغير الترك . وفى قصيدته المسماة بالزلزال دلالة واضحة على ذلك . فقد تحدث عن هذا الزلزال ولكنه لم يصفه كما وصفه الشاعر الإيرانى قطران وصفا قصصيا جزئيا ، أولى به أن يسمى خبرا من أن يسمى شعراً ، وإنما أحس بالزلزال وشاهد أثره ، فتأثرت بذلك

نفسه ، واستيقظت فيها احاسيس كن نوما ، واتخذ هذا الحادث أداة تعبير له ، وإطارا يرسم فيه صورة وجدانية خاصة ، فقد انفق أن وقعت هذه الفاجعة بعد مولد ولد له بمدة غير مديدة فزلزلت مهده ، وكانت أول تجربة قاسية أحس بها الوليد فى دنيا دخلها بالأمس القريب . فتعجب الأب كثيراً ، وأدار فى رأسه أحلاما وأفكارا وتساءل عما سوف يقدر لهذا الطفل الغرير فى مقبل الأيام .

فبدأ قصيدته موجها قوله إليه ، وذاكرا أنه حل ضيفا بالأمس على دنيا يشبهها بغرفة أبلى القدم كل مافيها وقد اختلجت أرضها فحطمت وصدعت وهدمت ، إلى أن يقول : « ذبلت الوجوه حزنا وهلعا ، وأصبحت الديار وساكنوها كالفراش المبثوث ، أما ماتبقى منهم فعاجز ذليل ، وقد أحنى الخشوع والانكسار رءوسا كانت مرفوعة ، وحتى رءوس المآذن نكست فى الأرض . وإن مثل هذه الصدمة النكراء لتوقظ الناس من غفلتهم . ولكن ، أكل هذا العذاب المهين لتنبيه الغافلين لله ما أقساه درسا ! » ثم يطوى ذكر الزلزال بعد أن خلص منه إلى غرضه فيلتفت إلى ولده ويقول . « ها أنتذا ضيف لايام

سود ، فلا ريب ان حياتك لن تكون سياحة هينة هنيئة تفعم القلب سرورا . وفى هذه الحياة التى هى تيه محنة وبلاء ، لتلك السياحة الهنيئة خيال يطوف بالنفس ليس إلا . وما نهاية السير الحثيث إلى السراب البعيد إلا عناء يذهب أدراج الرياح ومن كد حق الكد ، كسب الحياة ، ولا مندوحة لك عن أن تخسر قليلا لتكسب كثيرا . » وبعد أن مضى توفيق فكرت بك فى المعانى التى نسى بها الزلزال الذى كان بصدده نسيانا تاما ، عاد إلى ذكره فى البيتين الأخيرين من هذه القصيدة . وهو يركز فكره ويصور خياله فيقول : « وان من جاهد فى طلب المعالى ليخطو خطوات يثقلها الخوف وإن كانت مجيدة مشرفة ، وما ذاك إلا لأن الزلازل من خلفه ، والزلازل بين يديه . »

وان انعكاس هـذه الغضبة الأرضية على حس هذين الشاعرين ، ليظهر لنا الفرق واضحا بينهما ، فنجد نفسيتين مختلفتين ، ومدرستين شعريتين .

هو عارف القزوينى شاعر الوطنية وشاعر الشعب فى ايران ، وشعره يتسم بالرقة وبروز المعنى فى ظاهر اللفظ ، وإن لم يكن له ما لشعر الفحول من جزالة واشراق ديباجة وأحكام نسج ، وقد نال شعره هذا بتلك السلاسة رواجا وسيرورة بين طبقات الشعب التى تؤثر اليسير على العسير ، ولا تملك من تمام الأداة وقوة الفهم معوانا لها على اجتياز وعورة الألفاظ للوصول إلى المعنى العالى والقصد الخفى . ومما زاد هذا الشاعر شهرة وقربة من قلوب الناس ، أنه كان رخيم الصوت عليما بفنون النغم ، يتغنى شعره فتسرى فى النفوس هزة الطرب ويملك السامعين أعجب العجب ، ولا يسعهم بعد ذلك إلا ترديد ما سمعوا مستعيدين اللذاذة والمتعة ، فترنمت المجالس والمحافل فى ايران

بألحان عارف القزوينى ، وجرت أشعاره على كل لسان ، فعرفتها الفتاة فى خدرها ، والفتى فى طريقه ، والطفل فى ملاعبه كما نطق بها الشيخ مستشهداً ، والعجوز شاكية متبرمة. والواقع من الامر أن شعر هذه الألحان لم يكن برمته شعراً غنائيا ، وإنما كان كذلك شعرا سياسيا يتناول بالنقد المرير حالة إيران الحاضرة ، ويصور فساد الحكم على عهد الشاه ناصر الدين. والجرأة من أظهر صفات الشاعر ، فهو يوجه إلى رجال الحكم وأهل الحول والطول عبارات لها لسع العقارب من غير ما خجل ولا وجل ، ويقول الحق أو ما يخاله حقا دون اختيار لألفاظ هادئة يسيغها الذوق ولا يمجها ، وقد نال الجزاء مرة على عثرة من عثرات لسانه ، وذلك أنه نظم قصيدة سماها (يقظة العدو وغفلة الصديق) وغناها على جارى عادته ، واتفق أن سمع أحد الوزراء بأمرها ، واعتبر ما جاء بها خادشا لشرفه ومسيئا إلى كرامته ، فامتلأ غضباً على الشاعر ، وأمر به فضرب ضربا وجيعا ، ومن قوله فى هذه القصيدة (أن عيننا تصحو من نوم غفلتها ، لتستحق من العمى أن يطمسها ويمحو آيتها ، لقد سكر أقبح سكرة ، وقسما بعينك انا نشاوى ، والعدو يقظان ، لقد

اختفى الشرطة فما لهم من وجود ، والمحتسب بالقمار فى شغل والحراس فى نومهم يغطون ، والعسس سكارى ؛ أما اللص فإنه يعيث فى الأرض فسادا . لاتمن النفس بحسن الصنيع من لص وقاطع طريق ، فان بلادنا اليوم مرتع المتلصصين !) .

وله أغنية غناها بطهران فى اليوم الثامن والعشرين من شهر ذى الحجة عام ١٣٣٣ وفيها يقول (أسقنى الصهباء لأفنى بها ، فلقد عرفت بأن فنائى خاتمة لبقائى . لى سكرتان سكرة من يمين الساقى وأخرى من كأسه ، وفى تلك النشوة عزاء عن خرابنا ، إن البغى لم تعد له حدود ، وليس فينا من يسأل عن حدود دار خربة يأوى اليها ، أين جنكيز خان السفاح ؟ مرحباً بمقدمه لسفك الدماء الفاسدة . بالله ماذا دهى مجلس الشورى، فإنه لم يخبرنا إن كانت الدار لنا أو لغيرنا ، إن السارق الذى نهب البلاد وخربها من أنفسنا ، فكيف نشكو غيرنا والشر من صنع يدينا . ولو عرف الشيطان ما آلت اليه حال العدالة ، لدلنا على أن الذنب ذنب آدم وحواء) .

وهكذا يمضى عارف القزوينى فى عرض الحقائق عارية بعد نزعها مما كان يسترها من ملق أو رياء أو رماد يرمد العيون ،

فيبصر الشعب بما كان يدبر له فى الخفاء ، ويحيطه علما بما يهدده من ويل وثبور . ومن عجيب أمره أنه لم يكن من رجال السياسة المتمرسين بها ، والواقفين على خفاياها وأسرارها ، وكل أمره أنه كان يؤثر فى القلوب بالمعنى الجيد ، وفى الاسماع بالصوت الجميل .

وله مقطوعة يصور فيها حاله ويشكو زمانه ، ذاكرا ما يلقاه من صروف الدهر وحدثانه (انا من بكى وغص بالأسى واعتورته المحن . انا من لم ينعم بالصفاء والهناء طرفة عين ، انا غريب فى وطنى ، واغرب من ذلك ان الوطن اشد غربة منى ، واينما نقلت خطاى فى بلادى تعرضت للسارق ووقعت فى اسر قاطع الطريق !)

وله اغان كثيرة كان لها فى النفوس وقع شديد فثارت الخواطر وتبلبلت الافكار ، ونشطت العقول من عقالها وفطن الشعب ألايرانى الى امور كان عنها غافلا . ومن اغانيه قوله (لقد نبتت حمر الورود من دماء شباب الوطن ، وانحنت من شجرات السرو قاماتها حزنا على قاماتهم الفارعة ، واغتم البلبل لذلك فانزوى فى ظل الورد . ولقد شقت الازاهير ثيابها مثلي من فرط اساها . انت بالنحس دوار ايها الفلك ، ياللك من

مثير للشرور ايها الفلك ،لا إل لك ولا ذمام ايها الفلك . الوكلاء في نومهم غافلون ، والوزراء من خمرتهم يجرعون ، وقد نهبوا كل ما فى ايران من فضة ونضار ، ولم يبقوا لنا دويرة تسكننا . يارب انصف الفقير من الأمير . انت بالنحس دوار ايها الفلك يالك من مثير للشرور ايها الفلك ، لا إل لك ولا أمان ايها الفلك !)

هذا هو عارف القزوينى شاعرا مغنيا ، غير ان له قصة غرام طريفة تثير فينا الرغبة لمعرفة عارف القزوينى عاشقا . وخبر ذلك انه كان منذ فجر شبيبته موصول الآصرة بعلية القوم الذين كانوا يصطفون منه نديما مؤانسا ، يغنى لهم فيسهر لياليهم ويبعث البهجة والطرب فى نفوسهم . وقد وجد السبيل بذلك الى قصر الصدر الاعظم ، ثم الى قصر الشاه ؛ فارتفعت منزلته واستفاضت شهرته واقبلت عليه الدنيا اى اقبال ، وعرف فيمن عرف من عظماء الدولة رجلا يدعى نظام السلطان ، فتأكدت صداقتهما وصفا الود بينهما ، وكان نظام السلطان هذا زوجا للأميرة أفتخار الدولة بنت الشاه ناصر الدين التى سار المثل عنها فى طول البلاد وعرضها ، وتحدث الناس حديث معجب متعجب عن ادبها وبصرها بالشعر واكرامها لأهله . واتفق ان دعي

عارف الى قصر نظام السلطان ليطرب الاميرة بمارق من شعره وراق من نغمه ، واقيمت مجالس طرب تجمع افتخار الدولة وزوجها بالشاعر ، فكان ينشدها من شعره ويستمع الى رأيها فيه ، ويصوغ لها الالحان سحراً خلابا ، فتهتز له طربا واعجابا ، وقد تنسى شيئاً من وقار الأميرات فتلح فى استعادة صوت طاب لهـا . ومرت على هذه الحالة ليال بيض ، فكانت تحضر مجلس عارف القزوينى بشوق ظامىء ، ورغبـة لا تزداد على الايام الا اشتداداً .

وكان نظام السلطان زوج الاميرة ذا حظ من ثقافة الغرب فلم يحجب عن الشاعر زوجته ولم ير بأسـا فى ان يجالسها كل ليلة ، ولـكن ،كان ما ليس منه بد ، واعجب الامـيرة من الشاعر ما يعجب المرأة من الرجل ، واعجب الشاعر من الاميرة ما يعجب الرجل من المرأة .

ولا غرو فاشعار عارف جياد وغناؤه يداعب القلوب ، وافتخار الدولة بارعة الحسن جذابة الفتنة . ومالبث الاعجاب ان اصبح غراما ، فاحبت أفتخار الدولة نديمها وشاعرها ؛ إلا أنها اخفت ذلك عنه وعن زوجها الذى كان يداوم على حضور مجلسهما ، كما خفق قلب الشـاعر لها خفقانا سرى فى نبرات

صوته وهو يغنى ، خصوصا إذا شرب واخـــذت منه حميا الـكأس ، فانطلق على سجيته وكاد يبوح بالسر المكنون .

وكان من محض الصدف ان فارق نظام السلطان ذات ليلة مجلس العاشقين وخرج لبعض شأنه ؛ فوجدا خلوة يتناجيان فيها ويتشاكيان ، غيران الزوج لم يتلبث طويلاودخل فجأة عليهما فرأى منهمـــا ما لم يدر له من قبل فى خلد ، فاغضى على القذى وأسرها فى نفسه ، ولم يبد ما لم يكن بد من أن يبديه . وخشيت الأميرة افتضاح أمرها وذهابه عنها فى الناس ، فأمرت الشـاعر فانقطع عن المجىء . وضاقت يده وأجهدته الفاقة ، ولم يمد إليه نظام الدولة يد المعونة وهو المغضب المحنق ، غير أن افتخار لم تصبر على كبت عاطفتها فتوجعت له ورقت ، وطلبت إلى زوجها أن يدعوه الى القصر لتصله بما يستعين به على أمره ، فذكر الزوج رؤيته له وهو يعانقها فقال (لا حاجة بعارف إلى صلة منك اليوم ، انه ينال جزيل الصلات من ثغور الملاح !)

وقد باح عارف القزوينى ببيتين من الشعر فى محبوبته وهما (أنت افتخار لكل الآفاق يامن تيمنى هواك ، أنت تلك الشمعة التى تسطع فى مجلس العشاق)

رثاء الأبناء
فى الشعر الفارسىّ والتركىّ

النفس الانسانية لا تخلو من شعور إما بالحزن أو الفرح فى درجةمن درجاتهما و نوع من أنواعهما . والشعر لغة القلب وتفسير وجدانى للحياة ، فانعكست على صفحاته صور منها الفرح ومنها الحزين ، والبين المشاهد أن الحزن غالب على الشعر ، ومرد ذلك إلى أنه غالب على الانسان الذى لا تنقضى رغائبه ولا تقنع آماله ، ويحزنه الا يحقق المراد أو يخيب فى المسعى . كما يأسى و يألم للفراق اطلاقا ، كفراق الدار والوطن ، وفراق الحبيب ، وذلك الفراق المحتوم الذى لا يؤوب منه الغياب ، وهو فراق الموت . وأن رنة الأسى لتقع فى النفس موقعا ، ولها هزة مستملحة مستعذبة . وسماع الشكوى مما يطيب

ويطرب ، وذلك أن سامعها يتخيلها شكواه ، وأن فيها بعض العزاء ، وتنفيسا عن الكرب ، ومن ثم كان شعر الرثاء من أشد فنون الشعر علوقا بالفؤاد واكثرها أثارة للاعجاب . وقد عرف الاقدمون لشعر الرثاء قدره ومنزلته ، فاعتبروه أصدق الشعر عاطفة وأجمله فى القلب أثرا ، وعرضوا له بالتعريف فقال قائلهم وهو ابن رشيق بأنه مدح الميت ، وليس بين الرثاء والمدح فرق إلا ان يخلط بالرثاء شىء يدل على أن المقصود به ميت مثل كان ، أو عدمنا به كيت وكيت ، وسبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجع بين الحسرة مخلوطا بالتلهف والأسف والاستعظام ان كان الميت ملكا أو رئيسا كبيرا .

وإذا صح هذا التعريف فى جملته بعض الشىء فانه يصدق على الرثاء المصطنع الذى لا يصدر فيه الشاعر عن طبع وعاطفة ، كما فى رثائه لعظيم لا تربطه به آصرة من معرفة أو محبة ، ويوضح هذا ما قاله ابن رشيق من أن أشد الرثاء صعوبة على الشاعر أن يرثى طفلا أو امرأة لضيق الكلام فيهما وقلة الصفات ، وهذا رأى لا نميل اليه ونرى أن رثاء المرأة أما أو زوجا من أجمل الرثاء وأيسره ما دام الشاعر موهوبا صادقا فى لوعته ،

ورثاء الطفل ابنا أو ابنة رثاء يمكن أن يبلغ الذروة من روعة المعنى . ونذهب إلى اكثر من هذا ، فنضفى على رثاء الأبناء من صفات الجمال ما لا نضفيه على رثاء غيرهم ، ونضرب الأمثال على ذلك من شعر الفرس والترك .

وأول من رثى ولده من شعراء الفرس فيما نعلم هو ابو القاسم الفردوسى شاعر إيران فى القرن الرابع الهجرى وناظم الكتاب المعروف بالشاهنامه فى تاريخ ملوك الفرس ، وأبرز علم من أعلام الأدب الفارسى . وقد بكى وديعته فى الثرى وهو شيخ يخطو إلى القبر وئيدا ، بعد أن سئم تطاول الأيام عليه ، وحمل من أرزائها ما أنقض ظهره فلم يبق فيه أمام هول نكبته ، إلا ما بقى من كومة الهشيم أمام عصفة النكباء ، وحزن حزنا لا يتسع لعزاء ولا لصبر جميل ، فلم يكن فى حسبانه يوم طرق الموت بابه أن يدعه وهو الذى كفاه ما عاش ، ويطلب ولده الذى لم يعش ما كفاه ، فخالط قلبه شعور مبهم غريب بتخون العهد وعدم الوفاء ، وبأنه فظ قاس يمد فى عمره من عمر ولد كان عليه أن يفديه ويحميه ، فبكاه متوجعا بشعر معناه على قدر لفظه ، وما استقطر من السحاب دموعا ، ولا طلب الاسعاد

إلى نجوم ليـل ساهر وإنما قال : « كان اليوم والله يوم حمامى ياولدى المسكين ، كيف هجرتنى ورحلت عنى ، فامتنع قرارى ونالت الأوجاع منى . لقد كنت من يعيننى على زمانى ويأخذ فى الملمات بيدى ، فما الذى عن رفيقك الشيخ أبعدك ، وإلى تركه ألجأك ! أوجدت لك أترابا هناك فمضيت إليهم ! قضى فى السابعة والثلاثين وقد رأى أن متاع الدنيـــا غرور ، مات فأضوانى الأسى وبكى القلب والعين عليه دما ، هو اليوم فى عليين وسيجعل لى مكانا فى جواره . »

ثم يذكـر شقاءه الطويل بعده فى عالم موحش حزين ، ويصور حاله متحدثاً عن شيخوخته وشبيبة ولده المفتقد فيقول : « تمادى الزمن ودارت الأيام ، وما عاد إلى أحد من رفقة العهد القديم ، لقد عدمته وله سبعة بعـد ثلاثين ، وخلفنى ولى خمسة بعد الستين : وذهب الفتى وحده ، وماسأل عن حال الشيخ بعده ، وعجل بالرحيـل ، أما أنا فبقيت البقاء الطويل ، لأرى مقدور القضاء فى ، وأنال ما سوف يقسم لى . »

وللفردوسى قصة فى الشاهنامه يقال لها قصة رستم وسهراب وهى شيقة ممتعة ، وأعجب ما فيها هو اختلاط الأمر على رستم

الأب وسهراب الابن حتى ينسى كل منهما صاحبه ولا يعرف له هيئة ولاصورة يميزه بها ، ويجتمعان فى ساحة الوغى ، ويقف كل منهما من الآخر موقف العدو المحارب ، ويتناوشان القتال فيقتل الوالد ولده ثم تنكشف له الحقيقة ويعلم هول مافعل ، فيأخذه مر الندم ، ويتألم أشد الألم . والشاعر يذكر هذه القصة ويصف أم سهراب وقد تلقت النبأ فيرثى ولدها على لسانها . وهذا الرثاء فى سياق قصة سريعة الحركة كثيرتها فيقول :

« وانتهى إلى الأم أن سهراب مقتول بسيف أبيه ، فجزعت وناحت ، وشقت ثوبها من فرط أساها على فتاها ، وقالت ياروح الأم أين مثواك وأنت معفر فى التراب ملطخ بالدماء لقد طواك الثرى فى أرض غريبة ، فمت ميتة الأسير المجهد المحزون ، فمن بعدك أضم عليه ذراعى ، ومن يعيننى على تباريحى وبرحائى ، ومن لى بمن أبثه الشكوى ، وأشرح له البلوى . ومن ذا مكانك أدعوه ! ياأسفى على عينيك فى القبر بعد كونهما فى القصر . مضيت وتركتنى فى ذل الأسير ووقد الأسى ، فهلا صحبت أمك فى سفرك ، فكنت أنسى وريحانتى فى دنياى وآخرتى !! »

ورثاء الفردوسى هنا رثاء تمثيلى لا يسمح المقام بسواه ، وليس لنا أن نطلب أحسن من هذا لأن الرجل لا يقول حقاً وصدقا وإنما يقول متخيلا ، والبون بعيد بين الطبع والصنعة .

وفى القرن السابع الهجرى ظهر فى إيران شاعر كبير مستفيض الشهرة ، وهو الشيخ سعدى الشيرازى الذى يتميز شعره بنزعة اخلاقية لا ينفك عنها ، وطابع تعليمى ظاهر الوضوح ، وقد نظم شيئاً كثيراً ، ومن تراثه الأدبى كتاب منظوم يسمى البستان ، وهو ينتظم قصصاً ترمز إلى معان وتعالج موضوعات مختلفة كالعدل والإحسان والتواضع وما يجرى هذا المجرى . والذى يعنينا هنا هو حديثه فيه عن نفسه ، فقد ذكر أنه طوف فى البلاد شرقا وغربا ، ومات له ولد أثناء مقامه بصنعاء اليمن . وقد رثاه بأبيات يتجلى فيها منهج تفكيره ، وتظهر ميله المستديم إلى ضرب الأمثال والتفسير بالتصوير ، فكان رثاؤه هادئا فاتراً ، لا زفرات فيه ولا عبرات ، فالأولى أن نعتبره عاقلا مفكراً لا حزيناً شاعراً . وكل حظ أبياته من الشاعرية بضعة تشبيهات متوسطة الجودة ، فهو الذى يقول : « لقد احتسبت فى صنعاء ولدا لى وكان غض الأهاب بض الشباب ، فما أعجزنى عن

وصف ما أجد من حزنى . أن شجرات السرو لا ترفع فى بستان الدنيا هيف القدود إلا اقتلعتها للموت هوج العواصف ، والأرض تنبت ورودا وليس ذاك بعجب مادامت تنطوى على أجساد فى نضرة الورود . ألا فاعلم ياسعدى بأن الثمار ملك لغارس الأشجار ، ولا يحصد إلا من زرع . »

وهذا الكلام لا يصلح بكاء لأب يرثى ولده ، بقدر ما يصلح عزاء ترقأ له الدموع الجوارى ، ويسقط الانداء على الكبد الحرى .

غير أن لسعدى بيتين مشهورين فى رثاء ولده وهما (هوذا الربيع قد حل ، فانشقت الأرض عن وردها ونسرينها ، ويلاه ما الذى أبقاك تحتها ! أنا من يزورك فى ثراك ، وعليك تجرى أدمعى ، فكأن سحابة الربيع تبكى ، لتظهر لى من هذا القبر كذاك الزهر)

ومما يلوح على هذا الشعر بادىء النظر ، انه كلام متناظم متسق ضئيل المعنى ، وليس كذلك لأنه تصوير جميل لنفسية الحزين الذى يطرح على الكائنات من أساه ، ولا تذكره مباهج الحياة ومفاتنها إلا بلوعة الحرمان والفقدان .

ومن شعراء الترك من يدعى عاكف باشا الذى كان وزيرا على عهد السلطان محمود الثانى ، وكان بينه وبين زملائه الوزراء من الخلاف والخصام ماجر عليه شرورا ، حتى نفى إلى مدينة بروسه ، ثم حج بيت الله ومات فى عودته بالاسكندرية عام ١٢٦١ هجرية . وهو أديب مبرز وشاعر مقل مجيد ، له فضل التجديد فى النثر والشعر ؛ فأصبح بذلك من عباقرة الأدب التركى الحديث . ومن شعره قصيدة جميلة رثى بها حفيدته ، وهى تعتبر فاتحة عصر جديد من عصور الشعر التركى الذى كان بالأمس دينيا صوفيا يقلد شعر الفرس ، فأصبح اليوم إنسانيا يساير الحياة فى تطورها وينهج نهج العاطفيين من الشعراء الأوربيين ، والمرثية تفيض لوعة وحسرة على الدفينة الصغيرة ، وان رقتها لتذكر برقة موضوعها ، ومعانيها تصور الجد الهرم وهو يسقى زهرته الذابلة بالدمع الهتون . يقول عاكف باشا : « بنيتى الجميلة . . . لا نسيان لك على مر الأيام والشهور والأعوام ، لقد أذقتنى المر من فرقتك ، وإن لك لثغات حلوة وكلمات عذبة مازالت تتردد فى قلبى ، لا سبيل اليوم إلى قبلة من غضارة جسمك ! ويلاه ماذا صنع القبر بحسنك ؟ وإذا ذكرت ثغرك الجميل بوردة

البستان ، وددت أن تحترق الورود من حر أنفاسى . »

ثم يتمثلها تحت الثرى وقد غيرها البلى ، فيرسم لنا فى الخيال صورا حزينة يزيدها حزنا على حزن أنها صادقة لاتتجاوز الحقيقة فى شىء ، فهو القائل « ما الذى حل بجسمك الغض البض فغيره ، وهل سالت على الجبين عيناك السوداوان ، وتفرق فى التراب شعرك الجميل الذى طالما نعمت به ضما وشما ؟ » .

وان استفهامه المكرر ليدل دلالة واضحة على فرط الجزع ، والنفار من هول الخطب ، لأنه فى نفسه لا يريد الاقرار بالواقع ويجهد ان يجعله محتملا للصدق والكذب ، فيمضى فى قوله : « هل عرف الفلك كيف يصب نقمته على ، وهل اذبل الردى ورد خديك ... واها ليد فى لين القطن وبياضه كنت الثمها ، هل أصبحت فى التراب ترابا ؟ »

ولدينا شاعر تركى آخر من شعراء المدرسة الحديثة هو أكرم بك الذى رثى ابنته بيرايه بقصيدة من روائع الشعر التركى ، ولهذه القصيدة قصة فى مثل جمالها وروحانيتها ، فقد ماتت ابنته واودعت الثرى فى ركن مقبرة تطل على غدير ، ومرت الأعوام تلو الأعوام ، وغمر السلوان والنسيان ذكرى

الفتاة ، وغاب أبوها فى زحمة الحياة ، فلهى عن نفسه وأنسى يومه وأمسه ، حتى جاء يوم بعد موتها بخمس عشرة سنة ، وكان يوما عجيبا جد فيه جديد يحيا به القديم . فعاد الشاعر ذكر ابنته ، فرآها وسمعها من وراء أيام طوال ، واستشعر الحنين إليها والأسف عليها ، ووجد نفسه مسوقا إلى زيارة قبرها ، فأخذ سمته إلى المقبرة ، وهناك أراد أن يقف على القبر وقفة ليذرى دمعة الوفاء ، وكان وحيدا ، وشاء ان يستدل على القبر الذى بعد عهده بزيارته ، فرجع إلى الماضى السحيق ، وذكر أنه كان على أكمة صغيرة ، فأدار بصره فى المقبرة ، فلم ير للأكمة وجودا ، ولم يقف للقبر على أثر ، ولما أعياه نشدان مايطلب استيأس وانكسر ، وجلس فى ظل شجرة سرو يبكى حزنا على ابنته ، وندما على ضياع أثرها من وجه الدنيا ، ووجد من ضميره لوما وجيعا ، فللأموات على الأحياء حق زيارتهم وإقامة آثار تدل فى الثرى على مرقدهم . واتفق للريح ان عصفت فاسفت عليه ترابا ، وحركت من الأشجار أغصانا ، فاحس كأن الكون غاضب عليه ، وتحركت الشاعرية فى قلبه ، فقال قصيدة سماها « تحسر » ، وكان ذلك فى صيف سنة ١٢٩٨ هجرية ، ومن هذه القصيدة قوله :

« ويلاه ! ان بيرايه فى بطن هذه الأرض ، وان ظلمتها لتنطوى على نورها . لم أقدم إلى هنا منذ خمسة عشر عاما . فوالله ماأدرى أين كان قبرها ، فذكرينى أيتها المقبرة بالبكاء والنواح ، وبالله مرحمة أيتها الأشجار والأحجار . هلا اخبرتنى الخبر ! لقد تركت ابنتى فى كنفك من غير أثر لها يدل عليها . تكلمى يابنيتى لأروى بالدموع ترابك ، وافصحى ، أين مقر جثمانك الطهور فى هذه الأرض ؟ »

ثم انحى على نفسه باللائمة ، وادرك تفريطه فيما يقبح التفريط فيه فقال : « ان زيارة قبرك مرة فى خمسة عشر عاما شنار وعار ، وان خجلتى لتثنينى عن تفقد قبرك ، وكان لزاما على أن أجدد بناءه بعد أن هدمه الزمان ، انه أصبح حفنة من تراب فما أجد من يدلنى على موضع له ، تكلمى يابنيتى لأروى بالدموع ترابك ، وافصحى ، أين مقر جثمانك الطهور فى هذه الأرض . ان روحى لتراك شجيرة نضيرة كأنها شجيرة ورد دفنت تحت الثلوج ، وقد حجب البياض كل جوارحها ، فاغرورقت عينى وحزنت نظرتى ، وان هذا الجمال الذاهب ليبعث فى الروح أملا بالوصال . آه يابيرايه لو لم تكونى هذا الخيال ... تكلمى يابنيتى

لأروى بالدموع ترابك ، وافصحى ، أين مقر جثمانك فى هذه الأرض ؟ »

ولأكرم بك مرثية أخرى قالها على لسان صديق له يدعى مدحت بك ، ماتت له ابنة تسمى « فاخره » ، وأنها لتذكرنا بقصيدة عاكف باشا فى حفيدته لأن الشبه ظاهر بين القصيدتين قال أكرم بك « أنت يافاخره فى النصف بعد الرابعة من عمرك ، فأنى يجوز لهذه الأرض أن تستحل ضم جسدك ، خبرينى هل أنت يافلذة الكبد وحدك ، فليس من يؤنسك فى لحدك ! ؟ ما الذى أسكت بلبلك وكان ناطقا ، وأذبل ورد ثغرك وكان ناضرا ، أن لذكراك حزنا فى فؤادى ، وإذا خطرت بالبال كلماتك بكت عينى . »

هذا ، وأن هذه الأمثلة التى أوردناها من شعر الفرس والترك لتوضح وجهة نظرنا وتنهض دليلا على أن الرثاء وأخصه رثاء الأبناء ، ليس مدحا للموتى وذكرا لصفاتهم فحسب ، وإنما هو بكاؤهم وندبهم والأسف عليهم ، ووصف شعورنا نحوهم بعد فرقة الأبد .

ثورتان

احـــداهما ايرانية والأخرى تركية ، وقد قامتا فى وقتين متقاربين ، أو وقت واحد هو بحر الأعوام العشرة الأولى من القرن العشرين ، وبينهما فروق ووجوه شبه يمكن التمييز بها بين شعبين ، والوقوف على معنى الحـكم فى رأى حاكمين ، والاحاطة علما بروح الثورتين .

فى عهد القاجاريين وهم آخر من حكم ايران قبل الأسرة المالـكة الحالية ، ساء حكم الملوك كثيراً ، وعسفوا الناس عسفاً شديداً ، فدب فى الدولة دبيب الضعف ، ووجد الأجانب من انجليز وروس فرصة مواتية لأشباع مطامعهم ، وتوسيع نفوذهم وفرض سلطانهم ، فتدخلوا فى الخاص من شؤون إيران ، وظفروا بامتيازات لهم فيها الغنم ، وعلى صاحب البلاد الغرم ،

وجأرت الرعية بالشكوى من ظلم راعيها ، وضج الناس من جبروت الأمراء وزهو الكبراء ، بعد أن أخذوا من العلوم بطرف فعرفوا مالهم وما عليهم ، وزادهم كراهية للأوربيين أن يروهم فى القرن التاسع عشر يغتصبون الهند ، ويمتلكون الجزائر ، ويسيطرون على مصر ، فشعروا بمس الحاجة إلى الوقوف فى وجههم وكسر شوكتهم . ومما زاد الأمر شدة والنفوس حدة أن ناصر الدين شاه منح امتياز الدخان فى ايران لشركة انجليزية فاحتكرت انتاجه وبيعه ، وامتلأت من ذلك خزائنها ، على حين خلت وفاض زراع الايرانيين وتجارهم ، فاستاء الناس وحرموا التدخين على أنفسهم ، وقسروا الشاه على الغاء امتياز الشركه ، فلم يجد عن الأذعان ندحة ، وان كان ذلك كلف الدولة تعويضاً كبيراً للشركة . ثم قتل ناصر الدين شاه فكان مقتله ايذانا بالثورة ، وايعاداً لأمثاله من الملوك المستبدين .

وحكم بعده مظفر الدين شاه ، وكان مسرفا متلافا ، فاقترض من الروس مالا جزيلا منحهم حق السيطرة على الجمارك فى الدولة حتى يستوفوا مالهم على ايران من دين ، فكبر على الايرانيين أن يروا غريماً يذل كبرياءهم ، ويجرح وطنيتهم ،

وتألفت الجماعات والأحزاب ، وارتقى الخطباء المنابر ، فهزوا القلوب وحركوا النفوس ، كالسيد محمد الطباطبائى والسيد عبد الله البهبانى وغيرهما من العلماء والفضلاء . وقد ارادوا التعبير عن سخطهم فقرروا الهجرة إلى مكان يسمى الزاوية المقدسة ، وسموها (الهجرة الصغرى) وهناك لحق بهم جمع غفير ومعهم آل بيتهم ، وأحب الشاه أن يطيب خاطر المستائين ، فأصدر بيانا يعد فيه الثائرين باجابة مطالبهم ، وهى عزل حاكم طهران ورئيس الجمارك البلجيكى ، فعاد المهاجرون واحتفل أهل طهران بعودتهم أروع احتفال . وقد جاء فى خطبة للسيد محمد الطباطبائى قوله : (نريد العدل ورفع الظلم حتى لا تهرب الرعية وتطلب فى خارج البلاد موئلا فيعم الخراب ، وأخوف ما نخاف هو أن يفر المظلوم من وجه الظالم فتخوى الديار على عروشها ، وقد حدث ما لا يحمل أن يحدث ، فان أهل فارس رفعوا عقيرتهم بالشكوى ، ولما لم يجدوا اذنا واعيـــة ، توجهوا الى القنصلية الانجليزية ، فإلى أين يذهبون ؟ أنتم لا تعلمون ما يحيق بهم من حيف الحكام ، إنهم لا يسدون جوعتهم الا بكسرة من خبز الشعير والذرة ، فلم يبق منهم أحد ، كما لم يبق فى خزانة الشاه

درهم . أما تعلمون أن الزرع قد خاب فى العام الماضى ، وكان لزاما على الزراع أن يؤدوا الخراج ، فما كان من الحاكم إلا أن أمر ببيع ثلثمائة فتاة من بنات القرويين لقاء ما على آبائهم للدولة ! لانريد إلا النصفة وهل بعد هذا الظلم ظلم ! إن الخراب يضرب أطنابه فى كل البقاع ولن يمضى طويل زمان حتى يلحق أهل البلاد جميعا بالروس والانجليز . ووالله لن اتخلى عن هذا الأمر أو أهلك دونه ، فان هلكت ، فلى من سوف يخلفنى عليه . »

واصطدم رجال الشاه برجال الثورة ، فهاج العلماء واحتجوا وعادوا الى اظهار سخطهم بالهجرة ، فهاجروا الى مدينة قم ، وسموا هذه الهجرة « الهجرة الكبرى » ، وانطلق جمع من التجار والطلبة الى السفارة البريطانية بطهران ، فتحصنوا بها وطالبوا بالدستور والحكم النيابى ، وكان لهم ما طلبوا ، وعقدت أولى جلسات البرلمان فى ١٨ شعبان سنة ١٣٢٤ ، ففرح الناس واستبشروا ، ورفعوا الأعلام وأقاموا الزينات .

وفى الجزء الأول من ديوان الشاعر التركى محمد عاكف بك قصيدة عصماء بعنوان شاه العجم ، وفيها وصف رائع لما آلت اليه حال ايران على عهد الشاه مظفر الدين ، ومنها (لايغرنك

ماتسمع من أصـوات تنادى بك مظفرا ، إنها جميعا أصوات الخونة . واعلم موقنا أنها زفرات تصعـدها قلوب المظلومين . سيأتى ذلك اليوم الذى تلقى بك فيه لعنة الاله من عليائك . لك قصر منيف من الظلم تحسبه محكما منيعا ، ألا فاعلم ان الحصون لن تـكون موئلا لمن عدم الأمان ، وأن ايونك هذا الذى خرب البلاد سيهوى من سمائه ، وستسويه بالتراب هدما قدرة القادر وهيبته ، كيف لايخرب ذلك الذى جعـل من ايران مقبرة ؟ نعم لقد جعلت من ايران مقبرة . ومزقت ثوب الآمال فكان أكفانا)

ومات مظفر الدين شاه ، فخلفه فى الحكم محمد على شاه ، وكان ظلوما غشوما يرى فى نفسه سيدا للبـلاد ، وفى الشعب عبيدا رهن إشارته ، وعليهم طاعته ، وكان شديد الكراهية للثورة وأنصار الحرية والدستور والحكم النيابي ، وبلغ من شدة سخطه على نواب الأمة أنه لم يدعهم إلى الحضور يوم تتويجه ، وأوصى الحكام فى الأقاليم بالأخذ على يد الثائرين ، وكان إذا جلس فى مجالس أنسه وأخذت منه الصهباء مأخذها أمر بمدية وخيارة ، فقطع الخيارة بالمدية متخيلا بذلك أنه يطيح رءوس خصومه ،

فلا يملك ندماؤه إلا أن يفعلوا مثلما فعل . ولم يلق بالا إلى تنفيذ قوانين الدستور ، وقد أراد أن يقترض من الانجليز والروس ، فعارض النواب فى ذلك ، وأشاروا إلى وجوب الحد من اسرافه ، فأسر ذلك فى نفسه واصطنع الكيد والدس ، فبث بين أنصار الحرية من رجاله من أفسد بينهم ، كما تعمد اهمال بعض الأعمال ليلقى فى روع الناس أن عهد الحكم النيابى عهد فساد الأعمال . ومما أثار الخواطر أن اتفاقا تم بين الانجليز والروس عام ١٩٠٧ فى خفية من الشعب على تقسيم ايران أقساما ثلاثة ، فللروس قسم ، وللانجليز قسم ، وثالث محايد . وأغرى محمد على شاه بعض الأرذال والغوغاء باثارة الشغب فتعدوا على المارة ونهبوا أموالهم ، وبالغوا فى إذلالهم والسخرية بهم فخطفوا عمائمهم ، وكان جزاء الشاه أن القيت عليه قنبلة إلا أنها لم تصبه ، فاشتد غيظه وحقده ، واستنجد بفرقة من جند الروس تحت قيادة لياخوف ، فحاصرت البرلمان وضربته بالمدافع ، فتصدعت أركانه وهوى بنيانه ، وأمر بكثير من الزعماء فقتلوا ، فثار أهل تبريز وانضم اليهم غيرهم ، والفوا جيشا استولوا به على طهران ، فسلم القائد الروسى وعسكره ، أما محمد على شاه فهرب إلى السفارة

الروسية واحتمى بها ، واجتمع البرلمان ليلا فقرر عزله .

* * *

هذا فى ايران ، أما فى تركيا فكان السلطان عبد الحميد الثانى شديد البطش بكل من يناوئه ويرى من الرأى غير مايرى ، وقد منى بمرض نفسى عضال جعله يتشاءم من كل شىء ويتوقع السوء من كل شىء ، وأهم أثر لذلك القلق هو خوفه من الجديد ، ونظرة إلى المستقبل بعين الريبة خشية شر كمين فى طواياه ، فاذا عقد العزم على عمل وأراد الأقدام ، رأى نفسه مسوقا الى الأحجام ، ووهم أن خطرا داهما يتهدده ، فجمد على القديم وأبى التحول عما يألف ، فكره الاصلاح وساء ظنه بالناس جميعا ، ولم يتوقع منهم إلا مستطير الشرور .

وبث العيون فى ارجاء مملكته وأحاط نفسه فى قصره الممنع بمحكم الأبواب ، وجيش من الحجاب ، وضاعت ثقته حتى فى خلصائه واصفيائه وأوجس منهم خيفة ، وعرف الناس ذلك من سلطانهم وطمعوا فى خير يصيبونه بالتجسس له ، فقيل ان نصف سكان استانبول كانوا جواسيس على النصف الآخر . فكمت الأفواه وأحصيت على الناس انفاسهم وحركاتهم وسكناتهم وقيدت

حرية الرأى وخشى المتكلم أن يكون حتفه بين فكيه . وأحس التركى بأنه يعيش حبيسا فى قفص من سيوف ! فالتجول ليلا محرم محظور ، والصحافة خفيضة الصوت لا تكاد تبين ، والنفار شديد بين الترك المسلمين وغيرهم من المواطنين ، ووجد الأجانب سبيلهم إلى الجيش فكان منهم الضباط وكبار القواد ، واستأثروا دون الأتراك برفيع المناصب وضخم الرواتب .

وطالت الحال على الترك فملوها واشتد بهم الاستبداد فكرهوه ، ولا غرو فمنهم من هذبته ثقافة الغرب واستنار بحكمة الشرق ، وتألفت الجمعيات كجمعية شباب الترك وانخرط فى سلكها كثير من رجال الجيش وعولوا على أن يطلقوا الشعب من قيوده ويطلبوا إلى السلطان حكما دستوريا بعد أن رفض الدستور الذى وضعه مدحت باشا سنة ١٨٧٥ فذهب ضحيته ، وقد جهدت الدولة أن تشتت شملهم بالوعد والوعيد والنفى والتشريد . كما تألفت جمعية الاتحاد والترقى وانضم اليها عديد من أهل الحول والطول . وكان مبدؤها أن يكون الحكم نيابيا وتنال البلاد دستورها . وظهرت كذلك جمعية يقال لها جمعية الأحرار ، إلا أن مبادىء هذه الجمعيات بقيت أملا وخيالا ، ولم يحققها

إلا ضابط البانى يقال له نيازى بك ، رفع علم الثورة فى مقدونيا ، وجمع حوله شرذمة قليلة من رجال ؛ وصرح بأنه يطلب الحرية بحد الحسام ، ويريد من الإصلاح مايشمل مرافق الدولة ، وكان ذلك منه فى اليوم الثالث من يونيه سنة ١٩٠٨ ، وأراد أن يرسل بيانا بذلك لرؤسائه قواد الجيش ليوصلوه إلى السلطان . وعلم السلطان بذلك فاستشاط غضبا ، وانفذ إليه القائد شمسى باشا الذى قتل قبل نزوله إلى حومة القتال . والتف حول نيازى بك كثير من الألبانيين فاشتد أمره ، وقويت شكيمته ، وأرسلوا إلى السلطان برقية يطالبون فيها بالعدل والدستور ، وبلغ من جرأة بعض أعضاء جمعية شباب الترك أن يلصقوا على الجدران فى استانبول منشورات ضمنوها مبادءهم وكانت مكتوبة بالتركية واليونانية والأرمنية . وبعث السلطان إلى نيازى بك جيشا بقيادة عثمان باشا غير أن الباشا طعن وجرح قبل أن ينازل الضابط الثائر . وقد قابل نيازى بك عثمان باشا ، ولهذه المقابلة قصة لاتخلو من طرافة ، فيقال ان جنود نيازى بك صادوا غزالا فى بعض الوديان ، واستأنس الغزال والف الجنود فكان لايرهبهم ولا ينفر منهم ، وفكوا عقاله فلم ينطلق هاربا . ولزم الغزال نيازى بك

الذى كان يطعمه كل يوم بيده وتبعه أينما توجه ، وقد حدث أن تبعه فى اليوم الذى ذهب فيه لمقابلة عثمان باشا ، فسار خلفه وصعد معه السلم حتى دخل الحجرة ، فقال نيازى بك لعثمان باشا مشيرا إلى الغزال : « تأمل ياسيدى ، حتى الحيوانات معنا تؤيدنا وتنضم الينا ! »

وأصبح لنيازى بك جيش قوى يزيد عدده على توالى الأيام وينشر الثورة فى مقدونيا وكل مافيها من بلاد وقرى ، وكثرت حوادث اغتيال الضباط ، وأرسلت لجنة الثوار فى مناستير إلى السلطان تقول : « نرجو جلالتكم أن تأمروا بصدور «ارادتكم» السنية لرعاياكم وكل من يخضع لكم حتى تحفظوا علينا ولاءنا لكم وتضمنوا طاعتنا ، أما إذا لم يصدر الفرمان السلطانى بفتح البرلمان إلى يوم الأحد فمن الواضح أن حوادث ستحدث ضد مشيئتكم ، فالموظفون المدنيون والضباط والحراس والجنود جميعا والأمة جمعاء من غير تفرقة بين دين ولا جنس ، ستتحد أمام الله . »

وتحرك جيش الثوار فى مقدونيا وأخبر أنه سيسير إلى سلانيك ثم استانبول ويعلن الدستور . وحاول السلطان عبثا ارسال جيوش لسحق الثائرين فقد كان جنوده يتمردون ،

ونصحه رئيس وزرائه فريد باشا بالخضوع للأمر الواقع وإعلان الدستور فغضب عليه وعزله وولى سعيد باشا الذى كان من أعداء الدستور ، ومع ذلك فقد جهد أن يقنع مولاه بضرورة منحه . فنوى أن يعزله وطلب فريد باشا وعرض عليه رئاسة الوزارة فاعتذر من قبولها ، وسأله إن كان ذلك خوفا منه على حياته ، غير أن فريد باشا أجاب السلطان قائلا : « كلا لست متخوفا على نفسى وإنما تخوفى عليك وعلى من حولك . » وبقى سعيد باشا رئيسا للوزارة وكان يرى أن يسوس الثوار بالعنف ، غير أن سياسة العنف لم تكن لتجدى نفعا ، فمنح السلطان شعبه الدستور فى الثالث والعشرين من يوليه سنة ١٩٠٨ .

وهاتان الثورتان متشابهتان فى الباعث الأساسى عليهما وهو كراهة الأجانب والسخط عليهم والرغبة فى الحد من سلطانهم ، غير أن ملك الفرس كان يكره الاصلاح ظنا منه بأنه ملك الملوك الذى يحكم بالحق الالهى المقدس ، فلا مشيئة للشعب أمام مشيئته ، أما سلطان الترك فكان يخاف القيام بمشروع جديد لخور فى نفسه وتوقعه الشر مما لم يألفه ويمارسه . وكان الايرانيون

محتجين أكثر منهم ثائرين ، فهم فى ثورتهم وهجرتهم كانوا يظهرون غضبتهم ، فلم يحكموا السيف إلا يوم وجدوا الحاجة إلى تحكيمه ، أما الترك ففيهم صرامة وشدة بأس ، فكانت ثورتهم عسكرية ، وهم أهل قتال وجلاد بطبعهم ، فنالوا بالعنف وحد السيف ما لم ينالوا بالملاينة واللطف .

مصارع العظماء

العظمة لا ينالها إلا ذو حظ عظيم ، وهي أنواع متباينة منها التصدي لحكم الناس وتصريف أمورهم والقوامة عليهم . والعظيم ذو الحول والسلطان قد يشقى بعظمته بعض الشقاء أو كله ، لأنها تكلفه الجهد الجهيد لاحتفاظه بدوامها عليه ، وتقيده بما يجب أن ينطلق منه ، كما تعرضه لحسد الحاسدين وكيد المغرضين فتجر عليه مستطير الشرور ، وما من نفس تخلو من أثرة وميـــل للسيطرة ، وشوق الى التنافس وتنازع البقاء ، فهي تتأذى ابدا بكل مستأثر بالخير عليها كما يتأذى العطشان برؤية الريان ، وما من عقل يخلو من نزعة لتقويم العوج ان بالرفق أو العنف ، فلا يعدم العظيم أعداء له من حوله بقلوبهم أوالسنتهم أو أيديهم ، وفي سيوف الحراس وحراب الحجاب أوضح الدلالة على توقع

اليأس واتخاذ الأهبة لدفعه ، وقديما قال بعض الحكماء ان العظيم كراكب الأسد ، يخافه الناس وهو لمركبه منهم أخوف .

وأن هذه الظاهرة لحافز على جريمة القتل المعروف بالسياسى والموسوم بكل صفات البشاعة والظلم والغدر ، وعند التاريخ أخبار طوال نجد فيها من أبناء الملوك من عق الأبوة فقتل أباه ، ومن السلاطين من نسى الأخوة فقتل أخاه ، ومن خلفاء الرسول وآله الأكرمين من لقى الحتف على يد كفار أثيم أظلم قلبه وعميت بصيرته فلم يعرف للنبوة قداستها ، ولا للخلافة جلالتها ، كما أن لدينا من سودهم الله على قومهم ، واختصهم بالصدارة والرياسة فاوردوا موارد الهلكة فى غير جريرة أخذوا بها ولا ذنب حوسبوا عليه ، فلم يعقب ذلك إلا خطيئة لا يغتفرها الغفور الرحيم ، وفسادا فى الأرض يجر إلى فساد ، وقد يتسع الخرق على الراقع فيعز منال الاصلاح ، ويمر مديد الزمن وتبقى حزازات النفوس كما هى .

وفى تاريخ الترك مأساة حزينة تحدثنا بلسان صدق عن اغتيال العظماء ومايتلوه من وخيم العاقبة ، وتصور لنا سوء الحال بعد هذا الجرم الذى لن يبرره دين ولا عقل . فلما خلع

السلطان عبد العزيز وتبوأ العرش بعده السلطان مراد ، زين الشيطان لبعض الوزراء أن يقتلوا عبد العزيز ، وكان ذلك عام ١٨٧٧ ، ففكروا فى الأمر ودبروه حتى صح عزمهم عليه ، وتوخوا أن يخدعوا الناس عن أنفسهم ، ويلقوا فى روعهم أن عبد العزيز مات منتحرا ، وفى ليلة من الليالى تسللت إلى القصر النائم اشباح خمسة ، وكانت لثلاثة من الوزراء وهم : عونى باشا ومدحت باشا وقيصرلى باشا ورجلين من أعوانهم فهب السلطان من نومه على وقع أقدامهم فى مخدعه ، ورفع صوته مناديا : ياحسن ياحسن . إلا أن الرجلين كانا أسرع شىء إلى اخماد أنفاسه واسكات نأمته ، فقد عصرا عنقه فمات ، وما تأكد عونى باشا من موته حتى عمد إلى مقص كان على منضدة بجانب الفراش ، فوخز به أكحل القتيل وشقه ، وسكن ماثار من شعره ، واصلح ماانكمش من ثوبه ، وشد ما اختلج من اطرافه ، ثم ألقى عليه نظرة شديدة ، وأطلق ضحكة شامتة كضحكة البوم على طلل خرب .

وتعلق الجناة بأذيال الفرار ، وانهى الوزراء الخبر إلى السلطان مراد فوقف منهم على جلية الأمر ، وجزع أشد الجزع

مراد الحليم الرحيم الذى لم يبيت السوء يوما لعمه عبد العزيز ، ولم يكن له فى الأمر رأى ولا يد ، فقلب على ذلك كفيه ، وقر فى نفسه أن الناس سيعزون إليه هذا الجرم ظلما . وبينما هو فى حسرته وحيرته دخل عليه الضابط الشركسى حسن بك ، وهو رجل صعب المراس شديد البأس من خلصاء عبد العزيز واخص بطانته وحراسه ، وكان قد أحاط علما بكل ماحدث لمولاه من أخته مريم وهى من نساء عبد العزيز ، وارتكبت الجريمة بين سمعها وبصرها . ودخل الضابط على السلطان مراد مندفعا ، حتى ان السلطان قال له فى ذلك واستنكره منه ، فرد عليه الشركسى بما لا يرد به مثله على السلطان وقال له : « أنا لا أقصدك بسوء يامولاى ، أين عونى ورفاقه ؟ أنت عليم بأنهم قتلوا عمك ، لقد شوهدوا وهم يدخلون قصره مع اثنين من رجالهم وبعد ساعتين من دخولهم ، شاع الخبر بأن عبد العزيز مات منتحرا ، اعبد العزيز من ينتحر ! كلا انها جريمة دنيئة ، لقد قتله عونى واصحابه . »

وظهر القلق والفزع فى وجه مراد فسأل الضابط الجرىء قائلا : « وماذا تريد بعونى ؟ » فاجاب حسن بك قائلا : « أريد

لأبعث به إلى الجحيم . » ورأى السلطان الشر يلتمع فى عينى حسن فأحب أن يهدىء من روعه بقوله : «ولكن على رسلك» وما سمع الشركسى ذلك من مراد حتى انطلق يقول : «أفى نيتك أن تثأر به ، الست السلطان ، أتصبر على هذا العار ، أتخنع خنوع العبيد أمام وزرائك ، ليهزأ الناس بسلطنتك ؟ لا تخدع نفسك ، ولا يدورن بخلدك أن الجبن ينجيك من خطر داهم يتهددك ، ليس دورك ببعيد ، وسيقتلونك كما قتلوا عبد العزيز من قبل ، هيا انتفض ، ومر بشنقهم توا ، لم تكتف هذه الكلاب بخلعه ، بل قتلته بأيديها ، وهو من غمرها بأفضاله وأغدق عليها من نعمه ، والله لو أن لى خمسين روحا لبذلتها رضا وطواعية فى سبيل قتلهم واستئصال شأفتهم . لو رأيته وقد امتدت ذراعاه فكأنه يطلب الأنفاس عبثا ، واسود وجهه ، وثار شعر رأسه ولحيته ، ولو رأيت عقيلته ووالدته وهما تبكيان على جثمانه ، ما ترددت برهة فى الثأر به . »

وخرج الضابط من حضرة السلطان غير مستأذن بعد أن أسمعه كلاما لم يسمعه من قبل ، وانطلق إلى ثكناته وهناك اطلع رفاقه على ذات نفسه ولم يطو عنهم سراً ، وسرعان

ماسرى خبره إلى عونى باشا وزير الحربية فعرف أنه متمرد ، وأمر بسجنه مدة ، ولما انتهت مدته أمر الوزير باستدعائه ، فلما مثل الضابط بين يديه تظاهر بإظهار الندم على ما كان من قوله ، والتمس العفو عما فرط منه ، وأغلظ الوزير فى القول للضابط المتمرد ، وأمهله يومين يرحل بعدهما إلى بغداد ، وتوعده بالشر أن تلبث أكثر من هذين اليومين فحياه الضابط وانصرف .

وامتطى جواده وقصد وزارة الحربية ، وهناك أخبر بأن عونى مدعو للعشاء والسمر فى قصر مدحت باشا . فعاد أدراجه وانتظر حتى وقب الليل فعرج على إحدى الحانات ، واحتسى من الخمر ست كؤوس ، وحان موعد الوليمة فأخذ سمته إلى قصر مدحت باشا ، ودخل بعد أن أخبر الحراس بأنه على موعد من وزير الحربية للتحدث إليه فى أمر هام قبل سفره إلى بغداد فى الغد . ثم دخل بهو القصر ولما منعه الحاجب سلم اليه أوراقا كانت معه لتقديمها إلى عونى باشا حتى يسمح له بالمقابلة وما سار الحاجب بالأوراق حتى تبعه حسن من حيث لا يشعر ثم دخل على عونى فى غرفة جمعت بينه وبين مدحت وقيصرلى وغيرهما من صفوة القوم .

وما أن شاهد حسن بك من جاء لرؤيته حتى أمره بعدم الحركة ثم أخرج مسدسه وأطلق منه رصاصة أصابته فى صدره ، فجرح جرحا غير مميت والتى نفسه على الجانى ، إلا أن رصاصة أخرى جدلته وأفقدته الحركة . واهتز القصر هرجا ومرجا ، واندفع الوزراء الى الغرفة المجاورة ماعدا رشيد باشا وقيصرلى باشا . أما مدحت باشا فجرى الى الحريم ليتسلح ، وعاد حسن بك فأطلق طلقتين على رشيد باشا ، غير أن قيصرلى باشا القى بنفسه عليه وأمسك بذراعه فعطلها عن حركتها ، فاستل الشركسى خنجره وهوى به على عنقه وقطع أذنه .

وحاول أحد رجال مدحت أن يعترض القاتل فكان جزاؤه رصاصه صرعته . وكان عونى مثخنا بجراحه الا أنه تحامل على نفسه واتجه مترنحا نحو الباب ، فالتفت اليه حسن بك وبقر بطنه وكشط وجهه بخنجره ، وكان يقول وهو يقتله : « أيها الكلب ! مت ميتة الكلب ، إلى الجحيم ، ولتسعد روحك ياعبد العزيز . » ولم يلق القاتل سمعا إلى صوت رقيق يقول بأرق نبرة من وراء باب موصد : « دعه ياولدى ، عفا الله عنك . »

ولما تأكد من موت عونى هوى على جثه رشيد فكاد يفصل

رأسها عن الجسد . ثم أطلق النار على باب محكم الاغلاق تحصن خلفه بقية الحاضرين ، ووصل ياور عونى وسل سيفه متجها إلى حسن بك الا أنه أعجل عما كان ينويه برصاصة أردته قتيلا . وكان يقتل كل جندى يقترب منه بمسدسين فى يديه ، ولما فرغت ذخيرته بعج الجند بطنه بأسنتهم والح عليه النزف فضعف ، وحملوه إلى الحديقة ثم إلى المستشفى ، وهناك لم يقبل من الأطباء أن يضمدوا جراحه وقال : « لا بأس على ، لقد ثأرت عبد العزيز . وانى عليم بما ينتظرنى من مصير . » ومات فى ليلته ، وفى الصباح الباكر علقت جثته فى شجرة بحديقة وزارة الحربية

وقد تأثر السلطان مراد كثيراً بما حدث فسهر ليله ووجم نهاره ، وساءت صحته واختلط عقله حتى عزل من حكمه على أنه مخبول . أما المتآمر الثالث على قتل عبد العزيز وهو مدحت باشا فقد قتل فيما بعد بإيعاز من السلطان عبد الحميد ، ومن قتل يقتل ولو بعد حين .

وإذا ما انتقلنا إلى إيران فى أوائل القرن العشرين ، وجدنا مثل هذا الجرم ، وهو وإن كان أقل وأهون شأنا ، إلا أنه يشبه ما حدث عند الترك فى سوء المغبة .

فقد كان لإقليم فارس بجنوب إيران حاكم يدعى قوام الملك ، ويلوح أنه كان يأخذ الناس بالعنف ويركبهم بالعسف حتى جأزوا منه بالشكوى وأبلغوا شكواهم نواب الدولة بطهران ، فتوفر النواب على دراستها وترديد النظر فيها ، واستدعوا الحاكم ليحاسبوه ويستجوبوه ، فبسط لهم الأمر على حقيقته ، وتوصل إلى إقناعهم ببراءة ساحته من كل ما نسب إليه ، كما قال ان أعداءه يتمنون له العثار ، ويشيعون حوله الأراجيف ، ليشفوا غيظهم منه ، وهم قوم جامدون على القديم ، ثابتون على التقاليد البالية ، وضد كل مصلح ، وإلب على كل داع إلى الدستور والحرية ، ولما أتم قوام الملك ما استدعى من أجله إلى طهران عاد إلى شيراز ، غير أن أعداءه لم يكفوا عنه أذاهم ، فشددوا النكير عليه ، واحتدم النزاع والخصام بينه وبينهم ، بيد أنه أفلح بعد حين فى التفاهم مع أكثرهم ، فسل سخائمهم وانتزع الفساد من قلوبهم ، وجمعهم وعاهدهم على أن يكون عند حسن ظنهم ، ويطرح الماضى ليستقبل عهدا يسود فيه الصفاء والوئام ، ولكن كان بينهم من لم يخلص نيته ويطهر نفسه من حقد يأكلها.

واتفق يوما أن جلس فى الديوان مع جمع من رفاقه انتظارا

لمقدم الوالى ، وكان اليوم شديد الحر ، فضاق المجتمعون بالبقاء فى الغرف وجلسوا فى الحديقة طلبا لنسمة يتسمونها بعد أن كاد القيظ يزهق أنفاسهم ، وأخذوا بأطراف الأحاديث بينهم وهم يرشفون المرطبات وينفثون من الدخان سحائب ، فما راعهم الا فتى يقتحم عليهم مجلسهم وهو يجعل يده فى جيبه ، بعد أن سمح له الحجاب بالدخول ظنا منهم أنه من اتباع الوالى ، واخرج الفتى مسدسه وأطلق منه أربع رصاصات على صدر قوام الملك ، ورصاصة على جبهته ، فخر القاتل والقتيل متشحطين فى الدماء ، ولما ثابت الى الحاضرين نفوسهم ، وتلمسوا جيوب القاتل وجدوا ورقة كتب فيها « نعمت الله قاتل قوام الملك الشيرازى » .

وكان لمقتل قوام الملك رنة تجاوبت أصداؤها فى مدينة شيراز ، وتحركت ثورة الغضب ونشوة الانتقام فى نفوس أبناء القتيل واتباعه ، فكبسوا بيوت أعدائهم ، وحملوا عليهم بالسلاح ، وكانت مقتلة عظيمة نشرت الفزع فى ارجاء المدينة ، وقامت فتنة شعواء لم يشهد الناس مثلها ، ومما يروى أن المتخاصمين انتهكوا حرمة الموت فى مجلس عزاء قوام الملك ، فانتشب بينهم

القتال ولم يملكوا نفوسهم فيكبحوا جماحها ويكسروا شرتها ساعة من نهار ، فى مجلس حزين ليس فيه الا من ملأ الخشوع قلبه ، وتفكر فى الموت فهان عليه شأن هذه الدنيا ، ووجد الميل الى الزهد فيها والانصراف عن زخرفها ، فما وسعه الا أن يردد قول من قال : ان العمر أقصر من أن يتسع للعداوة والخصام .

يذهب من يشغلون أنفسهم بمسائل الحب ومشكلاته، ويصدرون فى أحكامهم عن علم النفس الذى يرد النتائج إلى مقدماتها ويربط المسببات بأسبابها، إلى أنه ليس للحب وجود خارجى بقدر ماله من وجود داخلى، بمعنى أنه يستمد نشأته من خيال يطيل العاشق فى النفس ترديده، وتفكير يديره فى العقل تكرارا. فلا ريب أن للغريزة أحكامها، لأنها تهيء القلوب الشابة للحب ضمانا لبقاء الجنس وانتظام حياة البشر، حتى إذا ما تألفت الأسرة واستقرت على مر الأيام، تغير هذا الحب كما وكيفا، وأصبح بعيداً بعض البعد أو كله عن

ذلك الحب الذى يتغناه الشعراء على نغمات الأنين ، ويروى الشباب زهرته الشائكة بالدمع الهتون ، فاللوعة والحرقة والشوق الظمآن ، والوجد والحيرة والليل السهران ، ان هى فى واقع إلا أثر التفكير العنيف ؛ والاسترسال فى الاوهام ، والاغراق فى اضغاث الأحلام ، حتى يصبح ذلك عادة عقلية لا ينفك العشاق عنها ، ولا يملكون انطلاقا من أسرها ، فتختلط عقولهم وتضطرب نفوسهم ، ولا يتبقى لديهم من القدرة وصحة الرأى ما يميزون به حقيقة من خيال . ويمكن القول بأن الغرام وليد هذا الخيال الهائم الذى لا يستكين ولا يستقر ، ولا يعرف للآفاق حدا من الحدود ، لأن العاشق يضفى على صاحبته من الصفات مالها وما ليس لها ، ويرسم حولها من الهالات فى بعد وقرب ما يجعلها من بنات الحور ، فليس بدعا أن نصادف من يشاهد الحسن فى غير ذات حسن ، فالخيال السابق أو اللاحق يغير الحقيقة الراهنة فيجعلها كما يراد بها أن تكون ، وينسى حتى الدمامة إن وجدت ، ويتصورها تلك الملاحة الفاتنة الأخاذة التى طالما تمثلها وحلم بها .

ونخلص من كل هذا إلى حقيقة لامراء فيها ، وهى أن الخيال

أهم عنصر فى العشق يكسبه هذه الصفات التى تجعل منه هما يلازم القلوب ، وداء وبيلا يعصف بالنفوس ، فالمعشوق لا يظلم عاشقه كما يقولون ، وإنما العاشق هو الذى يظلم نفسه ، ويجر على قلبه الضعيف هذا العذاب الممض بأوهامه وأحلامه التى يعجز عن دفعها ، ولا يملك زمامها . ولدينا من تاريخ الفرس ما ينهض دليلا على ما نقول ، ويبين لنا سلطان الأوهام والأحلام على ملك من ملوك ايران هو فتحعلى شاه المتوفى سنة ١٢٥٠ هجرية .

ولهذا الملك شهرة مستفيضة بأنه كان موكلا بالنساء يحشدهن فى حريمه حشدا ، لولوعه بهن وتهالكه عليهن ، حتى قيل انه مات عن ألف امرأة بين زوجة وجارية وحظية ، واعقب منهن مائتين وستين بين ابناء وبنات . وله قصة مستطرفة مع من تدعى طوطى شاه ، وهى فتاة رآها أول مارآها فى مدينة اصفهان ، حيث كان يستجم ويستروح ، قبل أن ينفذ جيشه الى الجنوب للضرب على أيدى أقوام ثاروا وشقوا العصا . وتفصيل ذلك أنه كان مطلا ذات يوم من نافذة تشرف على قصر حاكم اصفهان فأخذت عينه فى فناء الحريم فتاة لها حسن الزهرة المطلولة .

ولم يتأمل محاسنها حتى التأمل لبعدها عن مرمى بصره ، واسراعها الخطو لبعض شأنها . وما غابت عن ناظريه حتى تساءل من تكون هذه الحسناء . وشغل قلبه بذلك الطيف الجميل الذى ما أقبل حتى أدبر ، فاعمل الفكر والخيال ، وانتزع لها من كل صفات الحسن ماخلقها خلقا جديدا بديعا ، فلم يدع للنسيم رقة ولا للربيع نضرة ولا لطالعة الصبح بهجة ، إلا خصها من كل ذلك بأوفى نصيب ، فاستوت لها فى نفسه صورة يكبو قلم البليغ دون وصفها ، وظمىء فؤاده اليها ، واستشعر الهيام بها ، وأمر بالوقوف على خبرها ، فقيل له أنها من بنات الأمراء وأسرتها هى المعروفة بالأسرة الزندية ، وان أهلها على أتم الاهبة لتقديمها إلى أعتابه الملكية . ولم يكن فتحعلى شاه راضيا عن أمراء الأسرة الزندية ، فرغب عن الفتاة وكره أن يضمها إلى حريمه ، لا لشىء سوى سخطه على آبائها وذوى قرباها . غير أنه كان لها محبا ، فاراد أن يكف قلبه عنها ، وجاهد نفسه جهادا عظيما من غير طائل ، ولما عزه الامر وأعيته الحيلة ، لم يجد له خلاصا ومخرجا إلا فى البعد عنها ، فعول على الرحيل عن اصفهان بلد الحبيب ، والعودة إلى عاصمة ملكه طهران ؛ أملا

فى النسيان والسلوان وشفاء نفسه مما تجد، إلا أن الروح الظمأى لم تكن رهينة بالجسد المفارق، وفى فراق الاشباح لقاء الارواح، فاشتدت بالعاشق لوعته، وازدادت فيها رغبته من حيث ظن أنه سيسلو عنها، ورق لها قلبه فتحركت شاعريته وقال هذا البيت: «من تكون هذه الحورية العيناء التى قرت بها عين الملك، فكأنما التقى سليمان ببلقيس!»

ولم يطق الصبر على فراقها، ولا نال ما كان يرقبه من هجرها، فما وسعه إلا الاقرار بأن سلطان الهوى أعز من سلطانه، وأنه من هؤلاء القوم الذين تصرعهم الأعين النجل على عظيم صولته وشديد جبروته، فعجز وانكسر، وبعث إلى أصفهان بمن يأتيه بخالبة اللب وآسرة القلب، وما عادت اليه من فراقها الطويل بعد الضنى والسهاد حتى أمر تواً، فكانت زوجته وسماها «طوطى شاه».

وقد أعزها غاية الإعزاز وأكرمها ايما اكرام. فكان يجيب سؤلها وينزل على رغبتها، ويطيب له إن أمرت أن يطيع وإن استعلت أن يخضع، وقد ذهب عنها هذا فى الناس فكان أصحاب الحاجات يقصدونها من أرجاء البلاد ويسألونها

الشفاعة عند فتحعلى شاه . أما أصحاب الجاه والحل والعقد ، فكم كانوا يقدمون إليها نفيس الهدايا إن نجحت فى مسعاها ، وأنالتهم من زوجها الملك طلبتهم ، حتى قيل إنها كانت تدير سياسة البلاد من طرف خفى وتهيمن على كل شىء علم الشاه أو لم يعلم .

ومما يذكر أن فتحعلى شاه كان إذا أراد اظهار الرضا عن إحـــدى نسائه ، أرسل إليها خصلة من شعره بعد أن يحتلق وشفعها ببدرة من الذهب ، فحفظتها بين حليها ونفائسها لتزين بها شعرها ، وتتيه بها على الحاسدات من أترابها ؛ وكانت طوطى شاه صاحبة الحظ الأوفى من خصل شعر فتحعلى شاه .

ولم تطل أيامها ، فمضت فى ربيع عمرها ، وطواها ثرى ضاحية من ضواحى طهران ، وشيد لها قبر له من الجمال والجلال شبه ما كان لصاحبته . وغرست حوله روضة وسيعة ذات بهجة عرفت بحديقة طوطى . وقد جزع فتحعلى شاه لموتها أشد الجزع فبرح به الأسى ، وكان دائم الذكر لها والحسرة عليها والحنين إلى لياليها المواضى وزمانها الذى ليس يرتجع ، ولم يكفه أن يخلد ذكراها على وجه الزمان بقبر مهيب وروضة بهية ، فقد صور له الوهم أن يحييها من موتها ، ويوقظها من رقدتها ويردها إلى

الدنيا بعد رحيلها عنها ، ليجدد عهداً مضى وينعم منها بالوصال بعد فرقة الأبد ، فما كان منه إلا أن أمر ولاة البلاد وحكامها بالبحث عمن تشبهها تمام الشبه ، فامتثلوا الأمر ، وأرسلوا إليه من النساء عدداً لا يحصى ؛ فأجال الشاه فيهن بصره فاحصاً موازناً حتى استقر رأيه على أن يصطفي إحداهن ؛ ولم يكن لها من الحسن ما كان لطوطي شاه ، وإنما كانت عيناها كعينيها وشعرها مثل شعرها . فألحقها بحريمه وجعل لها من المنزلة ما كان لشبيهتها وسماها « طوطي نما » بمعنى من تظهر طوطي . فكان كثير النظر إلى عينها وشعرها ، ذاكراً بهما حبيباً له في ظلمة الثرى ، فيبكي أحر بكاء حتى في ساعات الوصال وأيام النعيم . ولم يذكر المؤرخون إن كان عشق طوطي نما أو لم يعشقها ، ومهما يكن من شيء فان هذا الصنيع منه يدل دلالة واضحة على أنه كان ينظر إلى الحقيقة بعين الخيال ويخدع نفسه خداعاً صريحاً سافراً لينطلي الزور عليها ، مستعيناً بذلك التمثال الحي ، فهو يريد أن يصدق ما لا سبيل إلى تصديقه ، ويغالط في الحق وهو عليم بأنه من الواهمين الحالمين ، ويجيل النظر فيما بين يديه ليشاهد ما قد غاب عنه في أطواء الزمن

وهكذا أمر العشاق ؛ فهم يتجافون عن الحقيقة ؛ ولا يملكون مقدرة على مجابهتها ، ويولون هاربين إلى آفاق بعيدة للخيال ؛ ثم يرتدون وقد رأوا أن هذه الآفاق خاوية ، ولا أمل فى بلوغ نهايتها ، بعد أن ظلموا أنفسهم بالألم الطويل والعذاب المهين ، وعرفوا أن الحالم بالورود قد يستيقظ فيجد نفسه على فراش الأشواك .

شاعران هجاءان

الهجاء فن شعرى له صفات تنفر منه وتزهد فيه ، وصفات تدعو إلى تدبره وتبعث على التحدث عنه وعن شعرائه ، فهو فى درجاته العنيفة هجر تمجه الاسماع ، وخنا تعافه الاذواق ، وقبح تبا له من قبح ، أما فى درجاته الخفيفة فتعبير صريح عن نفسية الشاعر ، وتصوير الشعور الكراهية إذا احتدم بين جوانحه ، واظهار لما يعتبر عيبا ومغمزا ، وهذا تبصرة بالمساوىء ، وتعداد لانواعها فى قوم الشاعر وزمانه . كما أنه معوان لنا فى الاحايين الكثيرة على النفاذ إلى نفوس الشعراء لتعرف البواعث التى دفعتهم إلى ما كان من صنيعهم ، وقلما نعدم فى الهجاء روح المرح والدعابة التى تقرن بهذا الفن فنا آخر هو فن الهزل والاضحاك .

وفى أدب الفرس والترك شاعران هجاءان هما عبيد الزاكانى الفارسى ، ونفعى التركى ، ولهما من بعد صيتهما والتبريز فى فنهما

مايلفتنا إليهما ، ويجعل الدراسة حقا لهما علينا .

فعبيد الزاكانى من أهل القرن الثامن الهجرى ، وقد حصل العلوم وطال باعه فى الآداب حتى أهَّله ذلك للتكسب بالتعليم ، فأصبح مؤدبا لكثير من أبناء صفوة القوم ، وكان رجلا من أهل الجد والورع ، لا يقول الا حقا ، وليس فيه جانب للهزل والمجانة ، غير أن حدثا وقع له ، فاخرجه عن مألوف عادته ، ونحا به نحوا آخر هو ضد ما كان يعهد فيه ويشتهر به ، فقد صنف رسالة فى علم البلاغة سماها « علم المعانى والبيان » وأهداها الى الشاه أبى أسحق ، وأراد أن يقدمها بشخصه ، وطلب اذن المثول بين يديه ، فرده الحجاب قائلين أن أحد المضحكين فى الحضرة الملكية ، والشاه بالأسمار والأضاحيك فى شغل عن كل شىء ، فلا سبيل الى الدخول عليه وساء ذلك عبيد الزاكانى ، فدق كفا بكف ، وأظهر حزنا وعجبا ، وتأسف أن يدخل أهل الهزل والمجون على الملوك ، ويرد العلماء والفضلاء ، وذكر ما لقى من كد وعنت فى التأليف والتصنيف بعد الذى رأى من الاقبال على الهزل ، والانصراف عن الجد ، فأسر ذلك فى نفسه وردده طويلا ، واحس ذلك اليأس

الممزوج بالغضب ، الذى يدفع صاحبه دفعا إلى الانحراف عن وجهته ، ونبذ ما كان ينهج من منهج ، فلم يجد خيراً فيما كان يأخذ به نفسه من جد ووقار ، ولا جدوى فى علم يكد الذهن ويسهر الجفن ، وعول على أن يهزل مع الهازلين مادام ذلك يحببه إلى الناس ، ويقربه من الملوك ، وقال هذه الأبيات على البديهة مشيرا إلى مايعتزمه ، وذاكرا ماحداه على ذلك :

« تجاف عن طلب العلوم ، ولا تكن مثلى فأنا الأذل عند الأعزة ، وإذا ما اردت قربةوحظوة عند سادةالزمان ، فاخلع عذارك ، واضرب لهم بالمعازف ، وسلهم الحافا حتى تريق ماء حيائك » .

واشتد سخطه على الزمان واهله ، وان هذا السخط لأول باعث على الهجاء وخبث اللسان ، فالمتبرم المتذمر يرى الجميل غير جميل ، ويلتمس تنفيسا لغضبه بصبه على المسىء والبرىء جميعا فلا يسلم منه أحد . وقد عجب لذلك بعض من يعرف للشاعر فضله ويقدر علمه ، وأحزنه أن يبلغ منه اليأس والتشاؤم هذا المبلغ ، فقال له فى ذلك ، ورد عليه عبيد الزاكانى بقوله :

« أيها السيد ، لاتطلب العلم ، وليكن ذلك عزمك الذى لا تتحول عنه

جهد المستطاع ، حتى لا يضيع قوت يومك من بين يديك ، فاذهب واجهل واهزل ، وعن المطربين خذ علومهم ، لتنال حقك من كل عظيم وغير عظيم . »

وكان معدما سيء الحال ، ضيق ذات اليد ، ولم يكن فارغا من هموم العيش على ميل فيه إلى الاسراف والاتلاف ، فركبه الدين ، وزاده ذلك هما على هم ، وتسخطا لمقدور القضاء ، فقال في معرض الشكوى : « الناس يفرحون ويمرحون ، وأنا من منيت بالديون ، والكل بشأنهم في شغل ، ولا شغل لي إلا بلاء ديوني ، وفي عنقي فرض الخالق وقرض خلائقه ، فخرت في اداء الفرض والقرض ! أنا كثير النفقة ثقيل الدين ، فهل أدبر نفقتي أم أفكر في ديوني . أنا إن شكوت من كتاب فشكواي من سجل ديوني ، وإن خفت أحدا فخوفي من شهودي . »

ويقال أن شاعرا يدعى سلمان الساوجي هجاه بشعر غليظ فرحل عبيد الزاكاني إلى بغداد ، وشاءت الصدفة أن تجمع بين الشاعرين في هذه المدينة فقد رأى عبيد صاحبه في رفقة من أهل الأدب يتناشدون الأشعار على نهر دجلة ، وقال سلمان شطرا وطلب إلى الحاضرين أن يجيزوا فأجاز عبيد وهو داخل عليهم

وهم لا يعرفونه ، وسأله سلمان عن بلده فقال قزوين ، واحب أن يعرف ان كان لشعره سيرورة وشهرة فى هذا البلد فقال عبيد : « أنا خمير وجليس حانات ، وبين المجوس عاشق نشوان ، وقد تجاذبونى كالزق من كتف إلى كتف ، ونقلونى كالقدح من كف إلى أخرى . »

فعرفه سلمان الساوجى بشعره ، وسأله الصفح عما كان من هجائه له ، وما زال به يسترضيه حتى رضى ، وتصافى معه فسلم من لسانه .

ولعبيد الزاكانى شعر كثير فى الهجاء والهزل والمجون ، ولا يسعنا إلا أن نمسك عن ذكره مكتفين بالاشارة اليه لفحشه الشديد وحقائقه العارية التى لا تعرف للتهتك حدا ، غير أن هذا الشاعر كان ناثرا كذلك وقد الف عدة رسائل يذهب فيها مذهبه فى الهجاء والهزل والتهكم ، ومنها رسالة تعرف بأخلاق الأشراف ولها قيمة أدبية وتاريخية لأنه إنما كتبها فى عصر انحلت فيه أخلاق أبناء وطنه لمخالطة المغول والترك لهم ، فأحب أن يميز للناس بين الخير والشر والفضيلة والرذيلة ، بأسلوب هزلى لاذع فيه من قوارص الكلم ما يؤذى السادة والرؤساء فى شرفهم وعرضهم ، وقد سخر من أعمالهم وهزأ بهم ، وجعل الرسالة فى سبعة أبواب

وهى الشجاعة والعفة والعدل والكرم والرحمة والوفاء والتواضع ، وتحدث فى كل باب عن الفضيلة فى رأى السلف وسمى ذلك المذهب المنسوخ ، والفضيلة فى رأى أبناء العصر وقال انها المذهب المختار . وهذا واضح الدلالة على أنه يذكر الناس بصلاح السلف وفساد الخلف .

ومن قوله فى باب العدل : « يذهب من تتلمذنا لهم أن العدل شر الصفات ، وأنه يجر أوخم العواقب ، وقد أوردوا على ذلك ساطع البراهين ، فالعقاب أساس الملك والحكم والسيادة ، لأن الناس لا يطيعون إلا من يخافون ، فإذا ما كانوا جميعا على قدم المساواة ، امتنعت الرعية عن إطاعة راعيها ، وعق الأبناء آباءهم وخرج الخدم عن طاعة سادتهم فعمت الفوضى مرافق البلاد كلها . »

وهكذا يمضى فى تهكمه وينسب إلى الأشياء ما ليس لها من صفات ، فيلبس الحق بالباطل . وله رسالة سماها مائة نصيحة ، وهو فيها يحرف الحقائق فيضع الشر مكان الخير ، ويقول : « إياك والتأهل ببنات الشيوخ أو القضاة أو المرابين ، فانهن لا ينجبن إلا المتسولين أو المرائين أو الكاذبين ، إما إذا لم

تستطع فتزوج على ألا تعقب منهن ! تمتع بحياتك ما استطعت إلى ذلك سبيلا ، ولا ترجىء إلى الغد متعة اليوم ، واغتنم فرصتك فلن يرتد إليك ما فات من عمرك . حذار من قول الحق ، حتى لا يضيق النـاس بصحبتك ولا يغضبوا منك من غير وجه . لا تصدق ما يقول أهل العـلم والتقوى حتى لا تدخل النـار ! لا تـكن دارك بالقرب من منارة حتى لئلا يقلقك صوت المؤذن ! ولا تسخر من الهجائين والماجنين . » ومن الواضح أنه لا يريد من هذا الكلام إلا ضده ، وقد قال جداً فى صورة الهزل ، ولهذا وقعه فى النفوس وأثره فى تحقيق ما يراد منه .

وله رسالة أخرى طريفة فى بضع ورقات تعرف بالتعريفات وفيها ينقد أهل عصره بتعريفات مضحكة كقوله : « القاضى من يلعنه الناس طرا ، والمحامى من يجعل الصدق شيئاً لا قيمة له ، والسعيد من لا يرى وجه القاضى أبدا . »

فعبيد الزاكانى فضلا عن كونه شاعرا هجاء ، ناقد اجتماعى من الطراز الأول ، وباحث أخلاقى لا غبار عليه .

ولم يفارقه ولعه الشديد بالسخرية والتهـكم إلى آخر عهده بالدنيا فمن طريف ما يروى عنه وهو يجود بنفسه على فراش

موته ، انه استدعى كلا من أبنائه على حدة وقال له انه خلف كنزا عظيما ثم دله على مكانه ، وشرط أن يكون فتحه فى ساعة معينة ، ولم يفته أن يوصى من حدثه بأمر الكنز أن يطوى السر عن أخيه . ومات الرجل ، فالتقى الأخوة فى المكان المعين والموعد المضروب ، وكشفوا الأرض عما يحتويه جوفها ، فوجدوا صندوقا صغيراً ، ولما فتحوه رأوا صحيفة مطوية ، وبسطوها فاذا هذا البيت فيها « إنى لأعلم وأنت تعلم وكفى بالله عليما وشاهداً ، بأن عبيد الزاكانى لا يملك فلسا واحدا ! »

* * *

أما نفعى فمن أهل القرن السابع عشر الميلادى ، ويعتبره مؤرخو الأدب التركى شاعراً كبيراً ، فقد كان مشرق اللفظ محكم النسج بعيد الخيال ، ومدح السلطان مراد الرابع بشعر كثير ومنه قصيدة عصماء ارتجلها فى حضرته فحشا فاه ذهبا لطربه وفرط اعجابه ، كما مدح الوزراء وأصاب صفة كرائم الجياد . غير أن شهرته كانت بالهجاء ، فنفعى اهجى شعراء الترك غير منازع ، والظاهر أنه فى مدحه كان متصنعا متريضا وان أحسن ، وإن المتصفح لديوانه لواقع على عدة أبيات تدل دلالة

أكيدة على أن الشاعر فخور معتد بنفسه إلى أبعد الآماد ، فهو الذي يقول : « فيض طبعي في عالم المعاني لمعة الشمس في الضحى ، وإن لفكرى عينا نيرة حتى كأن عين الشمس سوادها ! »

وقد عرف بزهوه وخيلائه ، ولنا أن نرد إلى ذلك رغبته الملحة في السباب والهجاء ، فالمتكبر طعان في أعراض الناس دائم المقذ لهم ، وهو يريد الحاق العيوب بهم ليكون مبرءاً من كل عيب ، ويود أن يجعلهم صغاراً ليقر في نفسه بأنه بالاضافة إليهم أكبر كبير وأعظم عظيم . وقد جرت عليه كبرياؤه كراهية عارفيه وغير عارفيه ، كما اقترن غروره بفظاظة وغلاظة طبع وشدة بأس ، وظهر أثر ذلك واضحا في شعره الغزلى ، فهو ملىء بالمبالغات بيّن التكلف والتعسف ميت العاطفة .

وقد ضمن هجوياته مجموعة سماها « سهام القضاء » وهى تموج بالرفث والشتائم ، وتحوى كل ما ينسب إلى السفاهة والسلاطة ، فلم يسلم أحد من مقذعات هذا الشاعر ، حتى انه هجا أباه مستهلا بقوله : «ليس هذا لى بأب ، إنما هو بلاء أسود صب على رأسى صبا ! »

واشتد سخط الناس عليه ، حتى ان أديبا كان معاصرا له

من أصحاب الموسوعات الأدبية المعروفة بكتب التذكرة، لم يذكره إلا فى سطر واحد، فقال إن نفعى من مدينة ارضروم، وشعره ترهات وأكاذيب.

والواقع من الأمر ان هذا الأديب كان حاقدا عليه، لأنه ثلبه وأذاه بلسانه. وقد قيل فيه بيتان من الشعر، وكان لهما شهرة وذيوع، ومنهما نعلم مبلغ الغضبة التى غضبها عليه الرأى العام فى زمانه وهما: «هذا الشاعر الهجاء المسمى نفعى، قتله جائز فى المذاهب الأربعة كقتل الأفعى!»

وقد بلغ منصبا عظيما، هو وزارة المالية، إلا أن ذلك لم يثنه عن الشتم، أو يكفه عن أن يهجو زملاءه الوزراء، وان هذين البيتين ليصوران نفسه أصدق تصوير، وهما: «ليعلم كل من خاصمنى فى فن القول بأن حملتى عليه شر وبلاء، فشعرى رستم ذلك البطل الرامى عن القوس، وسهام القضاء كنانته»

وكان شديد السخرية من الناس، متظاهرا فى ذلك بأنه يمزح ويتفكه، والبرهان على ذلك أبيات قالها فيمن يدعى طاهر أفندى، وقصة قصيرة وقعت له مع أحد خصيان القصر. أما الأبيات فهى: «إن طاهر أفندى كلب عندى! والالتفات فى

هذا الكلام ظاهر ، فأنا على مذهب مالك ، والكلب عند المالكية طاهر ! »

أما القصة ، فهى أن السلطان مراد الرابع أنفذ اليه كتابا مع خصى اسود ، ولما تسلمه التى عليه نظرة فاترة ولم يكترث لما جاء فيه ، واتفق أن كان الخصى يكتب شيئا فى ورقة فسقطت عليها نقطة مداد من قلمه ، ولم يلتفت الخصى إلى هذا الأمر ، حتى رأى الشاعر يتقطع ضحكا . فقال له فى ذلك ، وأجابه الشاعر بقوله : « إن عرق مولانا المبارك قد سقط على الصحيفة ! »

وقد أتفق يوما للسلطان مراد الرابع أن كان ينظر فى « سهام القضاء » فما راعه إلا نزول صاعقة ، فتطير السلطان وتوقع الشر من ذلك ، واستدعى الشاعر ، واستتابه من الهجو ، فأغلظ الايمان على التوبة ، وإن غلب عليه طبعه فقال لمولاه هذا البيت : « على عهد الله لا هجوت أحدا أبدا ، أما ان أذنت لى ، هجوت الحظ العاثر دون سواه . »

ولكن نفعى وهو الشكس المناطح ، لم يكن ليصبر التزام السكوت ، فسرعان مانسى العهد ووقع فى الحنث ، فهجا الصدر الأعظم بايرام باشا هجاء مقذعا ، ونمى الخبر إلى السلطان

فاستشاط غضبا ، وأمر بالشاعر فخنق ، وكان ذلك سنة ١٦٣٠م. ويقال ان السلطان كان ينفس على نفعى شاعريته واجادته لأنه كان شاعرا مثله فأوعز اليه أن يهجو الصدر الأعظم ، وافترص ذلك للتخلص منه بالقتل .

ولما سيق لضرب عنقه وكان ذلك فى مخزن للأخشاب ، قال له الجلاد متهكما (سربنا يا نفعى إلى الغابة لتبرى من خشبها سهاما !) فزجره نفعى بقوله (إخسأ أيها الفدم الرقيع ، انجز عملك ولا تبسط فىَّ لسانك !)

وأيا ما كان فإن المؤرخين يستنكرون هذا من مراد الرابع ، ويعتبرونه وصمة عار وسبة عليه ، لأن نفعى كان شاعرا عذب البيان ، وإن كان مر اللسان .

فى قرية الغرباء

(قصة للكاتب التركى المعاصر يعقوب قدرى ، وهو قصاص متفنن ناصع البيان يذهب فى التأليف مذهب الكتاب الفرنسيين ، وله إهتمام بالكتابة عن أمته ، وولوع بتصوير بيئته ، وإذا عالج موضوعا فهو واقعى بأصدق معانى الكلمة ، يتناول كل شىء بالنقد الصريح والتهكم المرير فى غير محاباة ولا مداراة .)

كنا نهبط ممرا جبليا صخريا ، فارتعدت لذلك قوائم فرسين نمتطيهما . وبدا لنا نبع صاف وشجرات صفصاف فوجدنا مس الحاجة إلى التلبث قليلا ، وطاب لنا أن نطلب الراحة ، وفى السفح الذى ننحدر إليه كانت قرية صغيرة قديمة ، لانشاهد من معالمها الاسود سقوفها ، فقلت لصاحبى :

ــ اهذه قرية الغرباء ؟

وتنبسط ارجاء قرية الغرباء فى واد غير ذى زرع كثير

الصخر ، وقد خيمت عليها الوحشة واكتنفتها الوحدة ، وكنا على عزم اجتيازها لاعتلاء هضبة من ورائها . وترك صاحبي فرسه الذى بلغ منه التعب مبلغه حيث كان ، وخطا إلى النبع ليغسل وجهه ويديه ، أما أنا فرأيت من الحيطة أن أربط فرسى فى جذع شجرة من شجرات الصفصاف ، وإنى لسائقه إلى مربطه ، إذ بصاحبي ينهض من انحناءته ، ويرفع صوته قائلا :

— حذاريك ياسيدى ، لا تربط فرسك فى هذا المكان ، فان تحته لقبرا .

تلفت حولى وادرت بصرى ، فلم تقع عينى على قبر ولا ما يشبه القبر ، وإن ظهر لى تحت الشجرة التى اقترب منها كسار احجار ملونة بالخضرة ، وقد تدلى قنديل محطم عليها من غصن الشجرة الممتد فوقها ، وعلى هذا الغصن مزع من قماش تختلف الوانه . ووقف صاحبي وأشار إلى المكان بيده وهو يمسح ذراعيه العاريتين بمنديل له ثم قال :

— نعم هاهنا !

وكان صاحبي من أهل هذه الناحية ، يعرف أرضها شبراً شبراً حق المعرفة ، فسألته عن كيفية وجود قبر فى تلك البقعة ،

ومن عسى أن يكون صاحبا له ، كما أحببت أن أعلم منه علة تحذيره اياى من ربط فرسى فى شجرة على قبر ، واقتربت منه ضاحكا . أما هو فقد رأيت الجد فى وجهه وكأنما تهيأ لا فهامى أمرا ذا بال ، وأخرج من منطقته حقا كبيرا يحمل فيه تبغه ، ومد يده إلى به مقدما ثم قال :

ــ الق سمعك ياسيدى ، هذا قبر الفتاة المستمعة إلى الصوت وهى لا تحب الغرباء ، ولذلك نصحت لك أن تبتعد عنها . لقد شاهدت هذه الفتاة ، فلم يمض على موتها غير أعوام ثلاثة أو أكثر منها بنصف عام ، وهى من بنات هذه القرية ، ومع كل فقد كانت أروع حسنا ، وأوفر عقلا ، وأغزر علما من بنات المدن . فحفظت وحدها عن معلم القرية ، وتعلمت عليه بعض الأناشيد الدينية ، وكانت مليحة الصوت ، فقرأت المولد لنساء القرية فى الأسبوع مرة . وكانت آنئذ بين السادسة عشرة والسابعة عشرة من سنيها ، ولها شعر يبلغ الكعبين طولا ، وعينان تبعثان هزة الدهشة فى كل ناظر اليهما ، أما أسمها فأمينة .

وخطبها فتى هو أعظم فتيان القرية جاها ومالا وأحمدهم سيرة وسجية ، وكان ذلك منذ أربعة أعوام أو خمسة ، قيل ــ

والعهدة على الراوى ــ انهما تحابا فى طفولتهما فطلبا الزواج فى شبابهما ، وقامت الحرب فى الأسبوع الذى تمت فيه الخطبة ، حرب الروملى المشئومة ، فانخرط الفتى فى سلك الجندية ، وكان له عن ذلك محيص لا تساع ثرائه وقدرته على افتداء نفسه بماله ، غير أنه لم يرغب ، كما أراد به والده أن يذهب ، فذهب ذهابا لا إياب منه وسمعنا أنه وقع فى أسر اليونان ، ثم جاء خبر استشهاده فى قتال الصرب بمكان لست أذكره ، وقد غمر هذا الخبر المروع تلك القرية بالأسى ، فبكاه رجالها ونساؤها ، وكان سواسية فى ذلك طفل لم يبلغ السابعة وشيخ ذرف على السبعين ، ولم يكن فى القرية ولا حولها إلا من كان له محبا ، والعجب أن خبر موته لم يسبل لأمينة عينا بالدموع ولم يرفع لها صوتا بالنواح ، وكل ما كان منها أنها امتنعت عن الطعام والشراب أياما ولم تكلم أحدا ، كما كفت يدها عن كل عمل ، وكانت تتجول والحزن الصامت باد عليها ، والأمر طبعى عادى الى هذا الحد لأن ...

وسكت محدثى والقى سيجارته من أنبوبتها الغليظة بعد أن أتم تدخينها ، ثم عاد الى حديث أكثر فى الجد ، وأظهر فى الاهتمام وقال :

وفى يوم من الأيام ، تغيرت حال أمينة ، فامتقع وجهها فكانت له صفرة الليمون ، ولمعت عيناها فكانت لهما لمعة النار ، ومدت عنقها من آن الى آن قائله لمن حولها « الصمت الصمت ! » وقد أصغت الى صوت لا يسمعه أحد سواها ، فسئلت عما تسمع ، إلا أنها لم تحر على ذلك جوابا ، ومضت أيام وأمينة تلقى سمعها إلى صوت وهى تلتزم السكوت ، ولم يمر طويل زمان حتى تحرك لسانها بما كانت تسمع أذنها فقالت حكاية عنه : « انهضى يا أمينة ، ان العدو مغير على بلادنا ، انهضى يا أمينة أن العدو محدق بأرضنا . »

وذكرت أنها سمعت هذا الصوت للمرة الأولى فى منامها ففتحت عينها وسمعته ثانية ، ثم سمعته تكرارا على طول الأيام وكأنما ينتهى اليها من عميق الأغوار وسحيق الأبعاد ، ويقول لها : « ما بقاؤك ؟ » تارة « وانهضى » تارة أخرى .

وتكشف الغموض عن هذا الكلام فظهر معناه ، وعرف أهل القرية نبأ ضياع الروملى ، ولم يمر هذا الخبر بسمع أمينة ، أو أنه مر بسمعها ولم تفهم مغزاه . وقد خرجت ذات يوم هائمة على وجهها ، وقد قطعت القرية من أقصاها الى أقصاها

قائلة : انهضي يا أمينة ، ان العدو محدق بأرضنا لقد وضح الطريق ، لقد وضح الطريق ، كونوا على أتم الأهبة ، وليذهب النساء والرجال والشباب جميعاً لملاقاة العدو ، الجهاد الجهاد ، الجلاد الجلاد !! » وكان هذا القول جوابا لمن سألها ، من يذهب ؟ وإلى أين يذهب . .

وارتجت القرية وعمها الاضطراب ، وظن أهلها أن أمينة مخبولة يتخبطها الشيطان من المس . فحبست فى دارها وأمسك عليها بابها ، الا أنها لم تكف عن قولها : « دعونى اطلقونى سأذهب بمفردى ، ألم تذهب فاطمة ؟ انى اذن لذاهبة ، انما هو واجبى . » ثم سكتت فجاءة وبرزت عيناها وامتد عنقها كالمصغية لتسمع ذلك الصوت الذى ينتهى اليها من عميق الأغوار وسحيق الأبعاد ، وكانت تهدأ وتسكن اذا ما اصغت ، أما اذا ماشرعت تتحدث فلا سبيل الى اسكاتها . وقال معلم القرية : « لا يمسها أحدكم ، انها أعقلنا جميعا ، ولقد وصلت الى مرتبة لن نصل اليها . » فتركت على حالها . ومضى على ذلك خمسة أيام أو ستة فغابت الفتاة عن الأنظار ، وذكرت أمها أنها قامت فى منتصف الليل والناس رقود ، فخطفت سيفا لأبيها كان معلقا بالحائط ثم

خرجت ، ولا يعلم ان كانت خرجت الى جبل أو واد . وطلبوها فلم يقفوا لها على أثر وأصبحت سرا من الأسرار .

وسكت محدثي واخرج سيجارة أخرى ، ونفث دخانها وهو حزين ثم جعل يقول : وذات صباح ، وجدها قروى يدعى جوبان محمد وهي مكبة على حافة النبع ، فحركها وأراد حملها ، الا أنه تحقق فعرف أنها ميتة ، وقد تمزق ثوبها من أعلاه الى أسفله وظهرت الجراح على جسمها ، وكأنما كانت عيناها تنظران وشفتاها تبسمان . وانطلق جوبان محمد الى القرية يخبر الناس بعجيب ما رأى . فتناهضوا يتعادون لمشاهدتها ، وقدم الطبيب ورجال القضاء من القصبة وقرروا أن تحت ثديها الأيسر أثرا لطعنة بمدية . أما أهل القرية ومنهم أبوها وأمها ومن جهزها ، فأنكروا رؤية شيء من هذا . ثم حملت ودفنت ، فكان النور يهبط على قبرها ثلاث ليال تباعا . واليوم يسميها أهل قريتها بالفتاة التي تستمع الصوت وقد نسوا حقيقة اسمها .

ويزور قبرها الغرباء وغير الغرباء من أهل القرى المجاورة وأكثر من يزورها شواب النساء والعذارى ، أما الخارجون للقتال فلا يفوتهم أن يمروا بها وينذروا لها ، رجاء أن يعودوا

سالمين موفورين . واليوم وقد مضى على قيام الحرب الأخيرة عامان ، أصبح من عادة النسـاء اللائى لهن فى الميـدان زوج أو خطب ، أن يعتلين الهضبة المقابلة لمدفنها عند الغروب ، فيقفن عليها وقد اتجهت وجوههن اليها ، ويرفعن الصوت بقولهن : « امن الشهداء أم من الغزاة ! » فتجيبهن الفتاة من بعيد الأغوار وسحيق الأبعاد ، قائلة لبعضهن شهيد ، ولبعضهن الآخر غاز !

وقلت لصاحبى :

ـــ لماذا لا يسألنها عن قرب ويناديها من بعد ؟

فقال ـــ لأنها لا تكلم من كان قريبا .

ـــ اذن فلنناديها نحن أيضا اذا ما اعتلينا الهضبة المقابلة .

ـــ ان كان لك فى ميدان القتال من يمت اليك بصلة القرابة والا فعبث ما تصنع .

وركبنا ، واجتزنا قرية الغرباء ، ولما صعدنا الهضبة ، لم أصبر أن أناديها ، بدافع من تجسس دنىء يفسد على نساء القرية المعصومات عقيدتهن ، فرفعت صوتى وقلت مرتين متتاليتين : (أيتها الفتاة التى تسمع الصوت ، أيتها الفتاة التى تسمع الصوت !)

فردد الصخر صوتى وأعاد الى ندائى .

شاعران ضحاكان

من نظر فى تاريخ أدب الفرس والترك ، وجد أسماء للشعراء مالها عدد ، ولا ريب أن لهؤلاء الشعراء حظوظا من الاجادة متفاوتة ، ودرجات بعضها فوق بعض ، فمحال أن ينزلهم القارىء من نفسه منزلة واحدة ، أو يخطرهم جميعا على باله ، والبين الواضح أنه لاينفك عن ذكر شاعر ان برز فى فن شعرى خاص ، أو تميز بصفات ليست عند غيره ، وان الاجادة وحدها لاتكون على الدوام سببا فى شهرة الشاعر وسيرورة شعره ، فأى عجب فى اشتهار شىء بحسنه كاشتهاره بقبحه ؟ ونريد هنا لنقول ان الخروج عن المألوف خروجا ما ، ومخالفة الغير أيا كانت ، مما يجذب انتباهنا إلى بعض الشعراء ويجعلهم منا على ذكر ، ونضرب مثلا شاعرين هما سوزنى الايرانى وكانى التركى ، فقد انفرد هذان

الشاعران يميل إلى الهزل والدعابة ، فكان شعرهما أو معظمه خفيفا على الأرواح ، حبيبا إلى النفوس ، وان لم يبلغ من الجودة والسمو ما بلغه شعر الفحول من شعراء الفرس والترك .

وسوزنى من أهل القرن السادس الهجرى ، وقد حيا حياة لهو وتبطل ، فتهالك على اللذات ، وطلبها أينما ثقفها ، ومضى فى غوايته مخلوع العذار ، لا يزعه وازع من دين ، ولا يهديه هادمن عقل ، فلم ير من دنياه إلا وجهها البسام ، ولم يعرف عنها إلا بهجتها وزهرتها ، مما أغراه بطلب المزيد من متعتها ، ففرح كثيرا وضحك طويلا لأنه لم يجد ما يبعث حزنا ويثير بكاء ، وكان يغشى سوامر الظرفاء ، فيشيع فيها المرح ويعلم الناس من نوادره وأضاحيكه ما يدور على كل لسان وتضحك له الثكالى . ويلوح أن الرجل كان ذا استعداد مزاجى خاص جعله يحس الفكاهة فى كل شىء ، فلا يعرف للوقار معنى ، ولا يلقى سمعا إلى من بذل له النصح وألحى عليه باللائمة ، وقد استنكر بعض الناس معايبه ونقائصه ، وهاج الهجاء بينه وبين شعراء من أهل زمانه ، ولا غرو فقد كان الهجاء وسيلة طيبة لسوزنى يظهر بها فكاهاته ، ويهزأ بالناس ما شاء الله أن يهزأ . وتمادى فى استهتاره حتى أصبح ذلك

منه قحة تعافها النفس ويمجها الذوق ، فلم يستح أن يقول فى شعر له : « نقد ركبت طريق الشيطان فترديت فى حبائله ، وأصبحت أخبث منه مكرا وأكثر شرا ، وما من يوم يمر على إلا قارفت فيه ذنوبا وارتكبت آثاما ، وبلغت بى الحال أن اعتبر الفضيلة رذيلة ، والخير شرا عظيما ، وكل جارحة لى مذنبة مفسدة ، فكأنها منبت طيب لخبيث الشرور ، وستشهد على جوارحى يوم القيامة فالويل لى ! »

ومن أسف أننا لم نقف له على هزليات مع شهرتها المستفيضة ، فمؤرخو الأدب الفارسى لايخصونه من عنايتهم إلا بقدر ضئيل ، ويرجع ذلك فى أغلب الظن إلى أنه لم يكن شاعرا كبيرا وأن الفحش كان ملء شعره ، ويقول أحد الأدباء ان هزلياته لاتخلو من جمال شعرى ، إلا أن اغفال ذكرها خير من ايراد نماذج لها ، كما يستميح غيره العذر عن طيها تورعا واستحياء .

ويقال انه ضاق بحياة المجون فى اخريات أيامه ، وهو بذلك لايخرج عما نعهده عند الماجنين أمثاله ، فلابد لليلة الأنس الطويلة من فجر شاحب لاغب ، وللذة العقار من ألم الخمار ، وكل غافل إلى انتباه ، ولسوف يقرع المسىء سنه يوما ما ويميز الخير من الشر

والهدى من الضلال . وندم سوزنى على مافات وتاب وحسنت توبته ، ثم التفت إلى ماضيه المعيب وذكره بقلب حزين ولسان شاك فقال : « ماهذه الدنيا إلا بلاء وشقاء ، لكأنى فيها حباب على كأس ، وسراب يلتمع على كدرة فيه ! » وفى كلامه هذا دلالة على أن بهجة الحياة لم تمس روحه فى الصميم والأعماق ، ولم ترو نفسا له مازالت ظمأى ، فهو يشكو زمانه ويسخط على سرابه الخادع الكذوب .

وتجمعت له حكمة وخبرة من حياة لهوه السالفة ، فيتحدث حديث عاقل تمرس بالأمور وأحاط علما بخفاياها ، ويعظ الناس ويدعوهم إلى الخير والفضيلة ، ويزجرهم عن الشر والرذيلة فيقول : « ليس كالمجانة والغواية معابة ومعرة ، فليهنك أن تعيش بلا عيب ولا عار ، ارفع الرأس تيها بفضائلك ، وكن من زمرة الفضلاء ، ولتكن مبرءاً من العيوب ، وبنجوة عن كل النقائص . »

وحج البيت وكفر عن سيئات عمر طويل ، ويقال ان الله غفر له ماتقدم من ذنبه وما تأخر لبيتين قالهما باسطا اكف الضراعة إلى ربه ، وملتمسا منه رحمته وغفرانه ، وهما : « انى

لأرجع اليك يارب وفى جعبتى ماليس فى خزائنك ! فلدى افتقارى وحاجتى وما اجترحته من خطاياى وسيئاتى ! »

* * *

أما كانى فهو عند الترك كسوزنى عند الفرس يتميز بفكاهته وشعره الهزلى ، وقد بدأ حياته درويشا مولويا بإحدى مدن الأناضول حيث عرف بالعلم والفضل ، واشتهر بالزهادة والورع ، وكان من صنع الله أن مر ببلدته على باشا الصدر الأعظم ، فتقدم إليه كانى بقصيدة جيدة يمدحه بها ، واستمع الباشا إلى المديح فاهتز له طربا ووقع من نفسه موقع الاعجاب ، فعرض على الشاعر أن يصحبه إلى استانبول ، ورحل كانى عن مدينته الصغيرة الهادئة ، إلى تلك المدينة العظيمة الصاخبة ، فبهرته الحضارة بروائها ، ورأى مالم يمر له بخيال وهو فى الأناضول يعيش عيش البسطاء منطلقا على سجيته من غير ما قيود يتقيد بها ، ولاحدود يلزمها ولا يتخطاها ، ورأى ثوبه الخشن وعمامته الصغيرة ، بين الثياب المزركشة والعمائم المكورة الكبيرة ، فحز ذلك فى نفسه ، واحس السخط على حياته الجديدة البراقة وأهلها المتكلفين المنافقين . وجعله الصدر الأعظم كاتبا من كتاب

الديوان ، وكان الشاعر ملولا بطبعه قليل الثبات على حال من الأحوال ، وأراد أن ينطلق من قيد وظيفته ، ووجد الفرصة المواتية يوم استعفى الصدر الأعظم من منصبه الكبير ، فاستعفى معه الكاتب من منصبه الصغير .

وزينت له نفسه أن يزايل استانبول إلى بلد آخر ، فشد رحاله إلى بوخارست وهناك أصبح كاتم السر التركى لمن يدعى الأمير اسكندر . ولم يدم كانى فى هذا المنصب ، وكأنما كان السكون محرما عليه بغيضا إليه ، فما سمع بأن يكن محمد باشا أصبح صدرا أعظم وأنه يدعوه إليه حتى انطلق راجعا إلى استانبول ، وكان كانى من أصفياء الصدر الأعظم وأهل أنسه منذ عهد بعيد ، فكلمه متبسطا معه ، وفاه بما أغضبه وهيج سخطه عليه ، حتى أمر بقتله ، ولم يعف عنه إلا بعد أن شفع له رئيس الكتاب ، فاستبدل بالقتل النفى إلى إحدى الجزر .

وأقلعت به السفينة إلى منفاه ، بعد أن صرعه لسانه ، فكان ضحية الهزل واساءة الأدب فى حضرة الوزراء والرؤساء ، وساءت حاله كثيرا فى جزيرته نخلت وفاضه ولم يجد معه من المال ما يبتاع به تبغا يدخنه ، وحرم من نارجيلته ، فكان اذا رأى

خرطومها الذى يشبه الأفعى ، تأذت نفسه وثار غضبه وتصور الخيال حقيقة فظن خرطوم النارجيلة حية تسعى ! ولا نعرف عن حياته أكثر من هذا لأن المؤرخين سكتوا عند هذا الحد بعد أن قالوا انه تاب عن حياة الهزل وعاد الى حياة الجد والزهد .

وكان الرجل مزّاحا جبل على المزاح حتى قيل انه أضحك عواده وهم ملتفون حول فراش موته بقوله : « لست متسولا اسأل الفاتحة ، فاذا مت فلا تكتبوا على قبرى انى أسأل الزائر أن يقرأ لى الفاتحة ، أسوة بغيرى من أصحاب القبور »

وكان يدخل الفكاهة على كل شىء يراه وكل عمل يصنعه بالغا ما بلغ من الجد والوقار ، حتى ان بعض الناس كانوا يكتبون أبياتا من الشعر ويذهبون بها إليه ليتمها قصيدة هزلية يضحك لها كل من سمعها ، ولم يكن شاعرا مجيدا ، فلم يعن بانتقاء الفاظه وترتيب معانيه ، فجاء الكثير منها مظلما مبهما ، كما أنه لم يتجاف عن عيوب القافية . يقول كانى واصفا بدر السماء :

« هو ذا البدر فى قبة السماء ، فكأن شحاذا يمد يده بالوعاء ، الا ان الفلك خسيس دنىء ، فهل يمد الدرويش يده بالسؤال ان كان له أباء وكبرياء ؟ »

وقد شبه البدر بشحاذ يمد وعاءه الفارغ الى أهل الجود والكرم ، فكأنه لم يستثن حتى الكواكب فى سماواتها من سخريته اللاذعة وتهكمه المر ، وقال فى نؤوم : (هذا النائم لا يستيقظ وان قرعت الطبول عند رأسه ، ياله من جهول لا يعلم أن عينه النائمة ستبكى دما على الكسل غدا ، أنت تنام كالحمار الكسلان مع أن نفسك نفس انسان ... اذهب الى الحقل ، تر الثور يرعى وهو واقف يقظان ! » وكان كاتبا جيد العبارة حسن الترسل ، والاجماع منعقد على أن نثره خير من شعره ، وقد أجاد كثيرا فى فن خاص هو فن كتابة الرسائل ، وله رسائل هزلية كثيرة تتجلى فيها روحه المرحة ، ومنها رسالة يهدى فيها السلام بقوله : « سلامى إلى كل من عندكم من دلال وحمال وبقال ، وفلاح وملاح ، ونمام وذمام ، ومفسد وملحد ، ورمال ونجام وحجام ، وسمسار وحمَّار ، وسؤالى عنكم جميعا ! » فهو يخلق الفكاهة خلقا ، ويتعمد الاضحاك تعمدا ، وإن ذلك لآية من آيات الفطنة ، ولا نجده عند سوزنى الذى انما كان يشعر بالفكاهة شعوراً كما يؤخذ من سيرته .

ومات كانى سنة ١٧٩٢ بعد أن عمر طويلا ، ولا يعرف قبره ، فكأن الزمان عمل بوصاته فلم يقف على قبره من يقرأ له الفاتحة !

حمّالة الحطب

من بنات الفرس لا من بنات العرب ، وكانت معدمة من أهل البؤسى لا مترفة من أهل اليسار والنعمة ، ولم تحرك لسانا ولا يدا باذاية الرسول صلوات الله عليه . ولكنها هوت بخنجرها على قلب مولاها ملك الملوك فانهار صريعا . ولئن نظرنا إلى حمالة الحطب العربية كمثال لامرأة السوء ، فهذه الفارسية هى الشيطان المريد فى صورة المرأة الحسناء ، وأنا لنذكر بظاهرها الجميل وباطنها القبيح حية بين زهر أو جيفة تحت قبر.

فيروى أن الشاه اسماعيل ميرزا الصفوى خرج يوما متصيدا أو متفرجا إلى ظاهر مدينة اصفهان فى رفقة من الاتباع والندماء ، وانطلقت المطايا بمن عليها تطوى المروج المخضوضرة ، وتتخذ لها سبيلا فى الخمائل ، فتعنف باغصان كانت متعانقة تتناجى بهمس النسيم ، وتبعث الجلبة بوقع حوافرها على الحصباء فى مكان

لا عهد له إلا بحفيف جناح أو عذب نواح ، حتى بلغ الركب ضفة نهر زندرود . وهناك طرقت مسامع الشاه نغمات حزينة تنبعث من حيث لا يعلم مأتاها ، فتوقف يستمع وطال منه التوقف ، ووجد لوقعها فى نفسه هزة طرب ونشوة حالمة ملكت عليه قلبه . وماسكت الصوت حتى أحس الرغبة فى استعادته وطلب المزيد منه ، كما قام فى نفسه أن يتساءل عن صاحبه ويتنسم أخباره ، فانفذ أحد ندمائه إلى مصدر الصوت ، وما سار النديم مسيرا بعيدا حتى رأى كوخا متضائلا غيره البلى ، لا يكاد يتماسك بين أصول شجرات السرو ، وقد انتثرت حوله كومات حطب تجلس على احداها فتاة كاحسن الناس شبابا وجمالا فى ثياب أخلاق ، وبين ذراعيها البضتين قيثارة تصلحها وتشد أوتارها . ولم تنب عين النديم عن الفتاة لهيئتها الزرية ومظاهر الشظف البادية عليها ، بعد أن شاهد لها جمال زهرة انبتها القطر بين الصخر فى واد سحيق . وسألها عن حالها فعرف أن اسمها (منور) وأنها تسكن هذا الكوخ مع أمها العجوز وتستقطر الرزق النزر اليسير من حطب تجمعه ، وتقضى عامة نهارها بين حطبها وغزلها حتى إذا ما أدركها بعض الليل نقلت

خطاها إلى المدينة فبلغتها بعد جهد ، وقصدت دار من يدعى مراد خان وهو موسيقى له حذق وشهرة ، فجلست إليه لتأخذ عنه كيف تضرب بالقيثارة ، ثم تعود ادراجها ، وتنقلب إلى أمها وهى فرحة مستبشرة بما تعلمت . واكتفى النديم بذلك من شأنها وتركها بعد أن ألقى عليها نظرة من يرأف بها ويعجب بجمالها .

وعاد إلى الشاه بحقيقة الخبر عنها ، وكان الشاه اسماعيل صاحب لهو وشراب وزير نساء ، فما وصفت له بالحسن حتى تحركت رغبته فيها . وحن حنينه اليها ، ومضى توا لرؤيتها رجاء أن يميز بين السماع والعيان ، فراقه منها جمال ساذج عاطل من كل زينة ، وأدركته الرقة عليه من فاقة قد تذبل نضرته ، كما تصوره أكثر اشراقا وآخذ بالعين والقلب ان تعهدته يد فى القصر بالتطرية ، والبسته شفوف الحرير ، وحلته من أساور وعقود ، وعرض على الفتاة أن يلحقها بحريمه فتنعم بالطيبات وتتبدل من حياة الكوخ بحياة القصور ، غير أن لسانها انعقد رغبة ورهبة ، واسكتها الصمت عن لا ونعم ، أما أمها فتكلمت كلاما لينا وشكت غربتها ووحدتها ، ان فارقتها من تؤنسها وتعولها .

وركب الشاه وقد خلفت الفتاة بين جوانحه ماخلفت ،

ومضت عليه الأيام لا ينساها ، فلم يستطع عن منور صبرا ، وكره أن يعلم الناس بما بينه وبين فتاة تحمل الحطب مع ما فى قصره من نساء فى طلعة الصبح ، فكان يخرج مستخفيا تحت جنح الليل ليلتقى بها وينعم بساعة وصل معها فى غفلة من العيون ، ناسيا أو متناسيا فى نشوة الحب مايفرق بين سوقة وملوك .

ورأت نساء القصر خروجا للشاه عن عادته بمغادرته القصر خفية كل ليلة ، وساقهن الفضول فذهبن مذاهب شتى فى تعليله وتكييفه ، وكأن غريزتهن النسوية كانت تملى عليهن أن أمرا يدبر ليصرف قلب الشاه عنهن ، فرصدن له من يتبعه ويأتى بخبره . وبرح الخفاء وفشا السر ، وساء ذلك زوجته الأولى وجرح كبرياءها ، كما علم اسماعيل ميرزا بافتضاح أمره ، وكان الظن به أن يطيب خاطر زوجته ويعتبها ، غير أنه احتدم غضبا ، ورغب عنها وقطع ما بينه وبينها وحمل إلى القصر منور ، واحلها محل زوجته البائن .

وذاقت منور من النعيم الوانا ، بعد أن كانت فى أحط الدركات ، فسمت إلى أعلى الدرجات . وازداد الشاه بها كلفا على المدى ، فكان يرغب إليها أن تنادمه على شرابه وتسمعه من

الحان قيثارتها ما يرق قلبه ويجرى على الخدين دمعه ، ذلك القلب الذى ماكان يرق حتى يرق الصخر . وذاك الدمع الذى ماسال يوم كريهة وبأس . فذل اسماعيل بعد عز ، كما عزت منور بعد ذل .

وعاش الزوجان المتحابان ردحا من الزمن فى صفاء لاتشوبه كدرة ، ووصال لاتقطعه فرقة ، ثم كان لطول الألفة ملالة ظاهرة ، وسرعان ماتولت السكرة وجاءت العبرة ، فأصبح الغرام المشبوب المدموع ذكرى ، ولليالى الكوخ قصة يتفكه بسردها ، أما التفريط فى جانب الزوجة الأولى فكان حسرة دائمة والما كمينا . وهاج الشر بين منور ونساء القصر فنظرن اليها نظرتهن الى متهجم عليهن ليستأثر بالمنزلة دونهن فكدن لها كيدا ، أما هى فبادلتهن كراهية بأشد منها ، ومما أثار أحقادها ، شعورها بضعة حسبها وهوان شأنها فى الأمس القريب ، وعلمها بأنهن جميعا يستحقرن حمالة الحطب وان أصبحت ملكة على ايران ، فكادت تنشق كمدا وغيظا ، وجعل السخط يأكل قلبها ، فسخطت على الناس طرا كأنهم يطلبونها بثأر ، وكرهت حتى الحظ السعيد الذى رفعها من كوخها إلى أبراج قصرها ، وامتلأت نفسها شرا وخبثا ،

وفسدت طويتها ولم تخلص لشيء نيتها . وذكرت ماضيها ، ودعت لأيامه بالسقيا على ما كان فيها من جهد الفاقة ومرارة الحرمان ، واثار حفيظتها أن يسلو زوجها الشاه عنها بعض السلو وهو من كان يحبها حبا جما ، فلم تتحبب اليه ونشزت منه ، وجر ذلك حتما إلى وقوع الوحشة والجفوة بينهما .

وحدثتها النفس بالفرار من القصر ، غير أنها رأت ذلك أمرا دونه صعاب وأهوال ، واستيأست من العيش ، فخطر لها أن تأكل السم ، وفكرت مليا ، إلا انها ضنت بنفسها أن تكون ضحية من يمقتها ويشمت بها ، ثم زين لها الشيطان أن تثأر بيدها ، فتريق دماء من أراق دموعها ، واتصفت بجور المظلوم إذا اظفره الله بمن كان له من الظالمين ، فقر عزمها على قتل الشاه اسماعيل ، ولم تهب الأقدام على مثل هذا الأمر العظيم ، فتحينت الفرصة ، وأعملت الدهاء والحيلة ، واتفق للشاه اسماعيل ان كان حزينا ذات يوم لأمر نقمه من بعض الامراء حتى أمر بتضريب أعناقهم ، فخرج إلى حديقة القصر يذرع طرقاتها بين الأشجار جيئة وذهوبا وهو كظيم لا يدرى شيئا مما حوله ، واظله الليل وهو يسير واجما شارد الفؤاد ، ولاح القمر فى الأفق وغمر

الحديقة نورا ، وحانت من الشاه نظرة إلى كوة من كوى القصر فرأى خلفها وجه امرأة تديم اليه النظر ، وتحقق مما رأى فعرف منور بعينيها النجلاوين وشعرها المصفف ، ولثامها الرقيق ، وناداها فهبطت إليه ، وشكا إليها مايحزنه ملتمسا منها أن تنفس عنه كربته ، وكان الرجل سليم الطوية فيما يقول ، ولم يدر يوما بباله ان تبيت منور له الغدر أو تقصده بالسوء ، فهو من اسبغ عليها من فضله وكرمه وحبه ، واستوجب حفظها لجميله وشكرها لنعمته .

ورأت منور فرصة مواتية ، يعز عليها أن تفلت من بين يديها ، فاقترحت عليه أن تساقيه كأسا تجلو عنه همه ، وتسمعه لحنا يميل اعطافه طربا ، وأخذا سمتهما إلى مجلس الشراب ، وجلست منور مجلس النديم إلا أنها كانت بادية الحيرة مختلجة الأعضاء ، فلم تصب من كأسها إلا كحسوة الطير ، أما اناملها فمست الأوتار مسا رفيقا تارة وعنيفا تارة أخرى ، وكان اضطراب الحانها كاضطراب نفسها ، وشرب اسماعيل ميرزا فصرعته سـورة الصهباء ، وماشاهدت منور ذلك منه حتى استلت من طيات ثوبها خنجرا فضيا رشقت به قلبا ياطالما احبها وخفق لها . وجمدت فى مجلسها

تتملى حمرة الدماء وهى تتفجر من صدر ملك الملوك . ولما مضى الليل إلا اقله ، قامت فى خفية وآوت إلى مضجعها .

وتبين حراس القصر أن الشاه اسماعيل لم يغادر مجلسه فى موعد جرت عادته بأن يغادره فيه ، فأوجسوا خيفة ورابهم الأمر ، ودخلوا عليه مستطاعين فوجدوه قتيلا ، وكان ذلك فى عام ١٥٧٦ ، ونمى الخبر إلى أهل القصر وأهل البلاد ، فعم الأسى وتضاربت الأقوال فى مقتله من غير أن يعلم قاتله ، ورفعت نساء القصر صوتهن بالواعية عليه ، وكانت منور أكثرهن نواحا ، وأشدهن حزنا وأغزرهن دمعا !

قيل وكانت احدى الجوارى قد أبصرتها مع الشاه فى الحديقة ليلة مقتله ، إلا أنها طوت ذلك ولم تذكره مخافة أن ينالها من بأسها ما نال مولاها ، فتصنع بها ما تصنع النار بالحطب .

وذهب دم القتيل العظيم جبارا ، فقوبل أجمل احسان بأقبح اساءة ، وتلك شيمة لخضراء الدمن .

عصر الزهر

هى ذى استانبول القرن الثامن عشر ، وقد استوفت كل روعة وجلال على عهد احمد الثالث ، ذلك السلطان الهادىء النفس اللين العريكة ، الذى كان محبا للوئام والسلام ، كارها للعنف والخصام ، فتأثم من أن يسوق رعيته إلى حيث تكتب له بالدماء صحيفة مجد ، وآثر أن تسعد أيامه وأيامها ببال رخى ، وهناءة لايرنق صفوها شؤم الحرب وسوء مغبتها ، وصرف همته فى حياته الآمنة المستقرة إلى بنيان يرفعه ، وعلم يناصر أهله ، وصاحب حاجة يغدق عليه من نعمه السوابغ ، فعم الخصب والرخاء ودار بالسعد الفلك .

وكان أحمد الثالث مشغوفا بالترف والبذخ ، شديد الحرص على أن ينال أوفى نصيب من لذاذة النعيم وطيبات الدنيا ، فبذل المال الجزيل فى سبيل متعته ، ودعا الوزراء والعظماء إلى مآدبه ،

كما كان من تواضعه أن يقبل الدعوة إلى مآدبهم ، وابتنى قصرا بمكان يقال له سعد اباد لينعم فيه بطيب أنسام البحر صيفا ، وبسط المتنزهات حوله فأمها الناس مستروحين متفرجين ، وكان مرهف الشعور بالجمال ، يتبعه أينما كان ، ويتملاه فى الوجوه الصباح ، والألحان الشجية ، والأشعار الرائقة ، وكأنما أحب أهل استانبول أن يؤيدوا قول من قال ان الناس على دين ملوكهم ، فاستنوا بسنته فى طلب البهجة والتهالك على نشوة اللذات وتبارى أهل الميسرة منهم فى لبس الناعم وأكل الطيب وركوب الفاره ، وعمرت مجالس الأنس وطاب فيها السماع على الشراب ، حتى أصبحت استانبول عروس المدائن وزينة الدنيا بالقباب العالية والرياض الباسمة والنعيم الذى يكاد ينطق فى جنباتها ، وصدق عليها قول بعض شعراء هذا العصر فى وصفها : « تلك هى استانبول التى لم يخلق مثلها فى البلاد حسنا وطيبا ، وان الحجر فيها ليفديه ملك العجم بما وسع ! يالها جوهرة نفيسة بين بحرين واذا ماشئت لها وزنا فلن يعادلها فى الميزان إلا شمس الضحى ، كل أرض خضراء فيها روضة ذات بهجة ، وكل ركن من أركانها مجلس انس وصفاء ، واظلم الظلم أن تؤثر عليها الدنيا بأسرها ،

ولست موفقا إذا ماشبهت رياضها برياض الجنان . »

وكان على رأس هؤلاء المترفين ، ابراهيم باشا الصدر الأعظم ختن السلطان ، ومصطفى باشا القبطان ، فقد كانت لهما حاشية من الشعراء وأهل الأدب ، يقبلون بالمدائح ليعودوا بسنى الصلات وان الحديث ليطول فى ذكر ماكان من سرفهما وكرمهما . أما النساء فابتكرن من الأزياء مارق نسجا وطاب لونا ، فجررن الذيول ومسن فى الشفوف وكلفن بعولتهن مالا يطيقون من نفقة ، وقد استلزم اسراف السلطان والعظماء أن يضطر الصدر الأعظم إلى فرض جديد من الضرائب ، فأرهق ذلك الفقراء واحزنهم ، وإن كان أبهج الأغنياء وأسعدهم ، واتخذ أهل الضياع أتباعا من يهود وكلوا اليهم أمر ضياعهم ، وتدبير أموالهم ، فظهر لليهود فى هذا الزمان شأن ومقدرة ، وانتشر صيتهم ككاتبين وحاسبين ومتجرين . وقد سجل رسام فرنسى مظاهر النعمة فى هذا العصر ، فرسم نحوا من مائة وثلاثين صورة للسلطان فى قصوره والوزراء فى مجالسهم والأثرياء فى ولائمهم ، فما نطقت إلا بالحق ريشته . ويلحظ أن الترك أخذوا بشىء من حضارة الغرب فقلدوا الفرنسيين فى محافلهم وتأثروا اخطاءهم فى المعروف من عاداتهم .

غير أن اظهر ماتميز به المترفون فى هذا العصر ، هو اعجابهم بضرب من الزنبق يسمونه « لاله » فافتنوا فى غرس شجيراته ، وولد أهل الخبرة بزراعته الف نوع منه ، وتأنقوا فى تسمية زهراته على اختلاف شكولها والوانها . فمنها ما كان يسمى تاج القيصر ، ومنها ماعرف باللؤلؤ الازرق ، كما قيل لبعضها حمراء الخد والكأس الذهبية . وتباهى الوجهاء باقتناء المختلف من أنواع هذا الزهر والعجيب من الوانه وكاثر بعضهم بعضا ، وجعلوا له حدائق خاصة بغرسه ، وراجت تجارته رواجا لا يعهد فى شيء سواه ، وغالى التجار أعظم المغالاة فى رفع ثمن النادر من أنواعه ، حتى تدارك الأمر ابراهيم باشا الصدر الأعظم الذى كان فى طليعة هواة زهر اللاله ، وحدد للتجار اسعارا لا يتجاوزونها ، وجعل عليهم رقيبا يقال له الشيخ محمد لاله زارى ، واباح له أن يستصدر الأمر بنفى التاجر ان استزاد . وأصبحت المدينة روضة فيحاء لهذا الزهر ، فكانت تصفف اصصه على النوافذ ، وترف الوانه فى مغارسه على جانب الطريق ، وما كان يحل موسمه حتى يركب الناس البحر زرافات زرافات لمشاهدته بحدائق السلطان فى سعد اباد فيمرحون ويقصفون ، وهناك تتم فرحتهم

بمشاهدة الجياد وهى تستبق فى حلباتها ، والرماة وهم يرمون بالنشاب ، كما كانوا يضحكون للدببة الراقصة والكلاب المتهارشة .

وقد عرف عصر السلطان احمد ـ أو صدر منه ـ فى التاريخ التركى بعصر زهر اللاله ، لأن هذا الزهر كان أكثر ما يشغل الناس ويملك عليهم اعجابهم . وان الزهر لخير رمز لهذا العصر الملىء بالمفاتن والمحاسن .

وفى عام ١٧٣٠ شق الانكشارية عصا الطاعة ورفعوا راية العصيان فاقتحموا على مصطفى باشا القبطان حديقته التى كان يشاهد ازهارها ، فخنقوه مع الصدر الأعظم ابراهيم باشا ، وقسروا احمد الثالث على التنازل عن عرشه بعد أن ملك سبعا وعشرين سنة .

ولئن سبق الذبول إلى عصر الزهر قبل الأوان ، لقد نقشت ذكراه على صفحات القلوب ، وجرى ذكره على كل لسان ، وكتب له الخلود بفضل الشاعر التركى أحمد نديم الذى خلده فى شعر يعتز به الترك ويعتبرونه من روائع أدبهم القديم . وكان هذا الشاعر فى أول امره من هيئة العلماء ، واشتغل بالقضاء فقضى بين الناس بالعدل . ثم عرف ابراهيم باشا فضله ومنزلته ، فاصطفاه

خازنا لكتبه ، وأدنى مجلسه لظرفه وأدبه وطلاوة حديثه ، ويبدو أنه لم يدم على صفات أهل للتقوى والكف عن المحارم ، فنادم الصدر الأعظم ، وان هذا التحول فى سيرته ليفسر لنا مانرى فى شعره من جرأة عجيبة وصراحة سافرة . فقد كان يطرق من المعانى مايتعفف عنه الشعراء فى زمانه . ويذكر الحقائق عارية ما ان يواريها ، وفى هذا مايرضى الفن والتاريخ ، وان كان لايرضى المتحفظين والمتورعين ، ولذلك عرف نديم بأنه أصدق شعراء الترك لهجة ، وابعدهم عن التعسف والتكلف ، حتى قيل ان شعره يبدو غريبا عن زمانه المتقدم ، ويصلح أن يكون لشاعر متأخر ، فهو يخلو من النزعة الصوفية وهذا خروج عن المألوف فى شعر العصر ، ولا أثر فيه لتحديد المعانى ، فنديم يقول فى كل معنى يطيب له أن يقول فيه ، وحديثه عما يقع تحت حسه أكثر من حديثه عما يجول فى خياله ، فهو واقعى بكل ماتتسع له الكلمة من معنى ، وبذلك صور بيئته فاحسن تصويرها .

ومن قوله فى تعبير ساذج عما يكابد من لوعة الأشواق :

« عودى إلى نجدد عهدنا الخالى ! تعالى ، ان لى من حاجبيك

هلال عيد . فلنقض معا يوم عيد . ولأجعل منك شمسا للضحى بكأس من عقار . تعالى ، ان لى من حاجبيك هلال عيد فلنقض معا يوم عيد . أما كفى ما قد جرى ، لقد أبكيت قلبا مستهاما مدنفا ، ومن خيالك أشكو زفراتى وحرقاتى ، اسعدينى يوما بأن تراك عينى ، تعالى ، أن لى من حاجبيك هلال عيد ، فلنقض معا يوم عيد . »

فالرقة والعذوبة طابع لهذا الشعر الذى لا يصدر إلا عن نفس مشرقة ولا ينعكس إلا عن طبع أصيل . وقال نديم من أغنية له يدعو صاحبته إلى أن تزور معه سعد اباد ، فذكر الأماكن والطريق اليها ، فى اطار بهيج يشهد له بأنه شاعر الفرح والمرح ، والمصور الفنان الذى يوزع الألوان بحذق ودراية على صورته الجميلة ، لتكون أقرب شىء إلى الطبيعة : « تعالى ، وليفرح هذا القلب الذى ماعرف الفرح ، تعالى ، ياسروة تهادى ، سيرى معى إلى سعد اباد ، فهاهى ذى القوارب بمجاذيفها الكثيرة على أهبة حملنا ، لنضحك ونمرح ، ولننل نصيبنا من هذه الدنيا ، لنشرب ماء تسنيم من عين تفجرت لنا ، ولنشاهد ماء الحياة يمجه التنين . تعالى ياسروة تهادى ، سيرى معى إلى سعد اباد . وإذا

ماوصلنا إلى حافة الحوض سرنا الهوينى ، وإذا ماقر بنا من قصر الجنان رفعنا اليه البصر بالاعجاب والعجب ، لنتغنى بأغنية من الأغانى ، أو نترنم بشعر فى الغزل ، تعالى ياسروة تتهادى ، سيرى معى إلى سعد اباد ، استأذنى أمك فى الخروج ، وقولى انك خارجة لأداء صلاة الجمعة ! وسننتهز غفلة الدهر عنا ياحبيبتى ، وانه دهر خؤون . سنمضى فى طريق أظلها السكون ، لن يكون معنا ثالث فطيبى نفسا وقرى عينا ، تعالى ياسروة تتهادى ، سيرى معى إلى سعد اباد . »

فهل بعد هذا دقة فى التصوير ، وصدق فى العاطفة ، لقد وصف نديم سعد اباد فلم يستثن منها نافورتها التى لها هيئة التنين ولا مياهها الجارية فى أحواضها ، وذكر ركوب البحر اليها لرؤية قصورها والسير فى رياضها . فكان حقا شاعرا ومصورا وراوية حديثه الصدق .

ولنديم شعر يحب فيه الدنيا حبا شديدا ويتهالك على لذاتها تهالكا عجيبا فيقول : « بنا إلى البستان يافتنة الخريف وسروة المروج ، فالوقت وقت بهجتنا ونزهتنا . هو ذا البلبل يناديك فإن له من ثغرك وردة يهواها ، بنا إلى البستان . ما أطيب أن

ننسى لحظات عابرات نسعد فيها قبل أن يأتى الشتاء ، فتذبل البساتين . ولتكن كأس الصهباء فى يدك عوضا من زنبقة حمراء ما أشبه هذه الدنيا بجنة المأوى ، فما أكثر الثمار التى تقدم الينا ! أتحرمينى ثمرات حسنك الفتان ، وتضنين حتى بقبلة لاتراها العيون ! تعالى ياحبتى يافتنة الخريف .)

ولما قتل الصدر الأعظم ، كبس الانكشارية دار نديمه وشاعره ، وشددوا الحصار ، فانطلق هاربا وأراد أن يثب من سطح داره إلى سطح الدار المجاورة فسقط قتيلا بين الدارين ، فكان بيده لا بيد عمرو ، وكف البلبل عن تغريده بعد أن ذهب الربيع وذبل الزهر .

لاله فى الفارسية هو اسم الزهرة المعروفة بـ Tulip فى الانجليزية

روح حيرى

«القوا أسماعكم ! لقد نفخ الروس فى الصور ، والقوا بالكم ! فان للطبول دويا يصم الأسماع ، وارفعوا الصوت بالنواح والعويل ، فقد رفع المتحاربون الصوت بالتكبير والتهليل ، ولتتحطم هذه التميود ، فان الموت يأتى الأسود ، هاهو ذا جيش لو رأيتموه ورأيتم النجوم ، لتحيرتم ، أإليه تنسبون الكثرة ام اليها . ياأسدا كالحمار او ياحمارا له هيئة الأسود ، ان الدب لايعلم أيهما أفضل فى الظفر معه بنصيب الأسد الحمار أم الأسد ! هيهات هيهات ، لن تتحقق الوعود الكاذبة ، انما نحن مسوقون الى ابواب الجحيم . انا من نصحت لكم ، فلم تستمعوا من نصحى ، انا من وعظتكم فهزأتم بى وجعلتم كلماتى دبر آذانكم . لقد بدا الدب من وراء الجبل ، ورآه حبيبى فحن حنينه وذاب شوقا اليه . ثم مضى ليلقى بنفسه بين ذراعيه ، فكان اللقاء لقاء

حبيبين ، ويلاه لقد اصبح الشرق من نصيب الدب ، والغرب من نصيب الأسد ! »

هذا بعض من قصيدة للشاعر الإيرانى محمد الباقر ، وقد نظمها عام ١٨٨٢ اثناء مقامه ببلاد الانجليز فسماها (الشميسة اللندنية) ، وهى طويلة مفرطة الطول ، يتجاوز عدد ابياتها الثلاثمائة والستين ، واذا ماقطعنا النظر عن قيمتها الفنية ، ألفيناها وثيقة تاريخية على جانب من الأهمية ، فقد صور صاحبها حال إيران فى عهد الشاه ناصر الدين . وبين كيف تسلط الأجانب عليها تسلطا تتأذى به نفس الحر ، ولا يرتضيه من عمر قلبه بحب وطنه .

وفى هذه القصيدة سخرية لاذعة وتهكم مرير ، ثم هجاء لمن يستحق الهجاء . واذا اتصفت ببعض الجودة ، فقد كانت من صاحبها بيضة الديك كما يقولون ، وما ذاك إلا لأن محمدا الباقر لم يكن شاعرا مجيدا ولا معدودا من اولئك الشعراء الذين يصدرون عن طبع مداد ويستوحون ملكة ملهمة ، غير ان مايلفتنا اليه ويبعثنا على التحدث عنه ، هو شخصية غريبة وعقيدة حيرى ، وغرام فيه الأعاجيب ، واحوال تقلبت به فجعلت من

حياته اشبه شيء بحديث عبقر ، او قصة من نسج الخيال .

فقد كان محمد الباقر فى اول امره طالب علم يداوم النظر فى مسائل الدين . ويردد الفكر فى الملل والنحل ، فيعرف باستقامة المنطق وثبات العقيدة والوقوف عند الحدود ، ويجعل على نفسه ان يأخذ المعنى من ظاهر اللفظ ، فيحرم تأويل آيات الذكر الحكيم كراهة ان يجور به ذلك عن قصد المحجة فيضل مع الضالين . وشاء الله ان يجمعه بالسيد جمال الدين الأفغانى ، فتكون بينهما الفة وصحبة ، واتفاق على جمع المسلمين ولم شعثهم فيما يسمى باتحاد الاسلام ، واصبح لمحمد الباقر شأن وعلو منزلة ، فبصّر الناس بأمور دينهم ، وتصدى لوعظهم وارشادهم ، وتنقل فى ايران من بلد الى بلد ، ترمقه العيون وتهوى اليه الأفئدة . واتفق ان كان فى احد المساجد مع السيد جمال الدين الأفغانى فصعد المنبر بعد الفراغ من الصلاة وقال : « ايها الناس ، ان كنتم فى ريب مما اقول ، فانا اقسم بجد السيد جمال الدين على انى امامكم الغائب ، ولكم على ان اظهر الكرامات وآتيكم بالمعجزات لتطمئن قلوبكم ! » .

وما سمع الناس ذلك منه حتى علت صيحتهم باشد الغضب ،

فاضطرب بعضهم فى بعض ، وقاموا لينكسوه عن المنبر ، ويقتلوه شر قتلة على ما كان فى رأيهم كفرا والحادا . ولم يصدهم عن غايتهم الا السيد جمال الدين الذى حال بينهم وبينه ، وطلب ان يخلوا سبيله ويكلوا اليه أمر قتله ، متظاهرا بأنه سيقتله من غده بظاهر المدينة . فتمت الحيلة ونجا محمد الباقر من فتكة الغاضبين عليه .

وعرف انه جاء شيئا فريا . فلم يأمن على نفسه ، واضطرب فى مناكب الأرض ، واستقرت به النوى فى انجلترا . وهناك اشتغل بتدريس الفارسية ، وكان مدعاة لفخره أن يتخرج عليه المستشرق الكبير ادوارد براون ، وعرف فتاة من بنات الانجليز ، كانت بارعة الحسن فشغفته حبا ، وكان للحب سلطانه وغايته التى لا ينفك عن السعى اليها ، ألا وهى الزواج ، فتم الاتفاق عليه ، ولكن بشرط يخرج عن مجرى العادة ولا يخطر بالبال ، فقد ارادت به صاحبته الانجليزية ان يرتد عن دينه . ويستبدل باسمه الايرانى اسما انجليزيا . ويلوح ان ما وقع لمحمد الباقر فى ايران من امر كاد يهلكه ، قد هون عليه ان يأتمر بأمر فتاته . فارتد عن الاسلام واعتنق المسيحية ، واصبح جون بعد

ان كان محمدا . غير انه ظل على عادته من تقليب الرأى فى العقائد . وتصويب بعضها وتفنيد بعضها الآخر ، والتقى بعالم من علماء الأديان يقال له تيلور ، فاحتدم الجدال بينهما ، وتمسك كل منهما بوجهة نظره ، حتى انتهى الأمر بالمهاترة ، واغضب زوجته ان يرى مالا ترى ، ويجهر بما تتأذى له نفوس المؤمنين من اهل دينها ، فطلبت الفراق . وساءه ذلك منها فحزن واستيأس . ثم هجرها كما هاجر عن بلادها الى فرنسا . وفى باريس ساءت حاله واجهدته الفاقة وطلب عملا يدر عليه رزقا ، فاشتغل بالترجمة فى جريدة « العروة الوثقى » . تلك الجريدة التى كان يصدرها السيد جمال الدين الأفغانى فى اوربا لرفع لواء الاسلام ، والمطالبة بحقوق الشرق الناهض ، وجدد صداقته للسيد ذاكرا بالخير أيامه فى ايران ، وشاكرا له ذلك الجميل الذى طوق به عنقه يوم استنقذه من الهلاك المبير بحضور البديهة ولماح الذكاء .

وسرعان ما اندملت جراح قلبه ، وعاود الربيع روضة أمله ، فاشتاق حبيبا يؤنسه ، وزوجة يسكن إليها ، ووجد ضالته ، نخفق فؤاده لفتاة فرنسية تزوجها ، وكانت بديعة

الحسن مرهفة الشعور بالجمال ، كريمة النفس ، تعرف لزوجها حق طاعتها له ، فنسقت داره ، وزادت الحياة اليه طيبا ، إلا أن الزمان لم يغفلته من كيده ، فعكر صفوه ، وجعل النعيم شقوة وبلاء ، واعتلت الزوجة الحبيبة وقال الطبيب انها ذات الصدر ، فلا أمل فى الشفاء إلا بالرحيل إلى لبنان ، ورحل الرفيقان إلى البلد النازح إلا أن أيام العليلة لم تطل فمضت ، وخلفته وحيدا مستوحشا فى أرض ظن أن طيب هوائها يشفيها ، فكان قبرها فيها ، وجزع الرجل جزعا شديدا وكره الحياة بعد أن فارقها من كان يحببها اليه ، وعول على التخلص من عيشه النكد وحزنه الممض ، ولم يجد الوسيلة إلى ذلك إلا بالانتحار ، وصح منه العزم فهيأ قارورة تحتوى على سم ساعة ، وخرج إلى طرف بعيد من أطراف المدينة ، وكان الوقت وقت الغروب ، فوقف واستند إلى جدار وهم بوضع القارورة على فمه ، إلا أنه تلبث قليلا ، وجعل يرنو إلى الشمس الغاربة ، وكأنما أراد أن يتزود من جمالها بآخر نظرة له فى هذه الدنيا ، أو أن غروبها أوحى إليه بمعنى الموت فردده فى نفسه ، ثم أخضلت عيناه وتحركت شفتاه بقوله :

« اللهم انى أحسو هذا الشراب المميت لا لحق بها ، وان كنت

مذنبا فاغتفر منى ذنوبى ، لا طاقة لى بفراقها وهجرانها ! »

وبينما هو يهمس بهذه الكلمات إذا هرة تقفز من أعلى الجدار ، وتمس يده فى هويها ، فتسقط القارورة منها ، وتنتثر كسارتها على الأرض ، فشده لذلك محمد الباقر ، واحزنه أن يرغب فى النجاة من أرزاء دهره ، فيأبى عليه إلا أن يذيقه المزيد من الم وعذاب. وهم بالعودة إلى داره فاستوقفته فتاة عربية كانت واقفة على سره ، وناظرة من بعيد إلى ما حدث . فما رأت تلك الصدفة العجيبة حتى سرت لها أعظم السرور ، فسألته عن خبره واحسنت عزاءه . ثم تم التعارف بينهما ، فواسته واسعدته ، وانسته مالم يخطر بباله أنه سوف ينساه ، إلا انها ذكرته بزوجته الانجليزية التى شرطت عليه أن يعتنق المسيحية ، لأن العربية رغبت إليه أن يعتنق دينها ، فرق قلبه لدينه الذى ولد عليه واسلم وحسن اسلامه .

ومضى على هذه الزيجة نصف عام ، وشعر محمد الباقر أنه يحيا حياة آمنة مستقرة . فلم يعد غريبا عن بلد ولا أهل ولا دين ، وخالجه الشوق إلى أن يعود إلى إيران لرؤية الوطن والعشيرة بعد أن شرد فى الأرض واعتورته الخطوب . ورجع

إلى بلاده ، إلا أنه لم ينعم فيها بأوبة الغريب وفرحة المشتاق . فقد قتل بطهران عام ١٣١٠ هجرية .

وسكنت هذه النفس الحيرى ، التى كتب عليها الا تثبت على عقيدة واحدة ، ولا تنعم بغرام واحد ، ولم تعرف الهدوء ولا القرار ، فلما سكنت بعض السكون كانت كالموجة موتها فى سكونها .

ان كان للآداب سمات عامة تلوح عليها ، فللأدب التركى من كثرة الشواعر سمة تميزه ، وان اعتز قوم بالنساء فيهم اذا سمت مداركهن ورقيت ثقافتهن ، على أنهن عنوان نهضة ومعيار تقدم، فللترك أن يعتزوا من بناتهم بمن اتسعن فى العلوم ، والهمن عبقرية الشعر ، فاخرجن الكلام أحسن مخرج ، وكن فى دولة الأدب ملكات لهن جمال وجلال .

وانا نخص هنا بالنظر شاعرتين هما فطنت هانم وليلى هانم ، فكلتاهما من بليغات النساء ، ولها فى الشعر منزلة أى منزلة ، والأولى أشعر تركية فى عصرها ، أما الثانية فتتلوها فى مرتبتها ، وقد وصلت بينهما حياتان متشابهتان ، ونزعتان لا تختلفان .

ونشأت فطنت هانم فى بيت علم وفضل ورفعة ، فكان أبوها

محمد اسعد افندى شيخا للاسلام على عهد للسلطان محمود الأول، كما تبوأ اخوها هذا المنصب العظيم على عهد عبد الحميد الأول ، وعرف الشيخان بالميل إلى الأدب والطرب للشعر ، ووجدت الفتاة قدوة حسنة فتأدبت وأخذت من كل فن بطرف ، ولما اكتمل شبابها ، زوجها أبوها من يقال له درويش افندى ، وكا رجلا خامل الذكر ساقط الهمة ، لا عقل له ولا لسان ، فأساء عشرتها ونغص عليها عيشها ، وصدق عليهما قول الشاعر الفارسى : « مامن رجل إلا وبه حرّ شوق إلى من يسكن إليها وينعم بصحبتها . غير أن الوفاق بيننا أمر دونه شيب الغراب فما حدثتها عن السماء يوما إلا حدثتنى عن الأرض ! » وشرط صحة هذا الكلام هنا ، أن يكون على لسان الزوجة لا على لسان زوجها . ففطنت من هى رقة حاشية ووزانة عقل ، أما درويش افندى فهو ذلك الشيخ الأغم القفا الراكد النسيم ، فكيف يجتمع الضدان وانى يتفق الزوجان ؟

وقد عرفت فطنت بنزعتها الى الدعابة والفكاهة ، ويبدو ذلك غريبا ممن تغص بالأسى من زوج سوء أنكد ، فلنا أن نرده الى مايعرف عند علماء النفس بالتنفيس ، كما يتكلف الغاضب

أن يضحك ، أو بالتعويض كأن يلتمس المحزون لنفسه مسلاة وملهاة ، وليس بمستبعد أن تمتلىء نفسها تيها بشاعريتها واتيانها بما يقصر عنه باع الرجال ، فتشعر بحقارة الغير أمام عظمتها ، وتهزأ بهم وتستحقرهم . ومصداق ذلك قصة وقعت لها مع شاعر يقال له حشمت ، فقد اتفق أن خرجت يوم عيد الأضحى لشراء أضحية ، ورأت الناس مجتمعين أمام جامع بايزيد عند قطيع يشاهدون كباشه للشراء منها ، فوقفت مع الواقفين وكانت وقفتها إلى جانب حشمت ، فالتفت اليها وسألها عما جاء بها ، فقالت انها انما جاءت لشراء أضحية ، وأحب أن يمزح متأدبا فقال لها : لأقدم نفسى قربانا » وما كان منها إلا أن أجابته بقولها : « انت معيب القرن ، ولا تحل أضحية هذه صفتها ! » . ولها معه خبر آخر نجتزىء باجماله عن تفصيله ، فقد قيل ان حشمت كان مارا بدارها ولما أبصرت به ، أمرت جارية لها فأطلت من النافذة وجعلت تسخر منه وتشبهه تشبيها مضحكا بطائر غريب ، لأنه كان خفيف اللحية والشارب ، فبادلها سخرية بسخرية ، وأبلغت سيدتها ماقال ، فردتها إلى النافذة بكلام قبيح كما عادت اليها الجارية من الشاعر بكلام أقبح ، وان حمل على كونه أفكوهة وأملوحة .

والرأى منعقد على أن شعرها متصف بصدق العاطفة وصراحة التعبير عنها من غير ما تعمل ولا احتشام ، وهذا لا يشاهد عند شعراء عصرها إلا فى الندرة ، وينطوى ديوانها على غزليات أنيقة تؤلف قسما منه ، ويضم قسمه الثانى شعرها فى المدائح النبوية ، والمناسبات العامة كأعياد جلوس السلطان ، وأعياد ميلاد الأمراء ، ومن قولها فى الغزل : « إذا بسم الحبيب ، فللحياء حمرة فى خدود الورود ، وإذا انثنت غدائره ، ثنت الأزهار رءوسها غيرة منها وحسدا لها . لى من فؤادى أضعف الطيور ، ولك من عينيك نظرة الصقور ، فالفؤاد صيدك ، وان كان عنقاء تكبر أن تصاد . ان كان ثغرك كما لم يتفتح ، فليهنك ان الندى دمعى ، وهل تتفتح الأكمام إلا لتساقط الانداء ؟ إن كنت تأملين أن تموتى غراما يافطنت ، فكونى قبل الذهاب ، ثرى عند أبواب الأحباب ! » ولها عاطفة دينية مشبوبة تتجلى فى مديحها للنبي صلوات الله عليه ، وهذا المديح منها جرى على عادة الشعراء وإن فاتنا منه معنى جديد ، لم يفتنا حسن الاداء والابانة عن القصد . وهذه أبيات فى عدة مواضع من إحدى مدائحها :

« ما كان خلق العالمين إلا من أجلك ، وكل شيء فى الوجود

باسمك . ياحبيب الله ، لك حسن يبهر عين الشمس والقمر ، يامبدأ العالم وسبب وجوده . ياصاحب الخلق الكريم الطاهر لولاك ما كانت الجنات ، وما دخلناها لولا البر منك والكرم . ياصاحب المعراج وفخر النبيين ، الناس وقوف ببابك من سوقة وملوك ، وهم اليك يبسطون أكف الضراعة والحاجة .» وكانت وفاة فطنت هانم عام ١٧٨٠ .

أما ليلى هانم فقد درجت هى الأخرى فى بيت كريم ، وتولى تعليمها شاعر من ذوى قرباها يقال له عزت ملا ، ثم كان زواجها فى ريق شبابها ، إلا أن هذه الزيجة لم تدم إلا أياما سبعة ، ولم تكن الملامة فى ذلك على زوجها كما هى الحال فى زيجة فطنت هانم وإنما كان الذنب ذنبها ، فقد كانت حادة الطبع ، شديدة الكبرياء معتدة بنفسها إلى أبعد مدى ، مستعلية على غيرها ، لاتنثنى عن عزم ولا تكترث للوم ، فلا جرم ان ضاقت بالحياة الزوجية وكرهت قيودها ، وأصبحت المطلقة أكثر سخطا على الناس واستخفافا بهم ورغبة فى الغض من شأنهم وتسفيه رأيهم ، فما القت بالا إلى الهمز واللمز ، ولا أهمها أن يرجف المرجفون ويتقول المتقولون ، فينسبوا اليها أقبح عيب يؤذى امرأة فى

شرفها ، وساءت سيرتها فاستهترت بكل شيء ، ولم تملك لنزواتها زماما ، حتى ان احد الوراقين نظم بيتا فيها تناقله الناس ، وقيل بمسمع منها فأثار ضحك الضاحكين وهزء الهازئين ، ولا يسعنا هنا إلا نطوى ذكره لفحشه .

وقيل انها عرفت شابا وسيما يصنع الشمع ، وقد راقتها وسامته فكانت تكثر من زيارته فى دكانه ، وكان الفتى حييا شديد الحياء ، إذا كلمته لا يكلمها ، ولما شاع الأمر نظم جار له شطرة لقنه اياها ليقولها للشاعرة وهى : « لا تديمى النظر بالاعجاب إلى شمع خدى ، لا تحترقى بنارى ! » وما سمعت منه ذلك حتى اجازت بقولها : « إذا طر شاربك وبلغت مبلغ الرجال فستستعين بنور شمعك على رؤيتى . »

وشعرها سهل معناه فى ظاهر لفظه ، وليس فيه من الصناعة إلا ضئيل أثر ، وتفهمه لا يكد الفكر ولا يبعث على ترديد النظر وهذا وجه للشبه بين شعرها وشعر فطنت هانم ، ويمكن القول بأن شعرهما غريب على عصرهما .

وليلى هانم شاعرة غنائية إلى حد كبير ، أو إلى أبعد حد اذا ذكرنا ندرة هذا الشعر الغنائى فى زمانها ، ويفتح ديوانها عن

شعر ديني فى مناجاة الذات الالهية ومدح الرسول الكريم والترحم على آله ، وتدخل من ذلك على رثاء الحسين وآل بيته فتطيل الرثاء وتجيده قائلة : « لقد وافى المحرم ، ويلاه من يعيننى على هذا الشهر ، ففيه لا يرقأ دم لعينى ، وان الفلك الغدار لينكأ جراحاتى فمن لى بدواء لما فى القلب من حرقات . وحق لمحب أهل البيت إلا يسيغ الماء حزنا كأن السمام فى جرعته ، ففى مثل هذا اليوم كان ما كان من يزيد ابن السفيه حشو جهنم ، هو خنزير وليس من البشر . فمثل هذا الظلم لا يعرفه بنو الانسان . »

وليلى ترث أباها وأخاها ومؤدبها عزت ملا ، وشعرها فى الرثاء رقيق يعبر عن لوعة الحزن فى بساطة وسذاجة ، ولها عناية ظاهرة بتنسيق ألفاظه ، فهى تكرر بعضها على نحو رتيب يذكر بالنائحة الثكلى وهى تندب الميت رافعة صوتها بالعويل والنحيب وقد صدرت فى هذا الشعر عن طبيعتها النسوية ، فبدت شديدة الوضوح بكل صفاتها ، قالت ليلى : « ان للاشواق نارا تلهب القلب منى ، الفراق ، آه الفراق ، آه الفراق ، أواه لا طاقة لى بتباريح الآسى ، الفراق ، آه الفراق ، آه الفراق ، لقد ارتحل أبى عن دنياى ، الفراق ، آه الفراق ، آه الفراق ، فلنتخذ من

نوحنا وصدرنا نايا ودفا ، الفراق ، آه الفراق ، آه الفراق . لقد رفع أبي إليّ عينه وهو بالنفس يجود ، فهل حزن لقلبي الصديع ؟ لقد أصبح فى التراب ترابا ، الفراق ، آه الفراق ، آه الفراق ، الله فى هذا القلب الكليم ، الفراق ، آه الفراق ، آه الفراق »

وإذا ما انصرفنا عن شعرها هذا الباكى ، وجدنا لها شعرا ضاحكا مرحا ، ورأيناها فى غزلها تجهر باستهتارها ، وتطلب إلى العذول أن يكف اللوم عنها لأن لها أذنا لاتصغى ، فتطلعنا على نفس تحب الحياة كل الحب ، وتحرص على المتعة كل الحرص ، فكأننا أمام شاعر من المجان ، لاشاعرة من ربات الخدور ، تقول ليلى : « إلا هيىء لنا مجلسا للانس ، وليقل القائلون ما يقولون ، وأرشف الصهباء مع الحسناء . وليقل القائلون مايقولون ، لقد أشبع العاشق الولهان ذوائبها العنبرية لثما وشما فى الليلة الحالمة ، وليقل القائلون مايقولون ، وتقيد القلب بقيد من شعرها ، فبالله ما أشوقنى الى هذا ، وليقل القائلون مايقولون . لافرق عندى فى هذه الدنيا بين مدحى ومذمتى ، فليأخذ الأحباب فرصة اللذات ، وليقل القائلون مايقولون . »

وكان عام ١٨٤٧ هو العام الذى قضت فيه ليلى هانم ، وان السلوك الذى سلكته هاتان الشاعرتان فى حياتهما ، والجرأة التى أظهرتاها فى شعرهما ، لمما يزين لنا أن نتعرف البواعث النفسية عند الشعراء عموما ، والشواعر خصوصا

أب ظلوم

ان كان من المألوف أن يعق الابناء الآباء ، فمن غير المألوف ان يظلم الآباء الابناء ، ويا قلما اظهروا القسوة عليهم والعنف بهم ، ويمكن تفسير ذلك تفسيرا جليا بأن للطبيعة حكمتها التى تجد حاجة الطفولة العاجزة واليفوع القاصر إلى العائل الشفيق والقيم المحب ، فتودع قلب الوالد مالا تودع قلب الولد من رقيق العاطفة واكيد المحبة . ولأمر ما كان انحراف هذه الظاهرة فى الندرة . وان ذلك ليبعث على كد الفكر وترديد النظر ، شأن كل عجيب يدعو إلى التساؤل ، ويثير الرغبة فى تعرف ماعسى أن يكون من سبب . وما دمنا نعالج أمرا واقعا ، فأحرى بنا أن نضرب المثل بحقائق التاريخ التى لا مرية فى صحتها ، وهو أفضل بكثير من أن نستلهم الخيال قصة ليست بكائنة .

ففي تاريخ الفرس ملك من اعظم ملوكهم يقال له الشاه عباس الكبير ، وكان متعدد الزوجات متعدد الأولاد ، غير انه يؤثر من ذريته ثلاثة ، وهم صفي ميرزا ولده الأرشد . واخوان لهما خدابنده وامامقلي . وقد استحق صفي ميرزا من أبيه ان يكون له محبا معزا مكرما . فهو المقدام المغوار ، والعاقل الحصيف ، وولد تقر به عين والده ، وولي عهد نال منه كل ماتمنى ، لأنه لم يكن ليحول بينه وبين امر يطلبه ولا رغبة يشتهيها .

وقد اتفق لهذا الأمير الشاب أن رأى جارية شركسية حديثة الورود إلى حريم ابيه ، وراقه حسنها ، فوقعت في قلبه واستأذن في أن تكون زوجة له ، فما كان من الشاه عباس إلا الرضا والقبول ، فزفت الشركسية الحسناء إلى الأمير الفتى ، في حفل بهيج اشرقت به ليالي اصفهان الجميلة .

ولم يكن بين الشاه وولي العهد الا حب الابوة وبر البنوة . إلا أن رجال القصر وحكام الاقاليم وعظماء الدولة لم يرتضوا هذا الحاجة في نفوسهم ، فقدكان الشاه عباس الكبير يحكم بالحق ويسوس بالعدل . حتى قيل ان ايران لم تعرف له نظيرا في تاريخها الطويل ، لأنه قبض على ازمة الحكم بيد قوية ، وصرف شؤون

الدولة بعقل ودراية ، فمضى ببلاده قدما إلى المجد والفخار ، واستلزمت سياسته الرشيدة أن يكون الحاكم المطلق الذى لا يشرك معه فى الحكم أصحاب المطامع والاهواء الذين يسوءهم أن يمحى سلطانهم بجانب سلطانه ، ويصبحوا ولا حول لهم ولا طول ، ولا يظلمون مع رغبتهم فى الظلم ، ولا يتسلطون على حبهم للتسلط ، واعجزهم أن يلينوا من قناته ويكسروا من شوكته ، فزين لهم شيطانهم أن يعملوا الحيلة وركنوا إلى الدهاء ، رجاء التخلص من الشاه ، فاذا تم لهم ذلك ، استردوا ما فقدوا ، وحققوا ما أملوا . فرأوا أن يقتلوه ، واستقر على ذلك رأيهم ، ورأوا لهم عهدا سعيدا يوم يخلفه صفى ميرزا ، فهو أخف وطأة عليهم ، واسهل قيادا ، واقل بالسلطة استئثارا ، وعزموا أن يتواطأوا على قتله مع ابنه صفى ميرزا ، بيد أنهم لم يكونوا على ثقة من قبوله النزول على رغبتهم ، واجابة سؤلهم ، وأحبوا أن يطلعوا على سريرته من طرف خفى ، فكتبوا صحيفة ضمنوها ما يطلبون إليه ، وانفذوا من تسلل تحت الليل والقاها فى داره . وحمل اليه الخدام الصحيفة ، فما اتم قراءتها حتى أخذ منه الأسى كل مأخذ ، لأنه كان حريصا كل الحرص على أن يذود عن أبيه كل

شر واذى ، وكاد من غضبه يمزقها شذر مذر ، إلا أنه تمهل ورأى الاحتفاظ بها للتعرف على من كتبها ، واطلاع ابيه على ماجاء فيها ، ولما اصبح الصباح طلب ان يخلو بالشاه ، ثم اخرج الصحيفة من اثناء ثوبه ودفعها اليه ، ولما وضعها الشاه تحت بصره وعرف جلية الأمر ، ساورته الريبة واوجس خيفة ، وخاف الشر من ولده الذى لم يضمر له شرا ، وخال هذا الصنيع منه محاولة لخداعه ، وسبيلا يسلكه المسىء للايهام بأنه برىء ، وان كان ابدى لولده غير مايخفى ، فحمد له ان نبهه الى ما كان عنه غافلا ، وبارك فيه بره به ، ولكن الفزع اطار فؤاده وسوء الظن حير فكره ، ورأى نفسه مقتولا ان فى الحال او فى المآل فانخلع قلبه ولم يأتمن على الوفاء أحدا ، وهجس فى خاطره ان ولده لاشك غادر به ، فقد يفسد المفسدون فى الغد قلبه عليه ، بعد ان كان بالأمس صافياً له ، ووسوست فى صدره الاوهام والوساوس ، فعز منامه مخافة ان ينتهز منه غفلة للقتل ، ولم يسغ طعامه ولاشرابه خشية سم يدس له ، ولم يشعر بالامن والقرار حتى بعد ان غلق الابواب واوقف الحجاب ، وهام به الخيال ولم يستقر فكره على شىء ، وان كان لابد للطيران يقع ، فقد

وقعت ريبته على ولده صفى ميرزا ، فصب عليه نقمته .

وضاق الشاه عباس بمقامه فى اصفهان حاضرة ملكه ، فرأى ان يزايلها الى بلد آخر ملتمسا فى ذلك ان ينفس عن نفسه كربتها ، فرحل عنها إلى الشمال ، ولم يفته ان يصحب ولده ، ليأمن منه تدبير شر له ، مع رفيقة السوء ، وهو غائب عن اصفهان .

وايقن المتآمرون ان صفى ميرزا خيب ظنهم وبدد احلامهم ، واسخطهم ذلك عليه ، فعولوا على أن يكيدوا له ، ويسعوا به الى ابيه ، والقوا فى روع الشاه ان ولده يجتمع بثلة من اصحابه كل ليله كأنهم يدبرون امرا ، فقطع الشك باليقين وتجرد من عاطفة الأبوة . واصبح لابنه كارها بقدر ما كان محبا . وصح عزمه على حسم الشر بالسيف ، وغلبه ما جبلت عليه النفوس من أثرة ورغبة فى تنازع البقاء ، فانتوى أن يقتل ولده قبل أن يقتله ، واستدعى قائدا من القواد كان يصطفيه ويحلّ منزلته ويفضى إليه بسره ، وناط به أن ينفذ مشيئته ، فسل القائد سيفه وركع بين يدى مولاه قائلا : « والله لأحب الى أن تضرب عنق بهذا السيف الحسام ، من أن أقدم على قتل ولى عهدك ، لقد اسبغتم على نعمكم ، فكيف أمد يدى باذايتكم ؟

ولولا تمكن القائد عند الشاه لنال جزاء وفاقا على ما كان من عصيانه للأمر، ولكن الشاه كظم غيظه وأسرها فى نفسه ثم وكل هذا الأمر إلى رجل من بطانته يدعى بهبود بيك فصدع بما أمر، واشتمل بسيفه. وانتقل إلى دار صفى ميرزا، وسأل عنه، فقيل له أنه ذهب إلى الحمام، وسعى بهبود بيك إلى حيث يجده، وبينما هو فى الطريق، صادفه عائداً، فأخذ بعنان فرسه قائلا: «ترجل أيها الأمير. لقد حكم عليك أبوك بالموت، وجعل إلى أن أنفذ فيك هذا الحكم.»

وما سمع الأمير هذا الكلام حتى رفع بصره إلى السماء وهو يقول بصوت يهدج: «رباه أى ذنب كان منى حتى يأمر أبى بقتلى؟ اللهم اقتص لى من عصبة السوء، لقد كادوا لى وسعوا بى!..»

وقتل الأمير شر قتلة، وقال القاتل انه إنما قتله لأنه كان قد سبه، ثم انطلق هاربا إلى مولاه وأخبره الخبر. وطلب الأمان فأمنه، وكافأه على فعلته الشنعاء برفع مرتبته. ولجت بالأب قسوته وغلظته فطلب رأس ولده وجعل ينظر اليه نظرات الحقد والشماتة!.

وليس مقتل صفى ميرزا بالمثال الأوحد من فظاظة الشاه

عباس وقسوته على أبنائه . فقد كان الأمير خدابنده مغوارا جسوراً ، نال نصراً مبيناً في بعض الحروب ، فعرف الناس فيه بطلا مظفراً ، وطلبوا أن يكون وليا للعهد ، فاغضب ذلك الشاه ، وأظهر هذا الغضب بقتل مؤدب الأمير ، فدخل على أبيه محتجاً وكلمه بكلام غليظ حتى جرد سيفه ملوحا به ، فأمر الشاه عباس بخدابنده فسملت عيناه واختلط عقله لذهاب بصره فقتل فاطمة وهي جارية لأبيه وكان لها محبا ، فانتقم منه في جاريته كما انتقم منه أبوه في مؤدبه ، ثم تجرع السم ومات . وقيل أن الشاه سمل عيني ولده الأصغر كذلك لأمر نقمه منه .

فما حكم التاريخ على هذا الرجل ؟ يقول مؤرخ ايراني باستحالة ادانته ، لأننا لا نعلم يقينا تلك الأسباب التي دفعته الى ما كان من قتل وسمل عيون ، ويريد ليخفف عنه ذنبه وعيبه بقوله انه اظهر جزعا شديدا على ولده صفي ميرزا ، ولم يفلت الواشين من غليظ العقاب ، وجعل من المكان الذي قتل فيه موئلا من لاذ به امن على نفسه من عدوه ، كما بلغ من حزنه أن امتنع من لبس الثياب المزركشة ، وأوصى بالملك من بعده لسام ميرزا ولد صفي ميرزا ، وكانت منه هذه الوصاة وهو يجود بنفسه سنة ١٦٢٩ .

ويميل مؤرخ اوربي الى تبرير ظلمه وقساوته بباعث لابد ان يكون قويا ، فليس يصح فى الفهم ان تسفك النزوة دما، ولا ان تذهب النزهة بصرا ، ويذكر بعد ذلك أن الشاه عباس كان ملكا عاقلا عادلا .

ومهما يكن من قول المؤرخين فالرأى عندنا ، أن نفرق بين الرجل كملك وانسان ، فهو ملك عظيم ومصلح من الطراز الأول، إلا انه انسان خسيس ميت العاطفة عليل النفسية ، ولا تعارض مطلقا بين هذين الجانبين فيه ، ولن يكون العظيم عظيما بكل صفاته ، وانما اعجابنا بالعظماء ينصب على ناحية أونواح ، وليس لزاما ان ينصب على كل النواحى . فبعض صفات الشر لاتنفى عن العظيم عظمته ، وبذلك يكون الشاه عباس الكبير خير الملوك وشر الآباء .

سقاية عابر السبيل

فى القرن السابع الهجرى ، قال الشاعر الفارسى سعدى :

« كان خلق الانام جميعا من جوهر واحد ، ومن ثم كان مثلهم كمثل الجسد إذا اشتكت منه جارحة ، تداعت لها سائر الجوارح بالشكوى ، وان بين بعضهم وبعضهم ما بين العضو والعضو من سبب وآصرة ، فلن يحق أن تسمى بالإنسان ، ان كنت لا تشرك اخاك فى الارزاء والأحزان . »

وفى هذا الشعر تصوير لتلك النزعة الإنسانية التى تعمر بها القلوب ، فيرثى السعيد للشقى مما هو فيه ، وتدرك القوى رقة على الضعيف ، وتأخذ القادر رأفة بالعاجز . كما فيه تفسير لمعنى الاحسان الذى يسمو بأفراد الجماعة ، ويأخذ بيد المتخلفين عن ركبها ، فيكفى من نقص ، ويشفى من علة ويصلح من عيب ، ففيه

حفظ لكيان الحياة ورغبة فى جعل سعادتها بديلا من شقائها ، وكأن تراحم الناس وتوادهم يتفرع فى النفوس عن اصل هو حب الحياة وطول البقاء .

واحتساب الخير عند الله وتقديمه فى سبيله ، جعل لكلمة سبيل مدلولا خاصا ، فاقترنت بكثير من الصدقات ، كأن يقال عملت التوابيت لتغسيل الموتى للسبيل بغير أجرة ، وان فلانا كان يقيم فى كل سنة سبيلا للحاج ، وسير معه جميع ماتدعو حاجة المسافرين اليه فى الطريق ، ومكتب السبيل هو المكتب الذى لا يلزم الصبيان فى دخوله شيء ، ومن أخص مايسمى بالسبيل سبيل الماء ، وهو بناء صغير أو كبير يشرب منه ، وتجرى العادة بغرس شجرة أوشجرات تمد عليه وارف الظلال ، ليكون مثابة ومأوى لعابر السبيل يلوذ به من لفحة الهاجرة ووقد شمسها ، فيرتوى من حرقة الظمأ ، ويجد برد الراحة بعد طول الاين والاعياء ، فكأنه كان يضرب فى الصحراء المشمسة العطشى ، ثم عاج بواحة خضراء فيها ظل وماء .

وكان للترك ميل وشديد اختصاص باقامة السبل ، فهى أول ما يقيمه محسن يجعل قدرا من ماله حبسا على الخيرات

ملتمسا دعوة صالحة له من متوضىء أو ظمآن ، ولنا أن نعلل اهتمام الترك هذا بتلك السبل تعليلا تاريخيا . فاذا رجعنا إلى استانبول فى سالف زمانها ، وجدنا أن الماء لم يكن وفيراً بها ، حتى أنشأ السلطان سليمان القانونى ما عرف بالعيون الأربعين فكثر الماء بالمدينة بعض الكثرة ووجد الناس حاجتهم منه ، وخزن لتجرى به مجاريه عند الضرورة ، وتنافس المتنافسون من أهل الخير فى إنشاء السبل ، قيل وكان لاحدى نساء السلطان سليم الثانى حمام عظيم ، إذا فضل عنه ماء وزع على هذه السبل .

فاذا عرفنا قلة المياه فى استانبول ، ومس الحاجة اليها صيفا على الخصوص ، أدركنا أن ارواء العطشان عمل يشكر ويؤجر عليه صاحبه ، ويقل عجبنا من كثرة تلك السبل التى خلدت على وجه الأيام ذكر من بناها ، وحوت استانبول وحدها مئات منها ،

ومما يشير الى فرط اهتمام أهل الخير والبر بها ، وانها كانت عندهم أول ما يبتغون به مرضاة الله بعد تشييد المساجد ، أنه بينما كانت والدة أحد السلاطين تبنى مسجداً ذا مئذنتين ، قل مالها ولم يف إلا باقامة مئذنة واحدة ، وعرف ولدها السلطان

ذلك من أمرها ، فأمدها بما يسد حاجتها ويقيم لها المئذنة الأخرى ، بيد أنها قالت لما تحصل المال لها : « كلا إن فى المئذنة الواحدة كفاية لدعوة المؤمنين إلى الصلاة ، وما فى الأخرى إلا مجدى ورفع ذكرى ، إن المسكين إلى السبيل فقير! » وأمرت بانفاق المال على تشييد سبيل .

وهذه السبل منها ماهو فخم البناء جميل الزخرف . تأنقت يد الفن فى تزيينه وتحسينه وانفق على ذلك مال جزيل ، ومنها ماصغر بناؤه وتعرى عن كل زينة حتى لم يعد سوى حوض صغير يمسك الماء ؛ والعظيم منها كسبيل داود اغا ، وذلك الذى ابتناه السلطان احمد الأول فى القرن السابع عشر ، اما اشهرها وافخمها ، فسبيل السلطان احمد الثالث ، وهو من اجمل الأبنية فى القرن الثامن عشر . فقد بنى من الرخام الأبيض وله سقف آية فى الروعة ، وخمس قباب تحمل الاهلة ، وعليه كتابة بخط حسن وماء ذهب ، وهى ابيات من الشعر هذا نصها :

« قف ايها السائر ، فهذا ينبوع يبهجك ويسعدك ، تلبث هنا لتجد الراحة فى ظلال الدوح . ان لهذا السقف فيئا كأفياء شجرات السرو ، غير انه ابهى والطف نسيما . ولسوف يخبرك

الملائكة فى الجنان يوما ، ان ماء هذه الروضة كماء انهار الجنة عذوبة ولذاذة . وقد تعلم أيضا أنه شبيه بماء زمزم . ان السلطان احمد ، وهو الاسكندر الثانى ، وله من الأمجاد امثال الشموس ، ومن السماحة مايتزايد على مر الأيام ، فقد اقام للناس هذا السبيل ووسمه بخاتمه الملكى . وهذه المياه المتفجرة المتدفقة تجرى فكأنها كرمه وكثير نواله ، ويصيب من هذا الماء امير وفقير وعاقل وجاهل على السواء ، الا إنما الماء نعمة سابغة من نعم الرحمن . »

وللسلطان احمد الثالث سبيل آخر ، وهو وان كان اصغر حجما من الأول ، إلا انه اكثر رواء وبهاء ، ويقال ان امبراطور المانيا شيد فى استانبول سبيلا سنة ١٨٩٥ ، ذهابا منه إلى الرمز الى مابينه وبين السلطان عبد الحميد الثانى من ود اكيد .

ولا يشترط فى هذه السبل ان تقام فى مكان معين لاقامتها ، فهى فى كل مكان ، والعين تقع عليها فى الأسواق ، والميادين ، وافنية المساجد ، وقارعة الطرق ، وعندها نشاهد طوائف مختلفة من الناس ، فهاهم اولاء الملاحون ، قد جلسوا فى ظلها يستريحون مشمرين عن سواعدهم المجدولة التى اعياها تحريك المجاذيف ، وجذب الحبال كاشفين عن صدور تفلكت ثندواتها ولمعت

وجذب الحبال ، كاشفين عن صدور تفلـكت ثندواتها ولمعت قطرات العرق على شعراتها . والى جانبهم جلس البائع الجوال بعد ان القى عن عاتقه سلة العنب التى انقضت ظهره ، وقد استرخت له ساقان كادتا تشتـكيان من طول السير ، قبل حلقا جف من ندائه المتواصل دون ان يدخل يده درهم ينفقه فى حاجات من يعول . اما ذلك المتسول فى اطماره البالية فاتخذ له هناك مأوى ، لانه عدم دارا يأوى اليها . فالجميع وقوف بها او قعود حواليها ليصيبوا من مائها وينعموا بظلالها .

وللعظيم من هذه السبل حارس موكل بها ، يلحظها بعين عنايته ، ويتعهدها بما يحفظ عليها رونقها ، ويديم الفائدة المرجوة من إقامتها . فيصيخ بسمعه لخرير مائها ، وهو يرتل القرآن ويحلم بالنعيم المقيم ، وقد يمتد الحديث بينه وبين أحد المارين به ، فيحدثه بعجيب ما رأى فى عمره المتطاول ، ويرسـل الحـكمة ويبذل النصيحة كما قد يسأله طلعة أو مستفيد عن صاحب السبيل فيذكر بالخير والحسنى عهدا ناسه ناس كرام ، داعيا بالسقيا لقبر كل من سقى الظمآن ، واراح المتعب المجهود .

ومما يزيد هذه السبل حسنا على حسن ، تلك الاسراب من

الحمائم التى تحوم عليها وتتهاوى لتقع على ستوفها ، وهى تهدل وفى هديلها حزين الشكوى وعذب النجوى . وان بياض البيض منها ليذكر بالنقاء والطهر ، ويرمز إلى تلك النفوس التى تجود لتسعد الغير ، ولا تخف عنها آلامها ، حتى تخفف عنهم آلامهم

وان من بعض هذه السبل ماشاهد أحداثا محزنة ، ومظالم تتأذى بها القلوب ، فقد حدث منذ نحو مائة من الأعوام ، أن حوكم حائك يونانى لم يستطع اقناع قضاته ببراءة ساحته مما نسب اليه ظلما ، فحكم عليه بالموت وضرب عنقه ، وشوهد جسده ورأسه بين ركبتيه ، على مقربة من سبيل فى سوق السمك .

وقال سائح أوربى انه شاهد مجرما ، لعله كان قاتلا أو من لصوص البحر ، والجند خلفه يسوقونه إلى حيث لا يعلم ، فتوقفوا عن السير فجاءة ، ودقوا مسمارا غليظا فى جدار حانوت لفاكهى ، ثم جعلوا حبلا فى عنق الرجل بعد أن أوقفوه على قفص من اقفاص الدجاج وربطوا الحبل فى المسمار ، ودفع أحدهم القفص من تحت قدمى الرجل فمات ميتة سوء . وكان ذلك أمام سبيل من السبل ، والعجب أن الحبل ظل معلقا فى المسمار زمنا طويلا ، وترك حتى تبليه الشمس والأمطار ، وان الواقف بهذا

المكان لناظر إلى ضدين ، فالسبيل مظهر للرقة والرأفة ، وذاك الجبل عنوان للقسوة والغلظة ، فهل ساء ذلك بانى السبيل ، فقلقت روحه الخيرة وهى تنعم عند ربها بعظيم الأجر على ما كسبت ؟ وهل أدرك السابلة الفرق بين هذين الضدين اللذين يتنافران فى النفوس ، وان كانا يجتمعان فى الوجود !

ويمكن بعد هذا كله ، أن نعزو إلى هذه السبل بعض الفضل على الأدب ، فقد اذاعته وجعلته متداولا بين الناس ، وذلك لما تتحلى به من اشعار كتبت على واجهاتها أو نقشت على كيزانها ، وليس يخاف أن الغرض الأول من كتابتها هو الزينة ، غير اننا لا نعدم الجمال الشعرى فى الكثير منها ولنضرب مثلا هذه الأبيات التى تخلق من الماء متكلما يقول : « انا صفاء الصفاء ونقاء النقاء ، وإذا اديرت على الندماء اقداحى ، غمرت قلوبهم بالبرد والسلام . قف متع العين باجتلاء محاسنى ، وتأمل فى بديع صفاتى ايما عطشان شكا تلهب الهيام ، اشكيته ورويته بحلاوتى وعذوبتى ! »

المغامر الشاعر

إن كان للفرس شعر سياسى بحق ، فهذا الشعر يستمد نشأته من تلك الثورة التى خفقت ألويتها ما بين سنة ١٩٠٥ و ١٩٠٩ ، بعد أن تحرك الوعى القومى فى النفوس ، ووضح الحق المنقوص فى العقول ، فطالب الشعب الفارسى بالحكم النيابى حتى أجيب إلى طلبته ، وأراد الحد من تسلط الأجنبى وغلوائه فما خاب فى مسعاه وغنى عن البيان أن الشعر فى مثل هذه الفترة لا يكون غالبا إلا وطنياً سياسياً ، يعبر عن روح الجهاد ، وينادى بالاصلاح العام والخاص .

ومن المتأدبين من يميل إلى نفى الشاعرية عن هذا الشعر ، ويذهب إلى أنه وليد المناسبة لا فيض الخاطر ، فصاحبه ينحته من صخر ولا يغترفه من بحر ، ومهما يكن من هذا القول فليس

يصح فى الفهم أن نطلب إلى الشاعر السكوت أمام أحداث تدفع إلى التأثر منها والتحدث عنها ، ولن يسوغ أن يذرف الشاعر دموع الحب أو ينعم بنشوة الحميا ، على حين تجرى النفوس على النصال المشرعة ، ويعالج أبناء وطنه سكرة الموت الزؤام ، وكيف يصف الربيع الباسم المغنى ، وهو يشاهد تعبيس المتقاتلين ويسمع أنين المظلومين ؟

والشاعر المجيد قدير على تصوير الحقائق أجمل تصوير ، والشعور بها شعورا شعريا يخرج بها عن المادية إلى الروحانية ، فنحن قد نجد فى الشعر السياسى جمالا نعدمه فى كثير من شعر الخيال الهائم والعاطفة المشبوبة ، ولنا أن نزيد على ذلك أن اهتمامنا بهذا الشعر ضرورة تاريخية وأدبية معا .

ومن رجال الثورة الفارسية من يدعى لاهوتى ، وقد كان شاعراً ومغامراً وجندياً وسياسياً ، ويعنينا منه حياة عجيبة الأطوار متقلبة الأحوال ، ساقته ملابساتها شريدا طريدا فى الآفاق ، وشعر يعتبر مثالا جيدا لشعر السياسة والوطنية فى ايران على عهد ثورتها .

ولد لاهوتى سنة ١٨٨٥ ولاحت عليه مخايل النبوغ والعبقرية

فى فجر عمره ، حتى قيل انه عالج النظم وهو غلام لم يستوف السابعة من سنيه ، ولما وافى عام ١٩٠٨ كان لاهوتى ينتصر للثورة ويعتنق مبادئها بكل ما فى قلبه الشاب من حماسة ، وما فى عقيدته من رسوخ وعناد ، ولما اضطر الثوار إلى ماقد يضطر إليه الجندى من كر وفر ، زايل لاهوتى العاصمة والتمس موئلا فى مدينة بشمال إيران ، وهناك لم يرتض لنفسه حياة خمود وركود ، فأسس مدرسة واشتغل بالتدريس فيها ، ولبث بعض الزمن حتى استقر الأمر للثوار ، وظفروا بما ثاروا من أجل الظفر به ، فقفل راجعا إلى طهران وانخرط فى سلك الشرطة ، وأبلى فى عمله أحسن البلاء ، ونال من الرتب مايثير حسد رفاقه غير أن شراً وقع بينه وبين أحد رؤسائه السويديين ، فخرج لاهوتى عن طوره ، وأملى عليه شيطان الغضب أن يتوعده بالقتل ووجد الضابط السويدى قتيلا بعد أيام ، واجتمعت الدلائل ضده فلم يبرأ من دمه ، وكان لاهوتى يقظا شديد التحفظ فتعلق بأذيال الفرار قبل الوقوع فى قبضة العدالة ، وحكم عليه بالموت وهو غريب بالبلد البعيد .

وهاجت الحرب العظمى فحارب الانجليز والروس ، ثم التقى

عصاه فى استانبول ، وقعد عن الكسب ردحا من الزمن فشحت موارده وضاقت ذات يده ، ولم يكن بد من الاستعانة على العيش بحرفة أو تجارة ، وصحت عزيمته على بيع الكتب ، إلا أن تجارته منيت بالكساد . فحار فى أمره ، وطلب قوت يومه بكل حيلة ، وكان من أضاحيك القدر أن يحترف طهو الطعام فى أحد المطاعم ، وهو من هو فى منزلته الأدبية وسمو رتبته العسكرية ، وشاء الله أن يخفف بلواه ، ويعيد إليه بعض العز بعد ما كابد من ذل ، فعرفه القنصل الايرانى باستانبول ، وجعل اليه إدارة المدرسة الايرانية بهذه المدينة ، كما جمعته الصدفة بصحفى من مواطنيه فاشتركا فى تحرير صحيفة .

ولم يستقر لاهوتى على حال ، فآب إلى وطنه عام ١٩٢١ ، ولجأ الى أحد الحكام ، وسأله أن يشفع له عند الشاه ، فصدق أمله ، وأحسن الشاه العفو عنه ، كما أكرمه باعادة منصبه إليه وما لبث فى إيران طويلا حتى عاوده حب المغامرة وركوب المخاطر ، فجهز لنفسه جيشاً من أتباعه ، وثار على الدولة ، بيد أن الدائرة دارت عليه ، فتشتت شمله وانفض أعوانه من حوله ، فهام على وجهه يطلب النجاة ، ووصل به تجواله إلى القوقاز حيث

اعتقله الروس الذين أبوا تقديمه إلى حكومة ايران ، وضموه إلى جيشهم ، ثم عرفوا منزلته العلمية فآثروا أن يفيدوا منه كاستاذ للفارسية بجامعة موسكو .

وليس لاهوتى بالشاعر المحبوب فى إيران لما كان من نزواته وتقلباته ، وهو معدود فى الخونة ، بعد أن كان معتبراً من رواد الاصلاح ومحبي الخير للوطن . وشعره يتألف من مجموعتين ، تعرف الأولى بلآلىء لاهوتى وقد طبعت فى استانبول ، أما الأخرى فديوان من الشعر يسمى بالأدب الأحمر ، وقد نشره فى التركستان وضمنه مذهبه الثورى ، وميله الفوضوى .

ومن لآلئه الجميلة قوله « بالله مرحمة أيها الصياد ، اشفق على تلك الزفرة التى تبقت من حياتى فلا تخمدها ، لا تحرق عشى ولك إن شئت أن تقتلع من القوادم والخوافى ، وإذا كان مبتغاك أن توقعنى فى الأسر ، فهأنذا قد وقعت فى الفخ . اخرج من بستانى ولا تكن من يخرب على دارى . لقد قيدت جناحى وصدعت قلبى ، فترفق أيها الصياد ولا تعقل لسانى ، كم شوكة أدمت كفى فى شجرة الورد حتى احمر العشب من وقع خطواتى أنى لأموت كمداً فى هذا الركن من قفصى بعيداً عن البستان

وطنى ، فيا نسيم الصبا تحمل خبرى الحزين إلى صاحب بستانى ، إن قلبى الكسير الدامى لينفطر فى تلك العزلة الموحشة ، فاللهم اجعل لى رفيقا مواسيا ، يخفف عنى برجائى ، ويقص على أحبابى ما حل بى ، لقد أيقنت بالهلكة يوم عرفت أن الذئب والراعى صارا على إلبا واحداً ، ولما أراد القدر القائى بين براثن الأجنبى ، التى حارس بستانى فى سبات الغافلين ! »

فهذا الشعر تصوير للحال السياسية فى خيال الشاعر الذى عمد إلى التلويح وامتنع من التصريح ، وأومأ إلى الحقائق إيماء خفيا تحت ستر دقيق من الرموز . وأن التوصل إلى المعنى المقصود بهذه الكيفية لأوقع فى النفس وآخذ بالقلب ، وأكثر توضيحا للمراد من ذكر الحقيقة مجردة والمعانى عارية ، فضلا عن ذلك الجمال الأدبى الذى ننعم به ونحن نتناسى المعنى البعيد ونتفهم المعنى القريب .

وعرف لاهوتى بمؤازرته للنهضة النسوية فى بلاده ، ورغبته إلى المرأة الايرانية ان ترفع الحجاب وتنال حظا من العلم والمعرفة اسوة بأختها الأوربية ، وقال فى ذلك شعرا نقتطف منه هذه الأبيات :

« يابدر ملك العجم ، يادمية الشرق الجميلة ، اعيريني منك قلبا يعي ما أقول ، لقد عفرت الجبين في ترابك . وياطالما رفعت اليك اكف الضراعة كأني عابد في محراب ! كان هذا بالامس ، أما اليوم فأنا اوجه اليك كلاما جليا وقولا فصلا فاسمعي ، لقد كففت قلبي عن هواك وانصرفت نفسي عن سحر حسنك ، حتام اقيد عنقي بغدائرك واجعل من اهداب عينيك سهاما تخز قلبي الجريح والى كم اقول ان لك وجه البدر وقد السرو ؟ اى حاجة الى تحصيل الحاصل وما جدوى اظهار الظاهر ؟ لا رغبة لي في الصباحة مع الجهالة فلا تعرضي على فتنتك وصباحتك . انا صاحب جد وعمل ، لا صاحب لهو وغزل . لا ، لا يجمل بك ايتها الجميلة في عصر المدنية هذا الا يكون لك من العلم حلية تزيد في حسنك ، واقبح العيب ان يكون العالمون احرارا وانت اسير خلف السدول . وياأسفي عليك وانت في غفلتك ، والعالم من حولك في يقظته . اسفري قناعك عن وجهك ، ولتحوك دور العلم ، وتلقى افانين المعارف ، فالجهل شجر والانحطاط له ثمر ، تحلي الحكمة ، واجعلي من امومتك خير مرب لابناء الوطن ، انت من يلقننا الحرف الأول وكلامك اول ما نسمع ونعي . »

والشاعر فى هذه القصيدة عنيف غليظ متهجم كأنه قائد جيش يأمر جنده ، فهو يزجر النساء عن حياة الخدر الناعمة الحالمة ، ويزرى على حسنهن الذى يتطرب الشعراء ، داعيا إلى طرح الخمول والاستكانة والأخذ فيما يعود على المجتمع بالخير والجدوى وان هذا العنف فى دعوته ليـــدل واضح الدلالة على طبيعته الثورية التى لاتعرف الهدوء ولا السكون .

ولما خلع محمد على شاه ظهر من يقال له رحيم خان وكان من رجال العصابات يحيط نفسه بعسكر يعيث فى الأرض نهبا وتقتيلا وقد ثار على الحكومة الدستورية الجديدة وحارب الدولة غير انه انهزم ووقع فى أسر جنود من الروس أطلقوا سبيله بعد أن افتدى نفسه بمال عظيم ، وما استرد حريته حتى عاد إلى عدوانه فخذله التوفيق وفر إلى روسيا التى أبت أن تسلمه للحكومة الايرانية وعاد إلى القتال ثالثة فكان حتفه فيها ، وقبض عليه وقتل . وقد أثارت حماية الروس له سخط الايرانيين . وفى ذلك يقول لاهوتى : « لادر در هذا الخؤون الخسيس الذى وجد عند الروس موئلا بعد كل ما كان من شره العظيم ، وما أظن بلادا غير بلادهم تحمى رجل سوء مثله ! لقد وجد الرعاية والحماية

منهم وهو من ملأ الآفاق ظلما واثما ، ووالله ما أدرى ، ما الذى يرغّب دولة عظمى فى أن تدعو إليها هذا الشيطان المريد ، وكان الظن بها أن تزجه فى غيابة السجن ، لا أن تكرم وفادته وتبذل له القرى ، الا ان كل من ناصر عدوا للانسانية ، لنادم على ذلك فى يوم من الأيام ! »

وليس لهذه القصيدة قيمة فنية ، فصاحبها راوية يسرد الوقائع سردا يفيد أهل التاريخ ولا يطيب لأهل الأدب .

وقد ملك حب السياسة عليه نفسه ، فاشتغل بها ، وتتبع أخبارها فى أرجاء الدنيا ، ولم ينس مصر فنظم فيها قصيدة جيدة عام ١٩٢٥ بعنوان الروضة المحترقة ومنها (ياعجبا كل العجب لتلك الروضة طيبة النسيم ، أى روضة كانت ؟ منذا الذى أضرم النار فيها على مالها من بهاء ورواء وفى أى ذنب كان قتل أصحابها ! لئن أصبحت قاعا لا يرتفع منه الا عمود من دخان ففيها ولا جدال للتاريخ أمجاد مؤثلة وآثار باقية ، وإذا احترقت وذوت فلها عطر مازال ساطعا ، وما ضرها أن ينهار بنيانها ويستوى بالأرض هدما مادامت تستمد من السماء رونقها . هذه الروضة هى مصر العزيزة) .

دراويش الترك

الدرويش بالمعنى اللغوى فى الفارسية هو المتسول الذى يقف بالأبواب مستجديا، أما بالمعنى الاصطلاحى، فذلك المتزهد المتصوف الذى يرفض الدنيا ويرغب عن زخرفها، جاعلا من دأبه وديدنه أن يخشوشن ويهين البدن ببعض العذاب، لتصفو الروح وتطهر، وتحلم عند ربها بالنعيم المقيم، فشقوة الدنيا عنده سعادة فى الآخرة، وعلى المرء أن يبتغى الوسيلة الى الفناء فى محبة الله، والحاق ذاته بالذات العليا، حتى اذا بلغ من ذلك مأربا، فقد وصل الى غاية ينشدها، وحقق الآمال كل الآمال.

وليس بخاف أن ايران هى الموطن الأول لهؤلاء الدراويش وما ذاك إلا لما فطر عليه أهلها من ميل الى التصوف والنظر فى

الدين نظرا مجردا ، وأحرى بنا أن نقول ان الايرانيين اكثر الشعوب رغبة فى اعتناق المذاهب ، وترديد الفكر فى الملل والنحل . وأننا لعلى حجة من تاريخهم الطويل الذى يمدنا بالبراهين القاطعة والأمثلة التى لاتدخل تحت حصر .

وانبعث التصوف من ايران فغمر آسيا الصغرى ، وتمذهب به الدراويش فتألفت منهم مختلف الجماعات والفرق ، وانتشروا فى البلاد طولا وعرضا ، وفى طليعة هذه الفرق ، فرقة المولوية وشيخها جلال الدين الرومى المعروف بمولوى والمتوفى سنة ٦٨٣ هجرية بمدينة قونية ، وهو أعظم شعراء التصوف من الفرس غير منازع ، غير أن مايعنينا بخاصة من أمر هؤلاء الدراويش ، هو وسيلتهم التى يتخذونها لتحقيق الغاية من شرعتهم فالمولوية يستعينون بالرقص والموسيقى على تحريك النشوة الدينية فى نفوسهم ، واذكاء نار الحب الالهى فى قلوبهم ، وللناى عندهم منزله لا تسامى ، وقد قال فيه جلال الدين الرومى شعرا جميلا منه هذه الأبيات : « استمع للناى عذب الشكاة موصول الأنين فانما يشكو الفراق وآلام النوى . وكأنه يقول ، لقد انتزعت من قصبائى فتوجع لى كل من سمع بكائى ، ولقلب أن يتصدع

ويتفطر ليفهم شوقا يعذبني ويضنيني ، وما عجب ان يحن كل ناء عن مستقره الى عهد مضى وأيام خلت . ليس فى النـاى ريح تتردد ، ولـكنها نار للحب تستعر ، فلا كان ذلك القلب الذى خلا من حرّها ! والناى مؤانس ومسامر لمهجور ومفارق ، فقد هتكت انغامه كل ستر ، فبرح الخفاء وانـكشف كل سر »

ومن مستطرف امر المولوية ، اجتماعهم فى تـكيتهم لإقامة طقوسهم المذهبية ، فهم يحتشدون فيما يسمى « سماع خانه » أى بيت السماع ، وهو بهو واسع مستدير يلتف حوله حاجز يقف المشاهدون خلفه ، وفى صدر المكان موضع للضاربين بالمعازف ومقصورة للنساء . فيدخل الدراويش بقلانسهم الطويلة ، وقمصانهم البيض وسراويلهم غير الفضفاضة ، وبعد التسليم على شيخهم ، يرفعون اذرعهم ، وقد اتجهت راحة يدهم اليمنى الى أعلى وراحة اليسرى الى أسفل . ويحن الناى وترن القيثارة وتقرع الطبول ، فيشدون أقدامهم وهم حفاة حتى يقفوا على أطراف اصابعهم ، ثم يدورون بخفة وسرعة كما تدور الرحى حول قطبها وبعد مدة يصلون على النبى صلى الله عليه وسلم ، وتقف حركتهم ويضعون أيديهم على صدورهم ، ثم يحنون قاماتهم ، وبذلك

تنتهى رقصتهم التى يعاودونها بعد ذلك مرتين .

ولا ريب ان الانغام تبعث فى النفوس هزة طرب تتبعها هزة فى الاعضاء ، فتكون هذه الحركات التى تعتبر رقصا ، ولهذا الرقص معنى رمزى يشرحه جلال الدين بقوله : « اذا ماذكرت البحر وامواجه ، فأنت فى واقع الأمر لاتذكر شيئين متباينين ، فالامواج هى البحر فى ارتفاع وانخفاض ، والموج بعد الهبوط الى البحر يعود ، ومثل البحر مثل بنى الانسان فما هم إلا امواج الله ، فاليه بعد الممات مرجعهم ! »

ويحكى عن السلطان سليم انه كان ذات يوم مارا من اقليم قرامان ومعه كمال باشا زاده فراعته الاعاصير التى يكثر هبوبها فى هذه المنطقة وتعجب من ذلك . فقال له الباشا إن قونية عاصمة لهذا الاقليم ، وهى التى سكنها مولانا جلال الدين الرومى ، ولذلك فإن كل مافيها من تلال واحجار وغبار يرقص رقصة المولوية !

وقال الشاعر فهيم فى غلام مولوى راقص (آه منك ايها المولوى الوسيم آه . فإن لعينك الوطفاء من الاهداب خناجر تسفك دمى ! ايها الكافر القاسى ، ماكنت اعلم قبل رؤية ذؤابتك الفاتنة ان المنطقة فى وسط المولوى كالزنار عند المجوسى . وإذا

حركت ذراعيك ، واختلبت القلوب برقصاتك ففى صميم روحى اسنة من نظراتك ، بالله مرحمة يابدر التم ففهيم فى أسرك دائم الانين)

ومن عقائدهم ان الله خلق عالم الأرواح قبل عالم الاجسام، وجعل روح النبى الكريم فى وعاء من نور على هيئة تلك القلنسوة التى يلبسونها ، ويعزون بها هذه الذكرى ، ولرئيس المولوية منزلة عظيمة تتلو منزلة شيخ الاسلام ، وقد جرت العادة بتتويج سلاطين آل عثمان فى مسجد ابى ايوب الانصارى باستانبول ، فكان رئيس المولوية هو الذى يتولى ذلك ويقدم الى السلطان سيفا اثريا هو سيف عثمان .

واذا عرف المولوية بالدراويش الراقصين ، فهناك فرقة اخرى يقال لها الرفاعية وتعرف بفرقة الدراويش الصائحين ، وهم يلبسون السواد ويفضلونه على غيره من الالوان ، وكانوا يعقدون اجتماعهم عصر كل يوم ثلاثاء ، فيجلس شيخهم على سجادة امام المحراب بين مبخرتين ينفح الطيب منهما ، ويصطف مريدوه امامه ، فيرتلون ماتيسر من آى الذكر الحكيم ، ويترنمون بعد ذلك بقراءة خاصة بهم وهم يهزون رءوسهم هزا شديدا ،

ثم تدق الطبول والصنوج، ويرفع الدراويش عقيرتهم بقولهم: «الله اكبر، ياالله، ياهو» ويشير اليهم شيخم فيذكرون اسماء الله الحسنى، ويتساندون بوضع ايدى بعضهم على اكتاف بعضهم الآخر. ثم يصيحون قائلين: «الله هو» حتى يتصبب العرق من جباههم، ويقع الخشوع فى قلوبهم فيفقدون وعيهم، ومن المألوف ان يتوجه اليهم جمع من المتبركين والزمنى، فينسطحون على الارض امامهم ويرجون منهم ان يطأوا اجسامهم بأقدامهم، املا فى الشفاء من الاوجاع، فكأى من عليل يلتمس الخير والبركة من قدم الدرويش، وام ترقد ولدها الكسيح وتقول ان الوطأة المباركة لاتؤلم الطفل ولا تبكيه! وكان الرفاعية قديما يعلقون فى جدران تكاياهم مدى وقضبانا من حديد، ليحموها فى النار حتى تحمر ثم يضربون بها صدورهم او يخزون وجوهم.

وهناك فرقة تعرف بالترلاقية، ودراويشها متقشفون الى ابعد امد، فهم لايذوقون لحما ولا سمكا، ويقتاتون بالأعشاب، اما النساء فلا يقربوهن، ومن عجيب امرهم انهم يسيرون عراة من غير شىء يستر جسومهم، وقد شوهد احدهم متجولا فى احد شوارع استانبول سنة ١٨٨٩، فهرع اليه العوام من كل

صوب ملتمسين البركة وهم يلمسون جسده العارى ، وقد ساء ذلك بعض السفراء فى المدينة وضجوا منه بالشكوى ، فقبض على الدرويش وامر بأن يتوارى فى احدى التكايا . وقد كثرت الاراجيف والاقاويل حول سيرة هذه الجماعة ، فحلتها السلطات وكان ذلك فى اواخر القرن الماضى .

اما المعروفون بالبكتاشية فينتسبون الى حاجى بكتاش الذى رحل الى الاناضول فى القرن الثامن الهجرى ، وزاره السلطان اورخان فى صومعته ملتمسا منه البركات والدعوات يوم الف فرقة جديدة من الجند سماها الانكشارية ، فباركه وباركها ، ويسمى الانكشارية (اولاد حاجى بكتاش) ، وهم اوفر الدراويش عقلا ، واغزرهم علما ، وقد توفروا على الدراسات الفلسفية والسياسية والعلمية ، وانضم بعضهم الى حزب الاحرار وتركيا الفتاة يوم ثار الترك على السلطان عبد الحميد مطالبين بالدستور سنة ١٩٠٨ فاظهروا كياسة وحسن سياسة ، وكان السلطان يوجس خيفة من يقظتهم ونهضتهم ، ويبث الجواسيس عليهم . وهم يشاركون فى الحركات العامة منذ قديم ، فقد كان منهم من صحب السلطان محمد الفاتح فى حملته على القسطنطينية عام ١٤٥٣

وقيل ان رئيسا من رؤسائهم يقال له فاضل بك ، رحل إلى باريس فى اوائل القرن الثامن عشر ، وهناك عرف فولتير وغيره من اعلام الفكر ، فوعى عنهم تعاليمهم وعاد إلى بلاده بعد غيبة طويلة فبث فى البكتاشية روحا متوقدة ، وآراء حرة . وكان من هؤلاء البكتاشية فريق ضمن تلك الفرقة العسكرية المعروفة بالانكشارية.

ولهم قصة مستملحة مع السلطان محمود الثانى المتوفى سنة ١٨٣٩ ، وهى تدل واضح الدلالة على تميزهم بالعقل والرأى من غيرهم من الدراويش ، فقد حدث ان اوغر بعض اعدائهم صدر السلطان عليهم، وزينوا له ان يحل جماعتهم ، غير ان السلطان تمهل قبل الاقدام على مثل هذا الامر .

واولم وليمة عظيمة دعا اليها رؤساء الدراويش جميعا فى استانبول . وقدمت اليهم صحاف الأرز ، إلا ان الملاعق التى جعلت امامهم لتناول الطعام بها كانت كبيرة مفرطة فى الكبر . فقد بلغ طول الواحدة اكثر من ذراعين ، فتبادل الدراويش النظر وبدت الحيرة على وجوههم ، ولم يعرفوا كيف يأكلون بهذه الملاعق التى لا يمكن ان تصلح لتناول الطعام بها ، فقال لهم السلطان فى ذلك وسألهم ما بالهم لا يأكلون الأرز ، فاسقط فى يدهم ولم يحيروا جوابا ، ولما رأى البكتاشية انهم فى مأزق

متضايق ، اغترفوا الارز بملاعقهم الكبيرة ، ومد كل منهم ملعقته عبر المائدة الى صاحبه وجعلوا يأكلون . ولما رأى السلطان ذلك من حيلتهم صفق متهللا وقال : « لله دركم ايها البكتاشية ، ما اعقلكم والله لن احل جماعتكم من اجل هؤلاء الأغبياء ! »

ولدينا قصة اخرى تنهض برهانا على جرأتهم فى الحق ، ورغبتهم الاكيدة فى اصلاح المنكر أو مايعتقدون انه المنكر ، فلما قام السلطان محمود الثانى باصلاحاته المعروفة فى التاريخ التركى (بالتنظيمات) ثارت لذلك حفيظة بعض رجال الدين ومنهم البكتاشية ، وبينما كان السلطان مارا فى استانبول ، انطلق اليه درويش بكتاشى فقبض على زمام فرسه حتى أوقفه وقال فى وجهه : « ايها السلطان الكافر ، أما كفاك مااقترفت يداك ؟ لقد افسدت الدين ، وسيلعننا رسول الله ! » فالتفت احد اتباع السلطان قائلا « انه مجنون يامولاى وليس عليه حرج » ، وما سمع الدرويش ذلك حتى احتدم غيظا وقال : « كلا ، لست بمجنون ، انت المجنون أيها السلطان الكافر ، ان الله يتكلم بلسانى ، وسيزين رأسى تاج الشهداء مادمت قوّالا بالحق . »

فقال السلطان : « حسنا زينوا رأسه بتاج المجد » ، ففهم من ذلك حكمه عليه بالموت .

الحمامات سمة من سمات الحياة الشرقية على العموم ،والتركية على الخصوص ، وقد زخرت مدينة استانبول بالعدد الوفير منها ووجد الجوابون فيها تلك المشاهد التي تروى نفسا ظمأى إلى رؤية العجيب ، وتقر بها عين تواقة إلى المزيد من كل جديد ، أما الكاتبون فاستقوا منها صفحات تفيض رقة وعذوبة ، وتحدثوا عنها حديثا طليا كأنه يجرى على ألسنة الحور العين وجميلات الأساطير . وإذا ذكرنا هذه الحمامات فنحن لامحالة ذاكرون بها قولة من قال ان رقى الأمم وتقدمها على قدر عنايتها بالتنظف والتطهر .

ولنا أن نميز الحمامات الخاصة من العامة ، فكان لوجوه

القوم حمامات تأنقوا فى تشييـدها وتزيينها ، أما السلاطين فى قصورهم ، نخصـوا أنفسهم بحمام كما خصوا كل حظيةمن حظاياهم وجعلوا هذه الحمامات آيات حسن وفن بقبابها العالية، ونافوراتها الجارية ، وأرائـكها المخملية ، ومرمرها الناصع الذى يغمرها بنور حالم كنور القمر ، يلتمع فيه ذهب الأباريق والـكيزان . ولنضرب المثل بحمام السلطان مراد الرابع الذى وصفه أوليا افندى سنة ١٦٣٥ فقال : « ختمت القرآن ذات ليلة فكان من سعد طالعى أن أحظى بمشاهدة الحمام السلطانى ، وهو حمام ليس له من شبيه فى الدنيا بمـا وسعت . فماؤه الدافق يجرى فى كل الجنبات من الحياض والنافورات ، منسابا فى أنابيب الذهب والفضة ، وان هذين المعدنين النفيسين يزينان تلك الحياض التى تنصب فيها المياه وتتجمع ، والعجب أن الأنبوبة الواحدة تمج من الماء ماهو حار وماهو بارد ، أما افريز الحمام فمن رخام تزاحمت عليه الألوان يبهر الأبصار ، وقدعطرت جدرانه بالعنبر والمسك ونضح عليها ماء الورد ، ونفح الطيب من مباخر لاتخبو جمراتها وتسربت الأضواء من نوافذ بهية منقوشة ، أما مقصورةاللبس فقد صففت فيها مقاعد من تبر ولجين ، وكان هذا الحمام على ربوة

فكأنه يمس الجوزاء فى عليائها بقبة عظيمة من الرخام اللامع وكل نافذة له على البحر مطـــلة ، وللمطربين غرفة إلى جانب باب المقصورة . »

ويحكى عن السلطان محمود الأول المتوفى سنة ١٧٥٤ ، انه كان مولعا شديد الولوع بحريمه ، محبا لتسريح الطرف فى محاسن النساء ومفاتنهن ، فطلب ذلك يوما بحيلة لا نعدم فيها الطرافة والفكاهة ، واختار مكانا مرتفعا يخفيه ليشرف على الحمام ويرى من فيه من حيث لا يرى ، وتلبث فى مكمنه برهة حتى دخلت الملاح ، ومنحت كل منهن غلالة رقيقة من حرير عند دخولها على مألوف العادة ، ولبستها على جسدها العارى حتى إذا تندت عرقا ، كشفت عما كانت تستره بعض الستر ، فامتد بصر السلطان وخفق قلبه ، غير ان متعته لم تكن لتنتهى عند هذا الحد ، لأنه أوصى بأن تكون هذه الغلائل مخروزة لا مخيطة ، وكان يداخله من الطرب مالا مزيد عليه إذا صهرت حرارة الحمام ذلك الغراء الذى يمسك شق غلائل الحسان ، فيتملى منهن حسن الزهرات البيض تفتقت عنها الأكمام .

وما دمنا نذكر السلاطين فى حماماتهم فلا بأس أن يتغلغل

بنا القول إلى الشاعر التركى احمدى المتوفى سنة ١٤١٢ والذى التقى بالعاهل تيمورلنك فى مدينة اماسية ، فقربه اليه ورفع منزلته لأنه كان مشغوفا بالشعراء مكرما لأهل الأدب . فقال يوما للشاعر وهو فى الحمام : « قوّم لى هؤلاء الولدان بثمن » ، فقال احمدى ان بعضهم يساوى ملء الأرض ذهبا وفضة ، وبعضهم الآخر يساوى خراج مصر إذا أدته دراً وجوهر . ثم سأله تيمورلنك وقد انتفخ زهواً « ان كان هذا ثمن الولدان فماذا يكون ثمنى أنا عندك ؟ » فأجاب احمدى بقوله : « انت عندى بثمانين دانقا » ، فادركت العاهل حيرة ، وألهبت وجهه غضبة ، غير انه ملك نفسه ولم يخرج عن طوره وقال : « انىّ يكون ذلك وتلك المنشفة التى بيدى تساوى الثمن الذى ذكرت ؟ » فكان من جرأة الشاعر أن يقول : « هو هذا ، فالثمن ثمن المنشفة ، انت لاتساوى شيئا ، لأن نفسك الامارة بالسوء لاتعدل عندى دانقا . »

واعجب من هذا الكلام ان الطاغية كظم غيظه وأحسن جائزة الشاعر ، فأعطاه الرضا وفوق الرضا ، وكان الظن كل الظن انه لاشك قاتله .

ومن شعراء الترك الماجنين من يدعى محمد شلبي ولقبه

(الأخ المجنون) لخلاعته وغوايته ، وقد كان من ندماء الأمير قورقود بن السلطان بايزيد الثانى وصحبه فى رحلته إلى مصر ، وقتل الأمير فارمض الشاعر الحزن عليه ، وانصرف عن الدنيا لانصرافها عنه ببشاشتها ، وانزوى باحدى التكايا فى مدينة بروسه ثم ابتنى فى استانبول مسجدا وحماما عاما ، وكان هذا الحمام ملتقى لخلعاء هذه المدينة يسعون اليه للهو والقصف وقضاء اللبانات . وما مر خبر هذا الحمام بسمع الصدر الأعظم ابراهيم باشا حتى أمر مائة من الانكشارية فسووه بالأرض هدما ، فانسى الخلعاء ذكرى محمد شلبى الذى مات سنة ١٥٣٤ .

وفى عهد السلطان عبد الحميد الثانى ، عهد الظلام والظلم ، تناقل الترك من أبناء الشعب أقصوصة مستملحة يذكرون فيها الحمام فيقول قائلهم ان السلطان عبد المجيد كان فى حمامه فى اليوم الثانى والعشرين من سبتمبر سنة ١٨٤٢ فما راعه إلا أن يدق عليه بابه من يبشره بغلام اسمه عبد الحميد . ففرح عبد المجيد للبشرى غير انه تأسف الا يكون معه ساعتئذ ماينبغى أن يدفعه إلى البشير من ذهب أو جوهر ، فتطير بذلك وقال فى نفسه ، ستكون أيام عبد الحميد أيام شؤم !

وقال حكيم من الترك ، يزع قومه عن مجانة الحمامات وما قد يفرط من بعض من يغشونها أو يغشينها : « انما الحمام مجلبة للشر عليكم يامعشر الترك ، ففيه تتشدقون بهراء لاطائل تحته وتلاعبون خدامه ، فكنتم العار والشنار لامتكم التركية التى فتحت البلاد وسادت العباد فى سالف الايام . وفيه تقضى نساؤكم ساعات متطاولة وهن يتجاذبن احاديث الهوى والفتون ، ويطعمن ويحتسين من القهوة والشاى اكوابا بعد اكواب ، ، ولا كلام لهن إلا عن الترهات والخزعبلات ، وهناك بنات الروم اللاتى يعلمهن غرام بنات الروم ! »

وكان من جراء ذلك ان اصدر الصدر الاعظم محسن زاده سنة ١٧٦٨ امرا بمنع تشييد حمامات جديدة فى استانبول ، محتجا بأن هذا الصنيع سيوفر للناس الماء والاخشاب .

وكانت هذه الحمامات تفتح أبوابها للتركيات فى أيام السبت ولليونانيات فى ايام الأربعاء ، اما بقية ايام الأسبوع فكانت للرجال . وجدير بالذكر ان الحمام كان لنساء الترك فى الغابر بمثابة الملهى فى الحاضر ؛ فكن إذا عقدنا العزم على الذهاب اليه ، اتخذن لهذا الأمر اهبته ، فصحبن جواريهن واطفالهن ، واكواما

من ثيابهن ، ولم يفتهن ان يحضرن كل ادوات الزينة ، ويتزودن زادا كثيرا ، فيحملن معهن سلال الفاكهة وصحاف الطعام واقداح الشراب لقضاء صدر النهار أو طول النهار فى الحمام . فاذا اجتزن الباب استقبلتهن سيدة ذات سن هى القائمة بأمر الحمام ، فتحييهن ببسمة مشرقة وترحب بهن ترحيبا حارا بعبارات معسولة ، وهناك يدخلن مقصورة يتجردن فيها من ثيابهن ، ثم يزايلنها إلى بهو واسع تتردد تحت قبته رنات الضحكات واصداء المكالمات ، حتى إذا قضين من الاغتسال حاجتهن ، دخلن مقصورة أخرى طيبة النسيم ، فارتدين بعض اورديتهن وجلسن على الارائك او تربعن على الحشايا ، واسلمن شعرهن للجوارى فتناولنه بالترجيل والضفر والتسكين ، وسكبن العطور عليه سكبا ، ثم يمددن ايديهن لتخضب انامهلن واكفهن بحمرة الحناء .

وإذا ماتم لهن ذلك تحلقت اسرابهن حول الطعام فاصبن من الوانه المتعددة ، اوخضمن فاكهة لذة للآكلين . ويندر الا يكون بينهن من لاتدخن دخينتها ، او تنفث السحائب من نار جيلتها . أما حديثهن فطويل طويل ، وهو يدور ابدا حول محور واحد هو الزواج وما فيه من وفاق وشقاق ، وما اكثر مايتم الاتفاق

على تزويج الصبايا ، واختيار بارعة الجمال زوجة لعظيم المال . .
وجرت العادة بدخول الفتاة الحمام قبل ليلة عرسها ، فتطوف حول النافورة فى موكب من اتراب يرفعن صوتهن الاغن بعذب الأغاريد . وقد برز جمالهن العارى فتألف منهن مشهد لا تصوره إلا عبقرية الشعراء .

اما المطافيل من النساء فكن يقمن فى الحمام مهودا تدل على اتساع الحيلة ، وذلك بأن يشددن حبلين الى عمد الحمام ، ويضعن على الحبلين وسادة وثيرة ، فيرقدن الطفل ويهززن مهده حتى ينام . والجوارى فى الحمام يقطعنه جيئة وذهابا ، وعلى رءوسهن دست من ثياب ، وفى ايديهن قوارير العطر ، فيسعين إلى سيداتهن بما يشتهين ، ويدرن عليهن اقداح القهوه والشراب . ومما يميزهن عن غيرهن انهن لا يكشفن إلا عن صدورهن ، ولا يجلبن الحسن بالتزين والتطرية . ومن أصدق ما وصف به النساء فى الحمام أبيات قالتها سائحة انجليزية شاعرة وهى : « هى ذى المليحة منسطحة على حشيتها المزركشة ، وفى جبينها سهوم . ولعينها سجو الأحلام ، لكأنها الزهرة المطلولة ! والى جانبها ركعت جاريتها تصفف لامع طرتها ، وتنثر قطرات العطر على وجه غمرته الرؤى ، فتزيدها حسنا إلى حسن وفتنة على فتنة . . »

الأسير

قصة للكاتب التركى عمر سيف الدين المتوفى سنة ١٩٢٠ وهو من كتاب الترك المجيدين أولى التبريز ، وقد جرت عادة القصاصيين من أهل زمانه بأن يتخذوا استانبول دون غيرها مسرحا لقصتهم . واليه يعزى فضل التجديد ، لأنه أول خارج عن مألوفهم ، فصور غيرها من البيئات ، وافتتح جديدا من الآفاق ، كما مجد قومه وحيا اسلافه فيما كتب ، وهذه القصة مثال لذلك .

كانت أكمة صغيرة على البحر مطلة ، تناوح آفاقا ليس لها من نهاية ، فبدت فى رأى العين كما تبدو الخميلة ذات الأزاهير ، وقد تموجت هيف الظلال لطويل الأغصان فى شجرات اللوز

ورفت على شعب يهبط منحدراً إلى الساحل . وتحركت نسمات عذاب فى مقتبل الربيع أسكرت طير البحر ، فاهتز الفضاء منها بصيحة المعربد النشوان . وهناك جاور أشجار اللوز بستان أفيح ، وسال إلى الوادى جدار أبيض الحجارة قليل الارتفاع يحد خلفه مزرعة للزيتون . وقام فى وسط البستان كوخ متضائل خرب لا باب له يخرج منه شيخ مشرق الرأس واللحية بالبياض مرتعد اليدين والساقين ، وجعل يرنو إلى بحر يلتقى بالسماء خلوه وسكونه حتى قال فى نفسه :

ـ خيرا ان شاء الله !

وتهالك على كومة من الأحجار فى نهاية الجدار جاعلا رأسه بين راحتيه ، وقد اكتسى ظهره سملا رثا هو غرارة خرقاء ، وكأنما عجنت قدماه بالثرى ، أما ذراعاه النحيلتان فكان لهما لون النحاس المتسخ ، ثم رفع رأسه إلى حيث تنطبق السماء على الدأماء ، وكأنه يرى مالا عين ترى .

* * *

كان هذا المسكين أسيرا تركيا ، يرى كل ليلة فيما يرى النائم ان السفائن قادمة لفكه من أسره ، بعد أن سلخ فى الأسر أربعين

عاما أو تزيد ، وقد وقع فى أسر قراصنة مالطة وهو بطل صنديد له من العمر ثلاثون عاما ، فعالج جـــذب المجاذيف فى سفنهم عشرين سنة ، وعاش عشرين بعدها فى قاع السفينـة الرطب موثق الساق بالحـــديد ، وعجزت هذه الأعوام المتطاولة ، بصيوفها وأشتيتها وشموسها ورياحها ، عن أن تذيب له جسدا كأنما أفرغ من الصم الصلاب ، وبليت قيوده وتحطمت وأصلحت حلقاتها تـكرارا ، غير ان بأسا لم ينل ساقين له أشد من الحديد بأسا ! وشيء واحد كان يغمر نفسه بشديد الأسى وهو عجزه عن أن يتوضأ ، فـكان يجعل مشرق الشمس على يسرته ، ويستقبل القبلة بوجهه ، ليقيم بالاشارة صلواته الخمس سرآ .

ولما بلغ الخمسين من سنيه ، زهد القراصنـة فى وجوده عندهم وقالوا انه لم يعد يصلح لتحريك المجاذيف، فباعوه فى احدى الجزر ، واشتراه أحد الزراع . ولم يكن يقدم إليه طعاما سوى الخبز بلا أدم ، وأمضى على هذه الحال عشرة من الأعوام ،غير انه طاب بذلك نفسا ، وحمد الله أن أطلق ساقه من أصفادها ، فتمكن من الوضوء وعرف قبلته فاتجه اليهـا ، وصلى بآيات لم ينسها ودعا ربه . وكان قصارى أمله أن يعود الى وطنه ، ولم

ينفض يده من هذا الأمل طوال أعوام ثلاثين وهو يقول : « اذا اعتقدت انى سأبعث حيا ، فأنا كذلك معتقد انى أعود إلى وطنى . »

وكان من أوسع الملاحين الترك شهرة وأشرفهم سيرة ، وقد اجتاز بوغاز جبل طارق وهو فى العشرين متجها إلى الشمال الشرقى ، ودامت رحلته شهورا دون أن يرى الشاطىء ، وتحصلت له الجزية من سحيق الجزر ، وطالما أغرق كبير السفن وصغيرها وحده بزورقه الخفيف ، كما دار اسمه على الألسنة كما تدور أسماء أبطال الأساطير .

وركب بحارا فيها من الجليد جبال وجزائر ، ودنياها غير دنيانا ، لأن ليلها الرهيب نصف العام . أما زوجته فكانت من ذلك العالم العجيب الذى لا يعرف إلا ليلة طويلة ونهارا طويلا ، وبنى عليها فى عرض البحر ، وفى سفينة مفعمة بالذهب والفضة واللؤلؤ والماس ، موقرة بالأسارى . وأنجبت له ولده « طورغود » وهو يمر بالدردنيل . ولم يمح كر الأيام مدينة استانبول من خياله ، فكان على ذكر من أفقها وما يرتسم فيه من سامقات القباب والمآذن ، ولما علت سنه ووهت قوته ، رأى مولاه أن يعتقه

فتركه نهبا للجوع والشقاء هائما لايلوى على شىء .

واهتدى الشيخ إلى هذا الكوخ الخرب فى البستان ، فدخله وارتضاه مأوى له ، وكان يهبط المدينة بين الفينة والفينة ليعمل بها ، ثم يعود إلى كوخه برزق ضئيل .

واختلف الجديدان ، فضعف الشيخ ولم تبق فيه بقية ، وكره صاحب البستان بقاءه فى بستانه فأين يذهب ؟

وعادته تلك الرؤى التى كان يراها من زمان بعيد ، ويشاهد فيها مقدم الترك إلى جزيرته بسفائنهم ، فمد يده النحيلة المعروقة إلى عينه يمسحها ، وردد فى آفاق البحر بصره ، وترجح عنده انهم لاريب قادمون . وقال ان حلما يراه هذا الزمن الطويل لايمكن الا أن يتحقق ، ودخل كوخه ، وانسطح على أرضه ثم أغمض عينيه .

وأشرق الربيع باسما فى كل الجنبات ، فكأن الأمل فى بسمته المشرقة ، وخيل اليه ان طير البحر تبشر بقدوم الترك ، وهى ترسل الشجى من أصواتها ، فأعارها السمع وهو فى الخيال يهيم .

وكانت خشاش الأرض وهوامها تخرج من شقوقها فى جدران الكوخ لتدخل ثوبه وتتواثب على بياض لحيته ، ورأى

الشيخ الأسير سفن الترك تدخل فرضة البحر ، وتنزل منها كتائب الجند إلى الشاطىء ، وعرف العلم الأحمر من بعد ، والتماع الشمس على السيوف والتروس .

* * *

وهب من نومه وهو يقول : « ها هم أولاء أبناء الوطن ، ها هم أولاد أبناء الوطن . »

فقام ورمى ببصره إلى البحر ، فرأى السفن القادمة بقلاعها العظيمة ومجاذيفها الكثيرة ، فتغيرت سحنته وبرزت مقلته ووجب قلبه ، ووضع يده على صدره ، هاهى ذى سفن الترك تقترب رويدا رويدا . لم يصدق الشيخ عينه ، وظن نفسه من الحالمين ، وأراد أن يستوثق من يقظته فعض بنانه ، ودق جبهته بحجر صغير ! فتحقق واقتنع ، ورأى فى اليقظة ما كان يرى فى المنام ، تلك هى السفن تظهر الواحدة تلو الأخرى من وراء أنف الجبل ، ولم تتماسك ساقاه عجبا وفرحا ، فجثا راكعا ، وكانت كتائب الجند تتقدم نحو القلعة ، رافعة حمر الأعلام ، بعد انتظار الشيخ لها أربعين عاما !

وفجأة سمعت فرقعة لعظامه ، وانطلق فى طريق تظله شجرات

مزهرات ، واخذ سمته إلى الشاطىء وجرى ماوسعه ان يجرى ، ولما رآه الجند منطلقا نحوهم قالوا :

— قف !

غير ان الشيخ لم يقف ورفع عقيرته قائلا :

— انا تركى .

— ...

وانتظر الجند وصوله اليهم ، فما وسعه الا ان يعانق اولهم وعينه تفيض من الدمع ، فتأثر كل من شاهده ، ولما اعقب الجلبة بعض السكون سألوه قائلين :

— منذ كم وانت اسير ؟

— منذ اربعين سنة .

— من اى بلد انت ؟

— من ادره ميد .

— ماسمك ؟

— قارامش

— أقبطان انت ؟

— نعم

وماج الجند بعضهم فى بعض واختلط لغطهم ، وتصايحوا قائلين . « اخبروا البك ، اخبروا البك » واخذوا بعضد الشيخ ومضوا به الى ساحل البحر ، واركبوه زورقا حمله الى سفينة عظيمة ، ولم يكن فيهم الا من عرف مناقبه ، وسمع بصيته الرنان.

وقد تلبث الشيخ قليلا ، واذهلته الفرحة برؤية ابناء وطنه بعد طول الزمان وشدة الحنين ، ثم منح قلنسوة وقباء وسراويل فما لبسها حتى قالوا له : « هيا بنا الى البك ! »

وسار فى صحبتهم إلى مؤخرة السفينة ، حتى وجد نفسه امام رجل ربعة ، عظيم الشارب اسوده ، يلبس زرد الحديد على ثيابه المزركشة .

— أأنت القبطان قرامش ؟

— نعم انا .

— اصادق انت فيما تقول ؟

— وما بالى اكذب !

— اذن ، اكشف عن ذراعك .

واخرج الشيخ ذراعه من تحت القباء وبسطها الى البك ، فبدت فيها ندبة عميقة لها شكل الصليب ، وهى اثر جرح اصيب

به يوم هرب بزوجته من تلك الجزيرة التى عامها ليلة واحدة يتلوها نهار . فما رأى ذلك الابك حتى تناول يد شيخ وا كب عليها يقبلها وهو يقول :

ـــ انا ولدك !

ـــ انت طورغود ؟ !

ـــ نعم

ـــ ...

وقد استخف الشيخ الطرب حتى غاب عن حسه ، فقال له ولده :

ـــ انا ماض الى القتال ، فابق فى السفينة واركن الى الراحة والدعة .

ـــ كلا ، انا معكم فى قتالكم .

ـــ ولكنك هرم ، علتك الكبرة ورق عظمك .

ـــ نعم ، غير ان لى قلبا مازال قويا فتيا .

ـــ اقنع من ذلك بأن تشاهدنا ، ولتسترح .

ـــ انى احن الى الهيجاء منذ اربعين سنة .

ـــ ستغلب ، وسيحزن الوطن افتقادك .

وأراد له البقاء فى السفينة ، فاعتدلت قامة قاراممش، وكأنما ارتدت اليه شبيبته ، ولم يطق على البقاء صبرا ، فطلب السيف والترس ، واشار الى علم السفينة الخفاق وهو يقول :

ـــ اذا ما استشهدت ، فلتجعلوا هذا غطاء على جثمانى . اليس الوطن حيث يخفق العلم ؟

مصر في الشعر التركي

كان لبعض من شعراء الترك وفادات على مصر قبل الفتح التركي و بعده ، فقدمها الامير جم وهو شاعر انيق الشعر رقيقه نزل ضيفا على قايتباى ايام نازع العـرش اخاه بايزيد وهاجت الحرب بينهما ، وجاء مصر من الأمراء الشعراء ، اخ للسلطان سليم يقال له الامير قورقود ، ومعه نديمه وشاعره الماجن محمد شلبي الذي كان شديد الاختصاص به لا يفارقه في سفر ولا حضر ، ولما تجهز السلطان سليم الاول لفتح مصر ، لم تفته دعوة الشعراء الى صحبته ، ليـكونوا رفقة معه تؤنس وحشته ، ويتسلى بها من كل هم ملم . وهو من يعز العلماء ويكرم الشعراء ، لأنه كان شاعرا ديوانه ريحانة اهل الأدب .

ومن ندمائه الشعراء في سفرته الى مصر ، اسحق شلبي ، وكان جهينة الاخبار حلو الاسمار كثير الاضاحيك راوية يستمد من

بحر لا ينفد ، ومعه شاعران مزاحان ضحاكان لهما اتساع خبرة بأدب النديم ، فكانوا ثلاثتهم يسامرون السلطان ويسرون عن نفسه ماقد يغشاها من هول خطب واقع او متوقع . واتفق لهؤلاء الشعراء الثلاثة يوما ان رفعوا التكلف كما لم يرفعوه من قبل ، وتبسطوا مع مولاهم ، ورأوا من الظرف والدعابة ان يمسوه بسيوفهم ، فغضب السلطان عليهم واكبر ذلك منهم ، وبلغ به السخط ان يأمر بقتلهم ، إلا ان الغضب سكت عنه فاستبدل بالقتل الضرب ، ثم احسن العفو عنهم ، وجهد الشعراء ان يسترضوه فدخلوا عليه من الغد فى ثياب رثة منشدين شعرا ماجنا هزليا ، غير ان السلطان عبس واشاح ، وقال لهم : « اريدكم منادمين لا مضحكين »

وكان كمال باشا زاده من اتباع السلطان سليم ، له عنده دالة وحظوة فاصطفاه رفيقا له مقربا ، وكان شاعرا عالما ، فناط به أن يترجم كتاب النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ، وامتثل الباشا أمر السلطان ، وأطلعه كل يوم على القدر الذى ينجز ترجمته من الكتاب ، فما دخل سليم مصر إلا وهو على علم بتاريخها ، وأخبار ملوكها .

والعجب أن أحدا من كل هؤلاء الشعراء الذين اسلفنا ذكرهم لم يخص مصر بشعر له فيما نعلم ، اللهم إلا إذا استثنينا قول الاميرجم فى أبيات له بالفارسية انه وعمود المقياس شبيهان ، فهو غريق فى ماء الدمع والعمود غريق فى النهر ، وقد ذكر النيل عرضا فى شعره التركى وقال ان القناديل مصففة على شاطئه .

وللسلطان سليم بيت واحد فى ديوانه الفارسى وهو :
« لى همة عالية جعلت من والى مصر عبدا لى مخلصا فى طاعتى ، ومن ممالك تسع رفعت لوائى . »

وليس بخاف أن تلك أشارات ضئيلة عابرة لا يعتد بها فى هذا الصدد ، غير أننا إذا تجاوزنا عهد السلطان سليم وهو فى القرن السادس عشر ، إلى القرن السابع عشر ، الفينا الولاية على مصر تسند إلى أيوب باشا ، فيزايل استانبول لتسلم أزمة الحكم ومعه شاعر من بطانته يقال له فهيم . وليس فهيم هذا بالشاعر المرموق المكانة عند أهل الأدب من الترك ، فبعضهم يطوى ذكره وهو يؤرخ الشعر التركى على أنه ضعيف الشأن خامل الذكر فى دولة البيان . والذى نرى أن هذا الشاعر المغمور

مظلوم ، فنحن لا نعدم فى شعره روعة وجودة ، كما نرى له اهمية فنية وتاريخية ، لأننا نجد عنده ما لا نجد عند غيره ممن تقدموا عليه فى الزمن ، أو بذوه وبهرت اشعارهم أشعاره ، فقد ذكر فهيم مصر ، ووصف نيلها أجمل وصف فى قصيدة طويلة ذيلها بمدح الوالى أيوب باشا ، ومنها :

« انظر بعين العبرة إلى حسن ما صنع الرحمن ، لقد جاش هذا النيل وفاض ، فكأنه من تخالجه شوق اللقاء . حمدا لله ، لقد سقطت على المقياس نقطة من قلم القدرة ؛ فكأنها إنسان عين غمرها دمع الحنين . ونال من الوصال ما ينال العاشق الولهان ، وارتسمت موجاته حلقات ، ولسان حاله يقول : أنا من جن حبا ، وتلك أغلالى وأصفادى . وما دام فى قلب النيل للهوى خفقات ، فاى عجب أن ينطلق إلى البرارى والصحارى شأن محب ذهب عقله ؟ ولئن كانت له هيئة من به جنة ، فان لقلبه صفاء مرآة ينعكس فيها الوجد والوجدان . النيل طغى وفاض كأنه الطوفان ، وها هى ذى أمواجه تركض ، ويلوح عليها أنها على أسنمة نياق تمضى بها . وانسابت الحيات العظيمات من ركن خفى إلهى تتثنى وتتلوى ، حتى انسلت إلى

منعطفات المزارع وهى تمج لعابها . ما أعظمها حكمة واعجبها معجزة ، فان لهذه الحيات لعابا يحي الأرض بعد موتها ، لقد انكشف السر الذى يخرج الحى من الميت ، فتأمل ماء الحياة منبجسا منها .

وبدت فى وسط النيل نخلات ما أشبههن بسرب من الحسان يبتردن، وقد ثارت رءوسهن وتفرقت شعورهن . وما رأى الزراع للنيل تيارا حتى نثروا الحب ، فنصبوا بذلك الحب شباكا لطير الرزق ، ولما فاض وكثر ماؤه ، طفح وعاؤه ، فخرج عن طوره وثارت ثائرته وبسط لسان القدح فى البحر ! »

فهذا شعر تستعصى روعته على الترجمة وجمال تشبيهاته فى حدود الغاية ، وقد تزاحمت معانيه وغمرته نفحة صوفية تعددت رموزها . وانه لتصوير جميل للنيل زمن فيضانه ، فهو فى خيال الشاعر محب مشتاق يقدم من بعيد ويرتجى وصل الحبيب، ثم يوصف متدفقا بالخصب والحياة حتى يرتمى فى البحر ، وشاعرنا موفق عظيم التوفيق فى تشبيه للزراع وهم يخططون ارضهم وينثرون فيها الحب ، بمن ينصب الشباك لطير الرزق .

وهذه القصيدة مثال جيد لفن فهيم ، الذى عاش فى بداية

عصر يعرف فى الأدب التركى بعصر التحول ، اى التحول من عصر قديم كان شعراؤه يلزمون انفسهم طرق المعانى الصوفية ، إلى عصر تحرروا فيه من هذا التصوف بعض التحرر ، فتحدثوا عمـــا يقع تحت حسهم وعبروا عن ذات نفسهم ، فقد مزج التصوف وما فيه من اطياف واحـلام بالواقع الذى لامجال فيه لريب ولا جدال .

وشاعرنا يخرج من كل هذا ليدخل على الوالى مادحا ، الا انه يعود الى النيل متحدثا عن الاحتفـال السنوى بوفائه فيقول « ومضى باليمن والاقبال ، فشرفت بمقدمه مصر العليـا ، وعز القصر والايوان ، وتحـلى النيل بالزين والزخارف ، فـكأنما تزينت زليخا للقاء بدر كنعان هذا المستوى على عرشه . واصبح النيل عروسا تمشط المواشط شعرها ، وما اشبه القوارب على صفحته بامشاط ، والمجاذيف اسنانها . وبدت عروسان فى الوشى كـأنهما ذيل طـاووس ، او حوريتان من حور الجنة تتخطران وتنظران ، لاخبار رضوان بأن فى الدنيا مايشبه الجنان ! »

والشاعر هنا وصاف بارع يتكىء اكـثر مايتكىء على تشبيه مبتكر يكسب شعره جمالا وفتنة . وفهيم شديد التأثر بالنيل ، فهو

فى شعره كثير الذكر للامواج والبحار والامواه .

وقد ساءت فى مصر حال هذا الشاعر ، لان جفوة وقعت بينه وبين مولاه ، فتنكر له وقطع كل سبب كان يربطه به . اما فى اى شيء كان غضب ايوب باشا عليه ، فهذا ماسكت عنه المؤرخون . وايا ماكان فان سوء حاله اثار فى نفسه السخط على مصر واهلها ، فلم تطب له مستقرا ؛ وردد فى شعره شكوى الفاقة ونكد العيش ؛ فقال ,رما وهو سؤوم : « على عهد الله لا دخلت بعد اليوم من باب لمصر ولو قيل لى انه باب الجنة ، ولا شربت لها ماء ؛ وان امرنى الخضر بأن اشرب منه ماء الحياة ! ولو جعلت شمسا ما اخترت البزوغ فى افقها ، ولو كنت قمرا ما استمددت النور من شمسها . ان اليأس يخرس البلابل فى بساتينها ، وللغربان نعيق يرن صداه فى طلولها . لقد شاهدت كثيرا الا انى لم اشاهد فيها رجالا ، وما ذاك الا لأن عينى غائمة من خمار خطوبها ، وعلى بصرى غشاوة من ترابها . من دخل النار وصف لأهلها مايخلع قلبهم رعبا من عذابها ، فلأداوم على اكل الخشخاش حتى تأخذنى سنة ونوم . ولا افيق من غفلتى عنها . »

فالشاعر حزين حزين ، يستعين على العزاء ونسيان الغموم

بنشوة لايريد الافاقة منها كراهة ان يراها او يرى اهلها ، غير أنه لم يدم على سوء ظنه بأهل مصر ، لانه وجد منهم من فك كربته وكشف غمته ، فلما عقد العزم على الرحيل اعوزه المال ، ورأى ان يلوذ برجل عريض الثراء يقال له معالى بك ، كان سمحا كريما يغيث اللهفان ، فمدحه رجاء خير يصيبه منه ، ومال يتزود به لرحلته الى استانبول ، فاغدق عليه معالى بك من عطاياه واجازه بجائزة سنية ، ثم الحقه بتلك القافلة التى كانت تحمل الخراج فى كل عام الى السلطان .

وانطلق فهيم مع القافلة قافلا الى وطنه ، وفى احدى مدن الاناضول اصيب بالطاعون ، ولم يمهله الموت حتى يفرح فرح الغريب بأوبة وتلاق ، فما شاهد استانبول ، ومات غريبا بالاناضول كما عاش غريبا فى مصر ، وكان موته عام ١٦٤٥ .

وشاعر آخر من شعراء الترك سكن مصر اعواما عشرة وذكرها فى شعره ، هو محمد عاكف المعروف فى تركيا بشاعر الاسلام ، لانه كان ذا نزعة دينية ، فدعا الى اتحاد المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها تحت راية القرآن ، وفى جمهرة اشعاره تفسير لآية كريمة او حديث شريف ، ولنا أن نعتبره اول

داع الى مايعرف بالجامعة الاسلامية فى شعر تركى محكم النسج رصين الأسلوب . وقد شتا بمصر من عام ١٩٢٣ الى عام ١٩٣٥ واتخذها مستقرا له فلم يعد الى استانبول الا سنة ١٩٣٦ ، وهى السنة التى كانت وفاته فيها ، كما طبع بمصر الجزء السابع من ديوانه المسمى (صفحات) وشغل نفسه طوال هذه الأعوام العشرة بتدريس التركية فى الجامعة المصرية ، بعد ان تأكد الود بينه وبين الأمير عباس حليم باشا الذى بذل له القرى واكرمه كثيرا اما الباعث له على الرحيل الى مصر ، فضيقه بالمقام فى تركيا ، ويأس خيم على نفسه من حياة لاتدور ايامها ولياليها كما يهوى ويرضى ، ومن ثم وجد الحاجة الى سياحة فيها تفرج هم ، وغرب لتتفتح عيناه على دنيا اخرى قد تكون من دنياه خيرا وابقى ، ورأى فى ذلك احياء الآمال ، كما اعتبره جهادا وسعيا فى مناكب الارض يذكره بقوله تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » . وقد اورد هذه الآية فى تضاعيف رسالة له ، منها : « كلا كلا ، اليأس حس مشئوم انكد ، فلنباعد بينه وبين قلب عامر بالايمان ، واذ ماخذل التوفيق انسانا ، ومات فى سبيل امل يحققه ، فان موته حياة اخرى . قيل لنملة تسعى ، الى اين ؟ فقالت الى الحج

قيل كيف تخرجين للحج على ضعف سوقك ! فكان منها ان قالت : « ان حال ضعفى بينى و بين بلوغ بيت الله ، فليكن فى السبيل اليه موتى . »

و بين الشاعرين التركيين فهيم و محمد عاكف وجه شبه ، كبير وغير كبير ، اما الوجه الأول فهو انهما جميعا وصفا النيل فى شعرهما ، والثانى ان فيهما كره المقام فى مصر ، اما محمد عاكف فكره ان يسكن القاهرة ، وابدى لذلك سببا قد ندهش ونبسم له ، فقال فى رسالة له بتاريخ ٢ مارس سنة ١٩٣٦ : «هبط مصر من الخارج يونان ويهود وارمن وطليان وروس ، وبهم جميعا من جهد الفاقة مالا يخفى . ثم اصبحوا اليوم من اهل الثراء والحول والطول . اما من جاء مصر من بلادنا فان بعضهم على حال نعوذ بالله منها !! وانى لاحسب ان اعتكافى بمدينة حلوان ، يعيننى على تحقيق رغبتى فى عدم مشاهدتهم حتى لاتذهب نفسى حسرات .»

ولمحمد عاكف قصيدة عصماء بعنوان « فى الاقصر » يتغنى فيها بالنيل وآثار الفراعين فيقول : « النسيم راكد ، وشدة القيظ لاتكاد تحتمل ، اما الشمس ، ففى الطفل . وقد انحدرت انحدارا وئيدا من ربوة كثيرة شجراتها . هوذا الوادى المخضوضر

يحتضن النيل ، وموجاته الزمردية تمتد امام ناظرى الى غير نهاية ، وهى تفور وتمور كأنها سراب الحياة . فما هذا القد الفارع البض وامتداده المديد الذى تعانقه الشمس من سمائها بعد أن عبرته من شرق الى غرب . وكان على يسرتى نخلة وحيدة اويت الى ظلالها المتفرقة المتخرقة . ماابهج ان يمتد البصر من هذا المكان الى الفضاء ، وقد ارتفعت الدور على الشطين كالاجنحة . واذا تأملت صدره البديع ، حلق الخيال بك كل محلق فى عالم غير هذا العالم ، ويبسم الوادى القديم وتبسم امواهه ورغبتها ان تثب منه وتخرج عنه . »

ثم يقف محمد عاكف عند هذا الحد من وصف النيل ، ويردد النظر فيما تعمر به الاقصر من خرائب ، فيناجيها ويناجى فيها مصر واهلها الاقدمين : « تلك الهياكل التى ملأت منها العين صبحا وجست خلالها ، هى حرص عنيف ضعيف لهذا الانسان على ان يكون من الخالدين ! وأراد ان يرفع له فى الفضاء ظلا ضئيلا ، فاتخذ من كل صخرة حجر قبر لألف حياة ! اما هذه الاصنام ، فقد اقام منها اشباحا مخيفة اولئك الذين كانت الأرض تسجد عند اقدامهم ، والعروش تهتز لتعبيس فى وجوههم . غير ان الزمن مد يد الكبرياء الى هؤلاء الطغاة البغاة ، فلم يبق منهم إلا انف

مجدوع او ساعد مكسور . وامتلأ الرحب بأشلاء من الانقاض لتكون عبرة لمعتبر ، فما على الوجوه مهابة ، وما فى الجباه غرور ، ومحا البلى كل اثر للملامح والسمات ! »

ولا يسترسل الشاعر فى وصف الآثار ، وانما يلتفت ثانية الى النيل فى ساعة الاصيل فيقول : « والآن ، اوشكت الشمس ان تنطفىء فارتعشت منها الاشعة فى الافق ، وركز وميضها الاخير فى ماء النيل عمودا نورانيا هاجت له الامواج وماجت . ثم اتخذت من الجبل ستارا لها يحجبها ، ومضت لتعرض الحسن فى آفاق أخر . وسكب المغرب روحه المعذبة وهو حزين وهبط الغسق على الأرض رويدا رويدا ، وتربد وجه النيل فهو مصفر ، اما عمود النور فهو داكن محمر . »

وهكذا تغنى بمصر ونيلها شاعران تركيان ، قديم مغمور ومحدث مشهور ، والذى نميل اليه هو ان نيل فهيم ابهى وأجمل من نيل محمد عاكف .

يقظة الليل

قصيدة من الشعر التركى العالى لجناب شهاب الدين بك المتوفى عام ١٩٣٤ ، وكان فى بدء أمره يتلو تلو الأقدمين من شعراء الترك ، حتى رحل الى فرنسا طلبا للطب ، فاطلع على الأدب الفرنسى وتأثر به تأثرا يتجلى فى هذا المثال من شعره الرقراق .

تعالى ياجميلتى ، بالله الا ماقربت مجلسك منى هذه الأمسية ، لتسترقى السمع معى باذن مصغية ، فان هذا الليل من حولنا يموج بالأنغام .

المعزف بعيد بعيد ، وله حنين ورنين ، لأن رقاق الأنامل تداعبه بلمسها الرفيق ، فكأن أرواح الخريف تخفق ثم تخفق .

فاملئى مسمعيك ياحبتى من حنينه فى أغوار الليل الساكنة وجوف الظلمة الخرساء .

إذا أدرك هذه الأنغام لين ورقة ، أو غشيتها للأسى وحشة وانكسار ، ذكرت بها بلبل البستان وهو يرجع فى شدواته العذاب .

أما اذا ماعرتها هزة النشوة ، فان زفرة الوحدة تغمر كل ما فى هذا السكون النائم .

لمن تلك اليد المرتعشة التى ترسل لحنا بعد لحن ؟ ومنذا الذى يرفع الصوت بذلك الغناء المحزون ؟ وأين هذا المحبوب الهاجر الذى ينطق الأوتار باللحن الكسير على ذكراه ؟ وأى مأتم يرتج بهذا النحيب ؟

وذاك الصوت يدق ويرق ، ويطيل فيه الليل بترجيع أصدائه فتصغى اليه ظلمات بها سكات ، وقد يعلو ويدوى فيهتز الوجود وينخلع قلب الدنيا ! فأشهق شهقة تمضى عنى فى الليل المظلم جاهدة أن تحرك روح الصمت .

ثم ينخفض رويدا رويدا ، وينقطع كأنه يتلاشى ويمحى حتى يسكن سكونا ، وينقطع انقطاعا ، ولا يتبقى من هذه النغمات التى كانت تداعب السكينة إلا أنين خفى .

فمن يدرى ما تحكى هذه الزمزمة العابرة واللحون البواغم ؟

ومن يفهم هذا الجرس الذى يطرق المسامع كألطف مايكون الطرق وأعذبه ؟

وما هذه الشكاة المترددة بألفاظها التى لم تتم وجملها التى لاتفيد معنى ! ؟

لعلها تستعطف الليل الساجى ، أو تلتمس السلوة والعزاء ، وتصنع مايصنع النسيم اذا هب فنطق وطال منه مايقول ، ثم تنطلق من كل صوب تطير وهى بالآمال والخيال مفعمة . أما اذا وهنت فهى كبقية الروح إذا ترددت فى صدر المحتضر ، وما أشبهها بضعاف طير تتناوح .

هو ذا المعزف أسمعه من بعيد ، وما أحسب الا احدى بنات حواء تضرب به وتناجيه ، ثم تسأله فلا يرد عليها الا بحزين اليأس .

اسمعى يا حبتى ، فانها هى الباكية التى تنتحب انتحابا .

الطبيعة في الشعر الفارسي والتركي

للشعراء شديد ميل الى الطبيعة وفرط اعجاب بمحاسنها ، وقلما يخلو ديوان شعر من ذكرها أو وصفها ، فى قصيدة أو قصائد وبيت أو أبيات ، ففى آفاقها الرحبة متسع لروح الشاعر إذا انطلقت كالطائر الغريد يخفق جناحه فيحوم على غدير رقراق ويقع على فنن مزهر مياد ، وهى دنياه التى تحتوى عليه وتحيط به فلا يملك الخروج عنها ، والمشاهد انه يستوحيها معانيه ويصوغ منها زينة لبلاغته ، فالجميل عنده روضة حسن غضة الزهرات يانعة الثمرات ، والجواد بحر ، والحليم طود ، والمدامع أمطار ، الى آخر مايجرى هذا المجرى . وإن ورودها فى الشعر ليلزمنا التفرقة بين الشعراء وتحديد الأسباب التى تربطها بها . فهم ازاءها شاعران ، شاعر يكفيه منها نظرة عابرة تمر عليها مر النسيم ولا

تردد فى نفسه إلا أصداء خافتة ، وآخر يكرر البصر فيها ويستبينه حسنها ، فيختص بها ويتخذ منها عروسا للشعر . وفى مكنتنا أن نتبين ذلك جليا ، ونجعله أصلا نفرع عليه فروعا ، اذا نظرنا فى شعر الفرس والترك ، ضاربين الأمثال بشعرائهم ، ومستقين الأمثلة من أشعارهم .

فمن شعراء الفرس فى القرن الخامس الهجرى شاعر مداح يقال له فرّخى ، وقد عاش فى كنف السلطان محمود الغزنوى وأمير من أولاده ، كما ازلفه شعره عند الوزراء والكبراء ، وليس بدعا من مثله أن يكون المدح جل بضاعته ، غير انه كان يحلى أجياد مدائحه بأبيات حسان جمهرتها فى وصف الطبيعة ، وقد جعل هذا الصنيع من حقه علينا أن نعتبره شاعرا من شعرائها ، لتلك الجودة التى يتميز بها ، كما فى قوله يمدح السلطان ويصف سحابة : «وافت سحابة دكناء بعد أن مرت على صفحة بحر من الزرقة ، وكأنى بها نفس العاشق فى فورتها ، ومهجته الجياشة فى خفقتها . فاذرت ما كانت تمسك من مائها ، وعلى أديم السماء تفرق بعضها عن بعضها ، فكأن الفيلة تجمعت ثم تفرقت فى البيداء ذات السراب ولاحت السماء كما تلوح المرآة تحت الصدأ ، أو الشعر الذهبى

اذا انتثرت غدائره على حرير فى لون الفيروز . وكأن بحرا اخضر عليه أفراخ العنقاء تطير . »

فالشاعر موفق عظيم التوفيق فى رسم هـذه الصورة للسماء الممطرة بما يزدحم فيها من متباين الألوان والشكول ، كما وهب الحياة هذه السحابة اذ شبهها بقلب عاشق يحتدم لوعة ، ويريد ليفيض مما هو ملىء به ، واختار تشبيه بقاياها بالعنقاء لأنها منيعة تـكبر أن تصاد . وقال أيضا من قصيدة فى النوروز وهو عيد الربيع عند الفرس : « تتنسم ريح الربيع من بستانك أيها البستانى ، فاعطنا مفتاح بستانك لأن لنا به شأنا فى الغد ، واذا ماقدم البلابل للقاء الربيع فيه ، فاعلم بأن ضيفانك الـكثر سيقدمون من غير دعوة ، أما اذا ازهرت شجرات الورد فاعلم ان اريجها من طيب أحبابنا ، وان ربيع هذا العام لأجمل من ربيع مضى ، وأجمل منه الغد ، لأن السلطان يعود فيه من صيده ، فليكن كل عيد بهذا الجلال ويوم بذاك الجمال له عيد نوروز . »

وهو فى هذا الشعر يحدثنا حديثا هادئا طليا ، فلا يلزم نفسه تأنقا ولا تعسفا ، ولا يقصد الى تحديد للرسوم ولا توزيع للأصباغ ، وانما حديثه عن نفسه ووقع الربيع على حسه ، والغرض

واضح من جعل عيد الربيع مناسبة يفترصها لمدح مولاه وزف التهانى اليه . وقد جرت لشعراء الفرس عادة بتحية النوروز ، فجرهم ذلك إلى وصف الربيع ، ان اجمالا أو تفصيلا .

ومن أهل عصر فرخى ، أبو القاسم الفردوسى ، وهو صاحب الشاهنامه - أى كتاب الملوك - وهى منظومة من ستين الف بيت جمع فيها تاريخ ايران منذ أقدم العصور الى الفتح العربى .

والفردوسى فى الشاهنامه قصاص عظيم وراوية ، الا انه كذلك شاعر متصرف فى كل فنون الشعر ، فهو يروى الأخبار ويسرد التواريخ ولكن بلسان شاعر وبيان متفنن ، ووصف الطبيعة من تلك الفنون التى لم تضق عنها شاعريته فهو الذى قال :

« مازندران بلاد أحيا الله ذكراها ، وأفعم بالعمران ارجاءها على مر الزمان ، فرفت الأزاهير فى بساتينها ، وأنواع الرياحين فى رباها ووديانها . وصدحت العنادل على غصونها ، ورعت الغزلان فى مروجها . ودامت للنضرة بسمة على شطآن الغدران وطاب أن يصاد بالبازى فى كل مكان . »

فهذا وصف ساذج للطبيعة فى بلد يدعو له الشاعر بدوام الربيع والخصب واستبحار العمران . ولا يعد هذا شيئا اذا

ذكرنا ان الفردوسى وصف شروق الشمس وغروبها فى الفى بيت واربعمائة ، وله فى الشمس قرابة خمسة وعشرين وصفا يغاير كل منها الآخر ، وكأنه بذلك يدلل على انه من أهل خراسان ، فان معنى خراسان بلد الشمس ، ومن قوله فى وصف الغروب ومقدم الليل : « وانتشر لليل جيش كثيف فى البرارى والسهوب ، فمد له بساطا كجناح الغراب ، وأصبحت السماء أشبه شىء بحسام يكسوه الصدأ ، وسكتت نأمة الدنيا ، وأدرك الشمس من الأين والأعياء ما أوهنها . وانعقد لسان الكون واقصرت عن الكلام خيره وشره ، فلا بلبل يئن ، ولا دابة تحن ! »

وكان السابق الى الظن ، ان يعجل الفردوسى عن الاجادة ويتخلف فى وصف الطبيعة لانسياقه مع حركة القصص ، وترديد نظره فى سير الملوك والأبطال . والواقع من الأمر غير ذلك .

أما منوجهرى فهو شاعر السلطان مسعود الغزنوى المقتول سنة ٤٣٢ هجرية ، وهو معروف فى الأدب الفارسى بتقليده الشعر العربى وشدة تأثره به ، فقد حذا حذو امرىء القيس فى معلقته ، والخيال العربى واضح فى شعره ، كما انه يعتبر شاعر الطبيعة بحق فهو وصاف لها يصيب صفاتها ، ومفتون بها يتطرب به

جمالها . ومن وصفه لعاصفة قوله : « عصفت الريح وكان هبوبها من بابل ، فحطمت الصم الصلاب واقتلعت منيع القلاع ، وكأنها السيل الجارف ينحط من رأس الجبل ، ويحط معه الجلاميد من عل ، وبدت فى الأفق سحابة لها سواد الغراب وهيئة طائر من طيور البحر ، بعد أن عبرت قمة الجبل الأشم . وومض البرق فيها بين الفينة والفينة ، وعمر بالنور كونا تغمره الظلمات ، فكأن حديدة محماة يخرجها الحداد من كوره فى الليل البهيم . وقصف الرعد فانخلعت القلوب وانتصبت الشعرات كالإبر ، وهز الأرض زلزال عنيف حتى خرت الجبال على جباهها . وسح المطر سحا كما تتهاوى أوراق الورد فى البستان . وتدفقت سيول الصحراء من كل صوب ، وقد تعوجت واحتفرت لها فى الأرض مجرى ، وأرسلت من الخرير نغما موصولا . » والروعة ظاهرة فى تشبيه اشتداد الريح بسيل يجرف الصخور ، ووميض البرق بالحديدة المحماة يخرجها القين من كوره فى ظلمة الليل . وله بيتان يصف فيهما طلوع الشمس وهما : « رفعت الشمس رأسها من وراء جبال البرز ، فكأن قاتلا يطل من مكمنه وفى وجهه دم القتيل ، وما اشبهها بسراج خبا نوره ،

ولا ينفك صاحبه عن مده بالزيت » .

فمنوجهري وصاف يعمد أكثر مايعمد الى النحت والتجسيم، ولا يكتفي كغيره من الشعراء بالرسم والتلوين ويبتكر التشبيه ابتكارا يكسبه جدة وخروجا عن المألوف .

* * *

وجرى كذلك للطبيعة فى الشعر التركى ذكر طويل ، وممن ترنم بمحاسنها شاعر يسمى نجاتى ، وكان من شعراء السلطان محمد الفاتح ، فامتدحه بقصيدتين مشهورتين ، الأولى فى وصف الشتاء ، والأخرى فى الربيع فقال (وللثلج هبوط من السماء فكأن ارجالا من الجراد تتهاوى ، ألا ياقلب ويحك لا تؤمل الصفاء ، انه طائر اخضر القوادم والخوافى . والغمائم ابل جنت ، فقد القت على الأرض اكفانا ثم مضت عنها كما تمضى قافلة السرور والحبور . اما الناس ، فخرجوا بالمصابيح صبحا يتفقدون شمسا ، وما وجدوا منها إلا شررة خفى لمعها ، إنه السلطان محمد ولئن أرسلت الشمس شعاعها الذهبي وطفقت إلى يوم الحشر تمسح به بحره وتسبر غوره ، لا تجد له من قاع ولا ساحل !) فقد أجاد الشاعر فى رسم صورة لألباس الغيم الأرض وكان مبدعا

حين وصف الشمس ثم هبط منها إلى بحر ممدوحه . ومن قوله فى الربيع (هو ذا الربيع يرد على الدنيا بهجتها وبسمتها ، فكأنه لقاء العشاق، بعد طول الفراق . يقولون حان وقت رشف الكأس وفرحة الجذلان ، فحذار ثم حذار أن يضيع منك هباء مع الهواء انظر إلى الغدير عذب الخرير ، وهو ينساب فى الروضة كما تنساب الحية ، لتداعب وجهه قدم جميلة هناك فى ظل الخميلة.. محمد بن مراد فخر السلاطين ، ان النجوم من أتباعه والشمس رايته والبدر ركابه) فيا أسفا على روحانية الشعر ، ويا ضيعة الفن الرفيع إذا لم تنثر درره إلا فى حواشى المدائح . وان قدم الحسناء فى الغدير لأبهى من قدم السلطان فى هلال السماء . وليت الشاعر فرغ للطبيعة وحدها ، فقد شوه من جمال شعره فيها انه لم يذكرها إلا لحقا فى شعر المدح .

وفى طليعة شعرائها مسيحى المتوفى سنة ١٥١٢ . وقد كان هذا الرجل شاعرا بطبعه يهيم فى الخيال ، ويتبع أطياف الأوهام فيتهالك على اللذات ويضيق ذرعه عن حياة العمل والواقع . فمنحه الصدر الأعظم ضيعة ينفق من ريعها ، وبوأه منصبا فى الديوان ، غير أن الشاعر أظهر من التهاون وسوء التدبير

لأمورنيط به انجازها ، ما أسخط السلطان عليه ، فنقص راتبه ، وجهد مسيحى أن يرفع عنه السخط والبلاء فكان جهده هباء . وشعره مرآة نفسه ففيه النزعة إلى التحرر من كل قيد ، والدعوة إلى اغتنام فرصة اللذات قبل فواتها فى دنيا نعيمها إلى زوال .

وله قصيدة مشهورة فى الربيع منها : « استمع للبلبل ، أنه يزف البشرى بمقدم الربيع ، فافعم بالألحان كل بستان ، وحيته ازهار اللوز فنثرت عليه من فضتها ، فاشرب واطرب ، ليس لأيام الربيع دوام ! وتحلت الرياض والمروج من أفانين النوار ، أما الأزاهير فرقدت ناعمة على أسرتها فى البساتين . آه من يدرى من منا يمتد به العمر حتى يشهد هذا الربيع قبل انقضائه ! فاشرب واطرب ، ليس لأيام الربيع دوام . بدت الورود كما تبدو الحسان حمر الخدود ، وفى الآذان جواهر الانداء . فلا يغرنك ماترى من جمال مآله الى الزوال . اشرب واطرب ، ليس لأيام الربيع دوام . الغمامة تسكب اللآلىء كل أصبوحة ، وتحمل الصبا من المسك أطيب النفحات . فلا تنس زينة الدنيا ولا تغفل عن متعتها . اشرب واطرب ، ليس لأيام الربيع دوام . »

فمسيحى ينطق عن هواه ، ويستلهم الأزهار والأطيار من

المعانى ما يردده فى خاطره ليعبر عنه بالشدو الجميل ، فهو يمزج الطبيعة بروحه ولا يصفها وصفاً قائماً بذاته منقطع الصلة بوجدانه .

وفى القرن السادس عشر استفاضت الشهرة لشاعر تركى يدعى لامعى ، وكان شعر الطبيعة أخص ما عرف به ورفع ذكره ، ومما يؤثر عنه أنه حفيد رسام . فكأنه أورثه دقة الحس ومحبة الجمال ، كما كان درويشاً من فرقة النقشبندية ، وله مناظرة شعرية بين الربيع والشتاء ، وفيها يتحدث عن الخريف بقوله :

« اقبل ايها الولهان المستهام ، فالوقت وقت الغرام ، ولتقض ساعة الوصال فى نسيم عذب للحقول . لقد اطل السفرجل شموسا من غصونه بعد ان انضجته الرياح واكسبته من الألوان لون التبر ، وتدلى من الكرمة عنقود كهيئة الثريا ، واتخذت المروج لها حلة معصفرة من الأزاهير ، اما الاشجار الذهبية فالقت على الارض من ورقاتها قلائد العقيان . »

فلامعى رسام يحسن ان ينقل الى لوحته ماتشاهد عيناه ، وان فاته ان يصنع مثلما صنع مسيحى ، فيشعر ويشرح شعوره ويحلم ويفسر احلامه ، ويثبت انه من الكون بعض من كل .

وقد نظم شعراء الفرس والترك قصائد تسمى « بهاريه »

نسبة الى « بهار » وهو الربيع بالفارسية . وتغنوا فيها بجمال الطبيعة ، غير انهم ذيلوها بالمدح ، وجعلوها وسيلة للغرض ، وتباهوا فيها ببعد الشأو وطول الباع ، فمنهم من اجاد ومنهم من شوه الطبيعة بقبح الصناعة .

وطنية المرأة الايرانية

للوطنية حديث قد يطول فى تحديد بواعثها وعرض المتعدد من صورها ، وما همنا هنا سوى ان نتناولها من حيث دلالتها اوضح الدلالة على صاحبها ، فانها لاتنسب إلا إلى كل من كان على خلق عظيم ، ولن نتصورها دون ان نتصور النفس الانسانية فى اسمى درجاتها واخص ماتتحلى به من ايثار كريم ، ورغبة نبيلة فى الفداء ، ورضا بالعناء او حتى بالفناء فى سبيل ان يسعد الغير ، ويرد عن الوطن كل شر ، كما انها جهـــاد فى الحق ونضال ، واستشراف لأعلى المثل . واذا كان للجماعة ان تعتز برجال فيها تجرى عليهم هذه الصفات ، فهى ولا ريب اشد اعتزازا بالنساء ، لان الزعم انهن متخلفات عن الرجال فى العزم والهمة ، وعليه فجهدهن جهد المقل واحسانهن موضع عجب واعجاب .

ومن الايرانيات من املين على التاريخ صفحات ناصعات فى الوطنية لايطويها الزمان ولن يبليها ، فلما ساءت الحال الداخلية فى إيران وعمتها الفوضى فى القرن الثامن عشر ، اراد من يدعى اشرف الافغانى ان يستأثر بالحكم ويجعل ازمته فى يده ، فاستقر بمدينة اصفهان وأرسى دعائم ملكه فيها ، ورأى الترك ان الايرانيين تفرقهم الأهواء وتتقسمهم النزعات ، فوجدوا الفرصة مواتية لقتالهم ، وانفذوا جيشا تحت لواء القائد احمد باشا فاستولوا على همذان واتخذوا اهبتهم لدخول اصفهان ، إلا ان اشرف الافغانى اعمل الحيلة وركن إلى الخديعة حتى تمكن من ان يقتل منهم مقتلة عظيمة . ولما رأى ان الترك سيعيدون الكرة ، وانه لاطاقة له بهم ، بعث بأربعة من علماء أهل السنة الاجلاء إلى معسكر احمد باشا ، ولما وقفوا فى حضرة القائد التركى قال قائلهم : «ان اشرف الافغانى يقرأ عليك السلام ويقول اننا اخوتكم فى الدين، والتسنن مذهبنا ومذهبكم ، وقد قضينا على الدولة الصفوية الشيعية، فكيف تقاتلوننا ؟ » فوقع هذا الكلام من نفس احمد باشا موقعا حسنا . واكد للعلماء الأربعة انه لن يحارب الايرانيين ، غير انه طلب الدخول تحت شرط ، وهو ان تسمح ايران بارسال الفين من

الفتيات إلى بلاد الترك للافادة من حذقهن الفنى فى تعليم فنون النقش والتطريز ونسج السجاد . ونال احمد باشا من اشرف الافغانى بغيته ، فما سمع الافغانى بصناع فى المدينة إلا امرها بالتوجه إلى معسكر الترك ، حتى تجمع من الايرانيات ذلك العدد المتفق عليه ، وكان بينهن الكثيرات من سليلات علية القوم وبنات الملوك . فرحلن مع جيش الترك إلى استانبول كالاسيرات ، وهناك ازدانت القصور بما نسجن من فاخر الطنافس ، ورفلت حظيات السلاطين فيما طرزته اناملهن من وشى وديباج ، وشاهد الترك للمرة الأولى جميل الرسوم والنقوش على بديع الاوانى ، وتعلموا منهن النساجة والتطريز والنقش . وقد جعلت الايرانيات على انفسهن الاغضاء عن حراسهن من جنود الانكشارية الذين طالما جهدوا عبثا ان يظفروا منهن بنظرة او بسمة . كما رفضن بكبرياء واباء كل من طلب لهن يدا من ابناء الترك ، وآثرن ان يضربن المثل للعفة الايرانية ، وتلك النخوة التى فرضت عليهن ان يحتفظن بكراماتهن ، ولم يكن لهن من عزاء عن حياة الأسر والسخرة التى يحيينها سوى ان يسمعن الناس من حولهن وهم يشيدون بذكر إيران بلد الجمال والفن . وكم كان يطيب لهن ويرضى

كبرياءهن ان يعتبرن مدللات على عظمة ايران معرفات بها.
غير ان الغربة لم تنسهن الوطن الحبيب فكن يشتقنه ويتنسمن اخباره. واتفق للقتال ان انتشب ثانية بين الاتراك والايرانيين، فزحف نادر شاه على بغداد بجيش عظيم، بيد انه نكص على عقبيه امام الفئة الكثيرة والحصون المنيعة، ثم تلقى كتابا من بنات قومه باستانبول جاء فيه قولهن: « ياابن ايران البئيس، نحب ان نلفتك إلى ان فكنا من اسرنا خير واجدى من مدائن تفتحها، واخوف مانخاف هو ان ينال اعراضنا من هؤلاء العثمانيين مايسوء وطننا ايران ويذل كرامته، فنناشدك الله ان تتدارك أمرنا، لقد قمنا خير قيام بما يمليه علينا حق وطننا، فلم يبق إلا ان تؤدى الواجب غير منقوص. »

وما انم نادر شاه قراءة الكتاب حتى تحركت اعماق نفسه وفاضت من الدمع عينه، ثم امتلأ انفه وحمية. فجمع فلول جنده، والهبهم حماسة فانطلقوا إلى الميدان وعصفوا بالترك عصفة بددت شملهم واذهبت ريحهم، ولما تهادن المتحاربون كان أول مطلب للايرانيين هو ارجاع الفتيات إلى ديارهن. فعدن معززات مكرمات بعد غربة دامت نحوا من عام. اما أبناء

وطنهن فلم ينسوا جميلهن ولم يجحدوا فضلهن ، فما زال أهل القرى حول مدينة كرمانشاه يحيون ذكراهن فى كل سنة ، فيجتمعون ويقصفون ويمرحون منشدين اناشيدهم الشعبية ، ومتخذين من ذلك عيدا يسمونه « عيد بنات الاحرار » . ويميل أهل ايران الى ان يتسموا بالأحرار . وذلك انفة من تسمية العرب لهم بالموالى والموالى هم العبيد فى بعض مدلولات الكلمة .

ولما قام الشعب الايرانى بالثورة عام ١٩٠٨ مطالبا بالدستور والحرية ، وراغبا إلى اولى الأمر منه أن يوقفوا الأجانب عند حد ، ويحولوا بينهم وبين التدخل فى الخاص من شؤون البلاد ، كانت المرأة فى هذه الثورة ظاهرة الاثر ، تثبت وجودها احسن اثبات ، وتدلل على أنها ليست دون الرجال محبة للوطن ، وقدرة على ابراز عاطفتها الوطنية . ويقول بعض مؤرخى الثورة ، ان للنساء معظم الفضل فى انجاحها ، وذلك لمشاركتهن الفعالة فى تأريث نارها التى كشفت الظلمات وانارت السبيل إلى حياة العز بعد الذل ، والتقدم بعد التأخر .

واحق النساء بالذكر فى هذا الزمان زينب باشا التبريزية ، وكلانتر الطهرانية ، فقد كان منهما أن عارضتا الحكومة معارضة

شديدة عنيدة ، وافلحتا فى اثارة الخواطر ضدها . فاظهرتا من الثبات على الرأى شيئا عجيبا ، ومن شجاعة النفس ما يجعل للحسد دبيبا فى قلوب الشجعان . ويا طالما قادتا جماعات من النساء المتظاهرات وفى ايديهن عصى يلوحن بها ، فمررن بالأسواق وطلبن إلى اصحاب المتاجر أن يغلقوها احتجاجا على الحكومة واظهارا التسخط صنيعها ، فما كان يسع الرجال إلا ان يأتمروا بأمر النساء ، وينتهوا عن نهيهن . كما كانوا يضمون صوتهم إلى صوتهن ويسيرون معهن فى حشود تمضى إلى قصر الشاه أو تقف باعتاب الحكام ومن بيدهم الحل والعقد ، وهناك تستنجز الحاجات وترتفع الشكايات ، وتملى ارادة الشعب على حاكميه ويجرؤ المسودون على سادتهم . وقد استفاضت الشهرة لزينب باشا وكلانتر ، فتغنى الشعراء بما لهما من مناقب ، وامتدحوا ما اتصفتا به من فضائل . فجرى هذا الشعر على السنة المنشدين ، ورتلته اصوات المغنين .

وفى مدينة تبريز تألف حزب نسائى باسم « جمعية النساء » ويرجع الفضل فى تأليفه إلى عقيلة من يدعى ميرزا على ، وكان لهذا الحزب اهداف وطنية قومية ، فقد أخذ اعضاؤه من النساء

انفسهن بأن يلقن ابناءهن مبادىء الثورة ، ويؤيدن الثائرين فى مطالبهم ووجهات نظرهم ، كما جعلن من ديدنهن حث المرأة الايرانية على مقاطعة الاقمشة الاجنبية والاجتزاء بما تهيئه لهن ايد لبنات الوطن وابنائه .

ولما توعد الروس باحتلال طهران إذا لم يخضع نواب الامة لمطالبهم ويستكينوا لمطامعهم ، قصدت فتاة تسمى شمس المعالى إلى حد المساجد ، فصعدت المنبر وخطبت الناس بما هز القلوب هزا ، ثم تحدثت بلسان بنات وطنها ، فأنحت باللائمة على النواب واتهمتهم بالخضوع والخنوع امام الروس كما صرحت بأن النساء جميعا على اتم الاهبة للبذل والفداء فى سبيل ظفر البلاد بحريتها ودستورها .

ولما قر القرار على انشاء مصرف اهلى فى ايران ، دخلت على لجنته المجتمعة احدى السيدات وقدمت قرطا لها مظهرة شديد اسفها على ضآلة قيمته ، وملتمسة المعاذير لانها لا تملك من النفائس ماتضحى به فى سبيل الوطن ، فكان لذلك ابلغ الأثر فى النفوس ، وحدا غيرها من النساء على التأسى بها وتأثر خطاها فشاركن بالنصيب الاوفى فى قرض وطنى .

وحين استعان محمد على شاه على الثوار بجند من الروس ،

فضربوا بمدافعهم دار مجلس الشورى ومسجد سبهسالار ، انبرت للمعتدين من وجهت اليهم رقيق العتاب وشديد الملام ، ومازالت بهم تؤنبهم وتسفه أحلامهم حتى انثنوا عن قبيح ما كانوا يصنعون ، وبلغ من فرط ندمهم وخجلهم أن طيبوا خاطرها وسألوها العفو والمعذرة .

ومما يروى ان نساء يبلغن الثلاثمائة عدا ، اخذن سمتهن الى دار مجلس الشورى ، وهناك طلبن مقابلة الرئيس ، غير ان الرئيس رفض ذلك وكرهه ، ثم قرر انه لا يسمح بالتحدث معه إلا لفريق صغير منهن ، فما نقل للنساء ذلك الخبر حتى اقتحمن على النواب مجلسهم ، فطرحن نقبهن وابرزن اسلحتهن من تحت ثيابهن وقلن انهن لن يترددن طرفة عين فى قتل اولادهن وازواجهن من النواب إذا تخلفوا عن اداء الواجب وتلبية نداء الوطن ، وبذل الجهد لارجاع الحرية المغتصبة الى الشعب وحفظ كرامته عليه ، وختمن قولتهن بأنهن لا يخشين موتا فى سبيل الوطن ويسعدهن ان يهلكن دونه .

ولن يفوتنا ان نذكر الصحافة التى جعلتها الايرانيات وسيلة

الى الجدال عن الرأى ، والتميز بين الصلاح والطلاح ، فتسابقت اقلامهن فى تدبيج المقالات والنداءات ، وتحلت الجرائد والمجلات بما جادت به قرائحهن من نثير ونظيم .

رثاء السلاطين

الناس فى كل زمان ومكان على ذكر محاسن موتاهم ، ومن المألوف انهم يكرمونهم فوق مقدارهم ، وينسبون اليهم من صفات المدح بعد مماتهم مالم ينسبوا فى حياتهم ، ومرد ذلك الى باعثين : اما اولها فالشعور بافتقاد المفتقد ، وانقطاع مايرجى من افضاله وخيراته وحسناته وذلك ان كان عظيما على الخصوص ، والثانى لوعة الفراق واسى الفجيعة وشدة الاسف التى تجعل بين الحى والميت من العاطفة شبه ما بين المحب الذى يتصور فى محبوبه حتى ماليس فيه . وهل يمكن ان يأسف الانسان الا على ذاهب كان يرجو له البقاء ، وزائل كان يتمنى له الدوام ؟ فاذا ادركنا الرثاء بهذا المعنى ثم عرفناه بانه مدح الميت ، حق لنا ان ننظر فيما رثى به شعراء الترك سلاطينهم لنطلع على افانين من القول

وتتفهم الوانا من المعانى .

ومن اشهر المراثى فى الشعر التركى تلك المرثية التى رثى بها السلطان سليم الاول ، وصاحبها كمال باشا زاده ، ذلك الشاعر العالم الذى قيل عنه انه علامة الخافقين ومفتى الثقلين . وقد اكرمه السلطان سليم وادنى مجلسه ، وصحبه فى غزوه للشام ومصر ، فكانا خير صاحب ومصحوب ، والظن بكمال باشازاده ان يكون صادق اللهجة شديد اللوعة فى رثائه ، وان هذه المرثية صورة واضحة لشاعرها ، ولمن قيلت فيه . فهى تظهر صاحبها رجلا له عقل ورأى ، صبورا له صبر المؤمن المحتسب ، يحزن ولكنه يستعين على حزنه بالكتمان ، ويأخذ نفسه بتعداد مآثر السلطان لاظهار الفجيعة فيه ، وينكر بذلك نفسه الحزينة انكارا يكاد يكون تاما ، فيقول : « هو فى عزمه فتى غرير وفى حزمه شيخ كبير ، هو صاحب القلم وصاحب التدبير ، هو قائد الجيوش فى الميدان ، وفى اصالة الرأى كوزير سليمان ، فلم تكن به من حاجة لا الى وزير ولا الى مشير ، له خنجر من قلبه وصمصامة من يده ، له الرمح من ذراعه والسهم من بنانه ، لقد انجز الكثير من المهام فى القليل من الاعوام ، وامتد ظله بين الخافقين ، واذا

كأن فخر الملوك بالعروش والتيجان ، فإن العرش والتاج به يفخران . كان شمس العصر ، وشمس العصر طويل ظلها قصير زمانها . مارأت الأفلاك له من ضريب فى ملاعب لهو ولا سوح وغى ، فهو اذا خرج الى ايوان الأنس والطرب شمس تنير ، واذا دخل ميدان الحرب اسد هصور . الا فلتذكره الهيجاء ، ولتبكه السيوف بالدماء . لقد قضى السلطان سليم ، فوا أسفا عليه ، وليبكه السيف واليراع جميعا . »

والقصيدة من الشاعرية ضئيل حظها لولا ذلك البيت المشهور الذى يشبه فيه السلطان المتوفى سنة ١٥٢٠ عن خمسين عاما ، بشمس الاصيل طويلة الظل قصيرة الاجل . والشاعر حزين بعقله لا بقلبه ، فانه لم يزد على ان مدح السلطان آسفا على حزمه وعزمه ، مبكيا السيوف عليه بدمائها والأقلام بمدادها .

وكان نجاتى من هؤلاء الشعراء الذين بعد صيتهم وظهر امرهم على عهد السلطان محمد الفاتح ، فلما مات الفاتح وخلفه ولده بايزيد الثانى ، اختار الشاعر مؤدبا لولديه عبد الله ومحمود ، وكان ذلك منه اعترافا بفضله واعلاء لمنزلته . وقام فى نفس بايزيد ان يولى ولده عبد الله اقليم قرامان ، وامتثل الأمير امر

والده السلطان ، ورحل إلى مقر ولايته ، غير أن الوالى لم ينس مؤدبه وصفيه نجاتى الذى لازمه ولم يفارقه حتى جرى القضاء بأن يفرق الموت بينهما ، فمات الأمير عبد الله فى قرامان .

ولنا أن نورد هنا ابياتا رثاه بها نجاتى ، وان كان المتوفى اميرا وليس بسلطان ، الا اننا لانخرج عن صددنا خروجا بعيدا إذا راعينا ان الأمير سلطان باعتبار ماسيكون أو مايمكن ان يكون . يقول نجاتى فى الامير عبد الله : « أيها القلب ، امح من كتاب المحبة ذكرك واسمك ، ولتكن فى هذه الدنيا من الزاهدين، تنسك وتقشف لتمدح بذلك مع الممدوحين . اغمض الجفن عن بريق لوجه الدنيا ، فان الدموع لتجرى من عين كل محملق فى قرص الشمس ، الفلك وعاء مقلوب على خوان الحياة ، فما اصاب منه أحد قط ما كفاه وارضاه ، لقد تخرب الملك فلا الملك ملك قرامان ، واختفى الكنز فلن يبدو للعيان . »

فهذا الشعر فى ذم الزمان ، ودعوة للرغبة عن الدنيا ، وحض على رفضها من أجل ذلك النحس الذى تدور به أفلاكها والشاعر متطير حزين ، لايرى بعد موت صاحبه فى الحياة إلا حرمانا وخرابا ، واخفاء لكنوز كانت على وجه الأرض

فاصبحت فى بطنها . وهذا الرثاء قليل الصلاحية لان يسمى رثاء بالمعنى الصحيح . غير أن نجاتى شديد التعلق بهذا المنحى لا يبغى عنه حولا ، فقد قال مايشبهه ويجرى مجراه يوم مات الأمير محمود فبكاه بقوله : « هذى دنيا الخراب والهموم والغموم ، وهى دار شقوة وعناء ، وان سماها الواهمون دار سعادة وهناء . وانا لمدرجون جميعا فى الاكفان ، وسواء فى ذلك صعلوك ومليك ، ولو كان للقبر لسان وبيان لقال : هراء وبهتان ، كل ماحدثتكم به يابنى الانسان ، عن هـذا الجبار الذى تسمونه بالحمام ! »

فأين ذكر الميت فى هذا الكلام ؟ الواقع من الامر ان نجاتى يقف من الموت موقفه امام سر مبهم وطلسم مغلق ؛ فهو فى حيرة من امره ، عاجز عن التعريف والتعبير ، وقانع بتصوير اثر الموت فى نفسه ، وما يديره فى رأسه من احلام واوهام ، وكأنما اذهله هول الخطب وشغله عن ذكر من يرثيه ، اللهم إلا تلميحا لا تصريحا .

وفى تاريخ الترك مأساة فاجعة ، وذكر الخبر عنها اجمالا انه كان للسلطان سليمان القانونى ولد يقال له الامير مصطفى ، كما

كانت له زوجة روسية تدعى روكسلانا بعيدة الهمة عظيمة الدهاء شديدة التسلط على زوجها السلطان . فأحبت أن يكون العرش لابنها لا لمصطفى وريث العرش الشرعى ، ورأت أن رغباها لا تتحق إلا بموت مصطفى ، فخدعت السلطان عن نفسه والقت فى روعه أن ولده يريد قتله ، واعارها اذنا واعية فاصدر الأمر بقتله ، وكان مصطفى البرىء محبوبا ، فترددت فى البلاد رنة الاسى لموته ، ورثاه شاعر من رجال الجيش هو يحي بك المتوفى سنة ١٥٧٥ م . وتعرف مرثيته بالمرثية المصطفوية ، وكاد من اجلها يلقى مصيرمن بكاه ، فقد استدعاه الصدر الأعظم رستم باشا ، وخشن عليه فى القول مستنكرا منه أن يتوجع لمن أمر السلطان بموته . فرد يحي بك بقوله (نحن نلعنه مع السلطان وان كنا تبكيه مع الرعية !) وجهد الصدر الأعظم أن يستصدر الأمر بقتله ، الا أن السلطان اكتفى بعزله من منصبه . ومن قوله فى رثاء الامير (ويلاه ويلاه ماذا دهانا ، لقد انهار جانب من دنيانا ، بعد ما كان من زبانية الردى ، الذين قتلوا الأمير مصطفى ، فكسفت شمس طلعته ، وهو منقطع عن حماته وبطانته . ان حقد الحقود واثم الكذوب وغدر الفاجر ،

ما اشعل للفراق نارا ، واستقطر من عيوننا امطارا ، فيا ليت هـذه العيون لم تكن ، ولم تشاهد هول ماكان . ان النجوم الطوالع خفقات وحرقات ، وبلاد الترك والشام تفيض بالعبرات هو ذا الثعبان الرهيب يطوق عنقه واحر قلباه ، فكأنه الهالة ! وقد ارتضى ماجرى القضاء به كيفما كان ، والله انه برىء الساحة ماعرف عنه قط من سوء ، ايها الشهيد الطاهر ، لقد منيت بجور جائر . افسح الله له فى رحمته واسكنه جنته . ودامت أيام مولانا على وجه الدنيا فى نعيم مقيم !)

والمرثية جيدة لا غبار عليها فى كل معنى من معانيها ، غير أن الشاعر لم يحسن صنعا بالدعاء للسلطان سليمان بعد الترحم على الأمير مصطفى ، لانه بذلك أفسد روحانية المرثية وضيع بعضا من أثرها فى القلوب ، فقد تمنى الخير لأب غليظ الكبد يقتل ولده ، بعد أن رق للقتيل فبكى واستبكى ، وعطف عليه واستعطف وافعم النفوس كرها لأبية ، بقدر ما افعمها ألما للفجيعة فيه ، وهذا ما يسوء وقعه على الحس الأدبى ، لأنه لا يوافق مقتضى الحال .

ولدينا شاعر رابع هو باقى المتوفى فى نهاية القرن السادس عشر

والذى يعتبر امير الشعر التركى فى العصر القديم ، ونخصه بالذكر هنا لتلك القصيدة الطويلة التى رثى بها السلطان سليمان القانونى ، ويذهب بعض مؤرخى الادب التركى إلى أنها أجمل مرثية قيلت فى سلطان ، وليس فى هذا شىء من الاغراق لانها جمعت إلى جزالة لفظها واحكام نسجها كل عناصر المراثى ، فهو يستهلها بتوجيه الكلام إلى القارىء أو السامع قائلا : « انت يا من تنشد الصيت البعيد وتطلب المجد التليد ، فأصبحت من حرصك هذا فى القيود ، إلام بزخرف الدنيا تعلقك ، وحتام على لذاتها تهالكك ؟ لا بد للحمرة فى خد زهرات الربيع ، من صفرة كورقات الخريف ، ولا بد من أن يكون مقرك الأخير ، كهذه الثمالة التى تلق ، وذلك التراب الذى ينفض ، ولسوف يصدع الزمان كأسا تدار على الندامى فيتصدع الشمل الجميع . أما آن لعين أن تمسح عنها نعاس الغفلة ! »

وكأن باقى فى قوله هذا يردد اصداء نجاتى . غير أنه رقيق الشاعرية مشرق الديباجة ، ينبه بلطف ولا يزجر بعنف . مستعينا بقريحة خصبة وخيال واسع على تزيين كلامه وتقديمه تقديما جميلا يلفت الخواطر ويجذب اليه النفوس ، حتى إذا اطمأن

إلى ذلك أتى موضوعه من بابه فمضى يقول : « أليس لك عبرة فى حكم الزمان على سيد الحكام وفتى الفتيان وفارس الميدان ، راكب المحجل الاغر الذى كانت الدنيا على إتساع رقعتها مسبحا له فيه يصول ويجول ، ويعدو ملء فروجه شامخا برأسه . ذلك الذى رفع السيف الحسام الملتمع ، فانخفضت أمامه رؤوس المجر ، وعرف الفرنجة من خبره ما عرفوا ، لقد جعل وجهه فى التراب كورقة الورد . فتسلم خازن الأرض جوهرة يعتز كنزه بها . كانت ادنى عطية له تجعل الفقير الوقير غنيا مليا ، هو كريم الكرام وعظيم الحكام . وعلى اعتابه كان الشعراء والعلماء يرقبون مناهم . لا تحسبنه ضاق ذرعا بحدثان هذا الفلك الخؤون لقد كان خروجه عن ملكه وزهده فى عزه ومجده تقربا منه لرب العالمين واختيارا لجواره . »

فقد وصف باقى سليمان القانونى فى كرمه وسماحته ، وصوره فى الهيجاء بطلا صنديدا وفاتحا مغوارا اذل اعناق المجر على صلابتهم وشدة بأسهم ، واذاق الفرنجة من هول القتال ما تحدثت به ركبانهم ، وبينما يظهره الشاعر لنا فى عظمته وجبروته ، إذا به ينتقل بنا من نقيض إلى نقيض فيشبه وجها له اذبله الموت

بورقة الورد الرقيقة اسقطتها زفرة النسيم فى التراب ، ثم يحسن ان يعلل موته برغبته فى جوار ربه . وهذا مايشهد للشاعر على ملكة اصيلة وطبع فياض . ثم يعبر عن وجده به وشدة حزنه عليه فيقول : « كأن سحائب الربيع حزنت لموتك مثلى وامتنع قرارها ، فهامت فى الآفاق تذرى ادمعا لها ، فلتندبك اطيار السحر ، ولتنح عليك وتملأ الدنيا نواحا ، ولتشق ازهار الروض جيوبها إلى جانب الهزار ذى الحنين والرنين ، وإذا ماتناوح الزهر فى مأتمك فليبك ماشاء الله أن يبكى . أما الجبال فلتتحدر دموعها على سفوحها ، أيها القلب ، انت من يسعدنى وعلى بلواى يعيننى ، تعال نرفع من صوتنا مايرفع الناى من صوته ، وليسر بثنا فى نفوس المحزونين من امثالنا . »

ولا ريب أن التوفيق خذله فى هذه الأبيات بعض الخذلان لانه يعيد مبتذلا ويقول مكرورا . ويردد تلك المعانى التى يفسدها التكلف ، ويشوه من حسنها شديد الاغراق ، فلم يبق شاعر حزين لأمر ما ، الا وقد طلب إلى الطبيعة اسعاده فاستقطر الدمع من السحاب ، واستبكى البلابل على الاغصان وتصور ان الورود تشق الجيوب ، والذى يلوح هو ان هذه النغمة القديمة المملولة

إن بدت هنا غير جميلة من (باقى) ، فلأنه كان مبتكرا قبلها ، محسنا كل الاحسان ، وتخلفه اللاحق ظاهر بالاضافة إلى تقدمه السابق.

وان كان يذكر السلطان الذى مات فى خيمة له بمعسكر ببلاد المجر فيقول : « لقد تنفس الفجر وانصدع عمود الصبح ، فهل لسلطان السلاطين يقظة من رقدته ؟ أو خروج كعادته من خيمته، تلك الخيمة التى كان يزينها مايزين قبة السماء ؟ ! لقد وقفنا وطال وقوفنا ، وامتد إلى طريقه بصرنا ، غير أنه ارتد حسيرا الينا ، فلم نشاهد له اثرا ولم نسمع عن موكبه العظيم خبرا ! ويلاه ان هناك مثواه ، وقد يبست شفتاه ، وذبل خداه ! »

فشاعرنا هنا مشبوب اللوعة يقرر الحقيقة ولا يعدوها ، ويذكرها فى جو شعرى جميل ، كما أنه لا يتخيل شيئاً وانما يطلب الى قارئه هذا التخيل الذى تذهب النفوس فيه مذاهب شتى . وان هذه المرثية الرائعة لمثال جيد من شعر باقى أمير الشعراء .

* * *

والفرق واضح بين هؤلاء الشعراء الأربعة ، فكمال باشا زاده يرثى سليما رثاء هو أشبه شيء بالرثاء الرسمى الذى تفرضه

المناسبة فرضا . ونجاتي يتخذ من موت الأميرين ذريعة لشكوى الزمان والتعجب من صروفه ويحيي بك يحسن الرثاء وان كان لايحسن الدعاء ، أما باقي فمتأثر ومؤثر ، لأنه لا يغفل التحدث عن نفسه والافصاح عن عاطفته بعد أن تحدث عن السلطان سليمان ، فكانت مرثيته كاملة عامرة .

الفرس في أدب الغرب

عرف الغربيون الفرس منذ طويل زمان ، والخبر اليقين عند التاريخ السياسى الذى ينبئنا بما كان بينهم من حروب ، والتاريخ الأدبى الذى يسجل أثرهم فى أدب الأوربيين ، ويبين كيف ذكرهم أهل الأدب فى آثارهم ، فالذى نقصد اليه هنا هو تصور الفرس فى أدب الفرنجة مذكورين ومؤثرين ، وتحديد ذلك ما وسعنا أن نحدده .

فقد هاجت الحرب بين اليونان وايران على عهد الملك دارا يوم ثار اليونان فى آسيا الصغرى واستولوا عنوة على مدينة لملك الملوك ، وأضرموا فيها النار تشفيا وتنكيلا ، فاحفظ ذلك الملك دارا ، حتى انه أمر غلامه أن يذكره فى كل يوم بالثأر من الثائرين المعتدين ، فقاتلهم وهزمهم وبدد شملهم ثم جهز جيشا

أنفذه الى تراقيا ومقدونيا فكان الفتح مبينا والنصر عظيما. وشاء أن يحاربهم بحرا كما حاربهم برا ، الا أن الفرس لم يصمدوا لليونان ، ولم يف أجل دارا باعادة الكرة ومحو عار الهزيمة. وخلفه ولده خشايارشا الذى أخذ نفسه بأن يسير فى الأعداء سيرة أبيه ، فوجه اليهم جيشا كموج البحر عبر الدردنيل وزحف صوب أثينا ، وما ان وصل اليها حتى أحرق معبدها ، واقتتل الفريقان أحر قتال فى بوغاز سلاميس فدارت الدائرة على الفرس بعد أن هبت عاصفة دمرت سفائنهم فى البحر تدميرا . وقد اعتز اليونان بنصرهم هذا ايما اعتزاز ، ومجدوه ايما تمجيد ، ولا غرو فقد رد عادية الفرس عن أوربا وحال دون تحول التاريخ عن مجراه .

وفى عام ٤٧٢ قبل الميلاد أى بعد انتصار اليونان فى سلاميس باعوام ثمانية ، الف الروائى اليونانى العظيم اسخيلوس تمثيلية « الفرس » . وهو فيها يصور ما آلت اليه حالهم ماديا ومعنويا بعد أن كسرهم اليونان أبخس كسرة ، فنشاهد فى التمثيلية جمعا من رجال الدولة الفارسية بمدينة سوس أمام قبر الملك دارا ، وقد اشتد قلقهم وجزعهم على جيشهم الذى انقطعت عنهم أخباره

ولم يعرفوا شيئا عما نزل به ، فذهبت نفوسهم شعاعا بعد أن حطم اليأس قلوبهم وران ظلاما على أفكارهم . ثم تظهر اتوسا والدة الملك خشايارشا فى عربتها الملكية الضخمة الفخمة، و تلتفت الى المجتمعين قاصة عليهم رؤيا رأتها فافزعتها ، مستفسرة عن معناها ودلالتها ، ويدخل على القوم رسول ليتلو على مسامعهم نبأ الموقعة وما منى الفرس فيها من هلكة مبيرة وويل ودمار فيقول : « وارتفعت الجلبة من ناحية اليونان وكأنهم يترنمون بنشيد من أناشيدهم الدينية ، فرددت الأصداء صخور الجزيرة وكان ترديدا عاليا داويا . أما البرابرة المستيئسين فانخلعت قلوبهم لأن اليونان المغنين لم يفروا ، وانما شدوا وكروا ، وخاضوا الغمرات بيأس عظيم ، وقد ألهبت حميتهم نفخات فى الصور . وبرز اليونان لنا وصائحهم يقول : « يامعشر اليونان استنقذوا وطنكم ونساءكم وأطفالكم ومعابد آبائكم وقبور أجدادكم . وغطت الأشلاء الشواطىء والصخور ، وانطلقت سفائن البرابرة هاربة فى كل وجه تلتمس النجاة ، ونزلت الضربات بالفرس ومزقوا كل ممزق وكأنهم سماك فى شباك ، فمارن فى البحر الا شكوى الشاكين وبكاء الباكين . ثم رحمنا ظلام الليل فحجبنا عن أعدائنا .

الا ما كان أعظم مالقينا من شدائد وكابدنا من آلام، لو شئت تعدادها لما بلغت من ذلك مأربا ولو بعد حين . اعلموا يقينا انه ماهلك قط من الرجال فى يوم واحـــد مثل ما هلك من رجالنا . »

وتظهر اتوسا اسى وتفجعا ، ويلوح شبح الملك دارا، فيبذل النصح وينطق بالحكمة ويأمر المحزونين بالرضا والاستكانة، ثم يدخل الملك خشايارشا وهو ينتحب مع المنتحبين ويخرج للعودة إلى قصره ، وتختتم التمثيلية بزفرات الأسف وعبرات الندم والحزن الذى ليس بعده حزن . ويلحظ على المؤلف انه يكاد يقتصر على ذكر الفرس ووصف محنتهم ونكبتهم ، وفى أوصافه مرارة الشماتة وسخرية التشفى ، ونشوة المنتصر الذى مكنه الله من عدوه بعد يأس وجهد ومعاطب .

وهكذا صور الفرس فى أدب اليونان القديم ، أما الانجليز فالثابت انهم لم يعرفوا الفرس حق المعرفة قبل القرن السادس عشر ، ومع كل فاننا نجد أقدم شعرائهم وهو تشوسر يشير الى لون فارسى يميل الى الزرقة وذلك فى القرن الرابع عشر ، ثم يؤلف برستون فى عهد الملكة اليصابات قصة يقتبسها من تاريخ

الملك قمبيز ، ويتخذ الشاعر القصاص «ارلو» اسماء ومشاهد فارسية في احدى قصصه .

أما شكسبير فيشير الى الثياب الفارسية فى «الملك لير» ، والى أمير فارسى فى « تاجر البندقية » ، والى رحلة الى فارس فى « كوميديا الاخطاء » . والشاعر الضرير ملتن صاحب الفردوس المفقود يذكر أسماء لمدن فارسية كهمذان واصفهان ، ويلخص تاريخ فارس القديم فى الجزء الثالث من « الفردوس المستعاد » . ويستعيد شلى ذكرى الابهاء ذوات العمد فى تخت جمشيد ، وقد ذكر المجوسية وهى الديانة الفارسية القديمة كل من الشاعرين بايرون ولندور . ومن كتاب الانجليز من تأثر بالفردوسى ، شاعر ايران فى القرن الرابع الهجرى ، كجوس وارنولد ، ونظم مور منظومة تسمى « لاله رخ » وهو اسم فارسى بمعنى وردية الخد ، ومنظومته تموج بالحياة الفارسية ومشاهدها .

وجرت عادة المتأدبين من الانجليز فى القرن الثامن عشر بمطالعة كتاب من جزئين للكاتب الانجليزى امبروز فيلبس بعنوان « قصص فارسية » ، وذاع صيت قصة لموريه تسمى «حاجى بابا الاصفهانى» ، واذا ما ذكرنا ترجمة فتزجرالد الشعرية

لرباعيات عمر الخيام ، فانما نذكر أكثر الكتب سيرورة فى اللغة الانجليزية بعد مؤلفات شكسبير ، وقد أصبح الخيام بذلك شاعرا للانجليز أكثر من كونه شاعرا للفرس ، ان صح هذا التعبير ، فهو فى انجلترا أبعد صيتا وأسمى منزلة منه فى ايران .

وما دمنا فى الحديث عن أدباء الانجليزية ، فلنلحق بهم كراوفورد الكاتب الأمريكى ، لأنه صاحب قصة يجعل المدار فيها على حياة زردشت نبى الفرس القديم .

أما شعراء الألمان فان منهم من تأثر بشعر الفرس أبلغ التأثر وفى طليعتهم جوته ، الذى قرأ الترجمة الألمانية لشعر حافظ الشيرازى ، فملك عليه هذا الشعر اعجابه ووقع من نفسه أجمل موقع ، وراعه مافيه من سمو العاطفة وقدسية الفكرة وجمال الرمز ، فامتزجت روح شاعر الألمان بروح شاعر الفرس ، وأصدر جوته (الديوان الغربى الشرقى) سنة ١٨١٩ وهو مجموعة من أجمل الشعر الغنائى ، وقد خطا فيه خطو حافظ وردد صداه إلى حد جعل فهم شعره أمرا عسيرا أو مستحيلا من غير شرح يرد المعانى المبهمة والرموز الخفية الى أصولها الصوفية الفارسية . وفى هذا الديوان قصيدة تسمى (الحنين المقدس) يعتبرها بعض

نقاد الألمان أروع ماجادت به قريحة جوته لأنه يعبر فيها عن فهمه للحياة برمز أفلاطونى وطهارة مطهرة ، فيقول فى أبياتها الختامية : « وتأتين خافقة الجناح طريدة ، وتحنين الى النور وفى النهاية ، تحترقين أيتها الفراشة ، ومادمت لاتملكين لك حياة ولا مماتا . فانت ضيف حزين على هذه الأرض . »

وللشاعر الألمانى الرقيق هاينه قصيدة عنوانها « الفردوسى» وفيها صور حياة هذا الشاعر فذكر كيف نظم تاريخ الفرس الطويل فى ستين الف بيت من الشعر ، وتطلع من السلطان الى أن يحسن صلته على ما كابد من جهد طوال ثلاثين عاما ، فاعطاه السلطان عطاء قليلا عفت نفسه عن قبوله . وهذه القصيدة قصة قصيرة يظهر فيها السلطان بكزازته ونكثه للعهد والشاعر برغبته فى المال لحاجته اليه ثم يأسه منه ومن كل خير فى الدنيا . وانا لنقع فى شعر الألمان على تشبيهات فارسية تدل على أن منهم من عرفها عن الفرس وأعجب بها فضمنها أشعاره ، ومن ذلك تشبيه العين باللوز والحاجب بالقوس .

أما نيتشه الفليسوف فاتخذ من اسم نبى الفرس القديم رمزاً للحكمة وسمى كتابا له (هكذا قال زردشت)

والشاعر الروسى بوشكين ظاهر الأخذ عن الشعر الفارسى وقد رثاه شاعر ايرانى بعد مماته ، وما يقال عنه يقال عن لرمنتوف الذى عاش فى القوقاز فكان للبيئة حكم وللجوار حق وللروس قصة شعبية تتحدث عن اميرة ايرانية .

وكان للفرنسيين صنيع كصنيع الانجليز والألمان والروس فعرفوا الفرس فى مؤلفاتهم وذكروهم واستلهموهم . ومنهم الكاتب مونتسكيو صاحب « الرسائل الفارسية » وهو كتاب فى النقد الاجتماعى والهجاء السياسى يتخيل فيه مؤلفه ايرانيا يسميه اوزبك عاش فى باريس بين سنة ١٧١٣ وسنة ١٧٢٠ وكاتب خلانه فى ايران ، فيوقفهم على مايشاهد فى المجتمع الباريسى ويتناول بالنقد اللاذع مسائل الدين وأصول الحكم ، ساخرا من ظلم الظالمين واستعلاء المستعلين ، ومشيرا الى مكمن الداء فى الجماعة . ولفولتير قصة « هنرياد » وهو يعارض بها الفردوسى فى قصته « رستم وسهراب » ففى كلتا القصتين أب يقاتل ولده حتى يقتله وهو لا يعلم من يقاتل ومن يقتل ، ثم يقرع سن الندم ويأخذه شديد الأسى بعد أن تتكشف له الحقيقة . ويقول النقادة الفرنسى سانت بوف : « من يقرأ قصة فولتير بعد قصة الفردوسى ، ير الحد الذى انحط اليه الشعر القصصى عند المحدثين

ويشعر كأنه قدم من شاطىء نهر الكنج إلى حوض من حياض فرساى ! » .

وفى أواخر القرن السابع عشر كان من يدعى البارون دوفريول سفيرا لفرنسا فى استانبول ، واتفق له يوما أن جاس خلال سوق النخاسين ، فراعته فتاة لم تستوف الخامسة من عمرها الغض النضير ، واستوقفه منها جمال تزينه ملامح شرقية وعينان سوداوان ، وسأل عن خبرها فقيل له انها من بنات الامراء فى ايران ، وقد قاتل الترك اباها فغلبوه ، وسبوا نساءه ونهبوا نفائس قصره حتى هذه الدمية الجميلة التى ينالها دافع المال الجزيل فى شرائها ، فادركت السفير رقة على الفتاة وحملها إلى قصره على ضفاف البوسفور ، واصبح لها كأب شفيق . ومرت الاعوام ، وعاد السفير إلى فرنسا ومعه « هايده » التى ربت وترعرت ، وازهرت واثمرت ، فكانت زينة المحافل فى باريس اللاهيه الماجنة على عهد لويس الرابع عشر ، غير أن حياة اللهو والفتون لم تصادف هوى فى نفسها ، فزايلت العاصمة وآثرت أن تعيش على مبعدة منها ، وطلب الوصى على العرش يدها فردته . ثم خفق قلبها لشريف يقال له وايدى .

وكانت اديبة شاعرة فكاتبت صاحبها ، وقيل ان رسائلها من روائع الأدب الفرنسي ، غير أنها لم تسعد بغرامها فقالت شعرا حزينا مدموعا . وقد جعل الشعراء والروائيون من قصة « هايده » موضوعا طليا شيقا ، فكتب سانت بوف عنها كتابا مفصلا مطولا ، والفت مدام فرودل تاريخا لها شعرى الاسلوب بديع العرض والتحليل ، وفى سنة ١٨٠٥ نشر بارانت مؤلفا له عنها ، كما جرى باخبارها قلم الكاتب الفرنسى المعاصر اميل هانريو .

ويروى عن فولتير انه قال (اقرأوا كتاب الفرس المقدس القديم بتدبر وروية) .

أما الف ليلة وليلة ، ذلك الكتاب الفارسى الاصل ، فقد قال عنه انه لم يعالج فن القصص الا بعد أن قرأه اربع عشرة مرة ، وتمنى القصصى الفرنسى ستندال أن يمحو الله من ذاكرته الف ليلة وليلة حتى يعيد قراءته ويستعيد لذاذته .

ولا يفوتنا أن نقول أن المربين فى فرنسا وانجلترا والمانيا يختارون قصصا من هذا الكتاب ، لتهذيب ناشئة الادب وصقل اذواقهم ، وافعام اخيلتهم بما فيه من أطياف الشرق ، وقد يشتد

اعجاب بعضهم بهذا الشرق الجميل ، فيجعل على نفسه فى مقبل الايام أن يدرس لغاته وعلومه وآدابه ، ويصبح عالما يفيد من علمه اهل الغرب والشرق على السواء .

ومنذ أكثر من مائة عام قال مؤلف فرنسى هو المازكيز دوفيليت شعرا جاء فيه (صادف برهمى ذات يوم قطعة من الطين بجوار حمامه ، فسألها قائلا : أأنت قطعة من عنبر ! ؟ ان لك عبيرا يروقنى ويخلب لبى . فقال الطين : لست من كل ذلك فى شىء بيد انى جاورت الورود حينا هنا)

وقد أخذ هذا المعنى بتمامه عن الشاعر الفارسى سعدى الشيرازى فى أبيات له يعرفها كل من شدا شيئامن ادب الفرس

قيل ان الناس أعداء لما جهلوا ، وهذه قولة كثيرة الدوران على اللسان ، غير اننا اذا ما فسرناها حق تفسيرها ، ظهر لنا من معناها البعيد ما يتعارض بعض الشيء مع ما يسبق الى الوهم من معناها القريب . فنحن في واقع الأمر لا نعادي الجديد ولا ننكره بقدر حبنا للقديم ووفائنا له ، خصوصا إذا كان الشأن فيما يمت بآصرة الى العادات والتقاليد ، وكأن رغبتنا فيما عرفناه وألفناه ورأينا عليه آباءنا هي أقوى البواعث لنا على رغبتنا عما لم نعرف ولم نألف ولم نتوارث خلفا عن سلف . فطول إلف الشيء داعية التعلق به تعلقا يصرف عن غيره ويزهد فيه ، وآراؤنا العامة ما هي في الحق إلا عادات عقلية تمكنت وتغلغلت وسيطرت على النفس والفكر ، فصعب تجريحها أو تبديلها ، وخابت فيها حيلة العقل

والمنطق أو كادت . ومن أجل ذلك عانى النبيون ماعانوا ، وتجشم المصلحون ماتجشموا ، ولقي قادة الرأي من شديد العقبات مالقوا .

وليس استطرادا ان نذكر مايذهب اليه علماء الجمال من ان من يشاهد الجميل لايشعر بجماله كل الشعور الا بعد أن يكرر فيه بصره مدة ما ، على ان النفس يلزمها بعض الوقت حتى تتذوق تذوقا تاما . ونخرج من كل هذا بأن للعادات أثرا لاينكر في تلوين شعورنا وتكوين ادراكنا ، وبالتالي في آرائنا وتقاليدنا واستحساننا واستهجاننا . وإذا تلمسنا المثال مصداقا لما نذهب اليه وجدناه فيما كان من سفور المرأة التركية ولبس الأتراك للقبعة عوضا من الطربوش .

قال اتاتورك : «على النساء الا يقبعن في كسر بيوتهن ولا يحجبن وجوههن ، لأن ذلك مجلبة للشر على البلاد . لقد ساهمت المرأة التركية في الحرب بالحظ الأوفى من حماستها وحميتها وتكبدت من الأهوال ماتكبد الرجال ، فحقيق أن تنعم اليوم بكامل حريتها . فلتضرب في العلوم بسهم ، ولتشيد دورا للعلم ، وحقها الذي هو لها ، ان تنال في الدولة من المنزلة مثلما ينال الرجال . لقد ابصرت في الطريق نساء على وجوههن النقب

وعلى جيوبهن الخمر ، يشحن كلما اقترب منهن رجل ، بالله ماهذا !
اما آن الأوان لنبذ هذه الخرافات والسخافات ، ولمسايرة تلك
الأمم التى تعلقت بأسباب من الحضارة . »

هذا هو النداء الذى وجهه اتاتورك الى التركيات عام ١٩٢٥ يأمرهن فيه بأن يطرحن النقاب ويتأثرن خطى اخواتهن الغربيات فى التعلم ومجانبة عزلة البيت ، والبروز للرجال وغشيان مجالسهم، على ان ذلك حق لهن لايسوغ أن يبخس ، ومشاركة منهن فى خدمة وطن يدعمن صرح تقدمه ورقيه ، ويأخذن بيده للخروج من ظلمة العصور الوسطى الى نور المدنية الحديثة .

ولم يكن توجيه هذا النداء الى النساء عفو الخاطر ، وانما كان أمرا ليس منه بد ، فقد سبق لبعض العجائز أن كرهن السفور واشتد عليهن ، فاعتبرنه بدعة ومفسدة للنساء أى مفسدة ، كما رأين فى البروز للرجال عارا دونه كل عار ، واعملن الرأى فى ايجاد وسيلة لتقويم العوج ودفع البلاء ، حتى اهتدين إلى موظف رجعى من رجال الامن العام له اذن تصغى لشكواهن وعقلية تحبذ رأيهن ، فاقنعنه بضرورة اصدار منشور يعلق على الجدران هذا نصه وفصه : « فى هذه الاشهر الاخيرة ، أظهرت

النساء تبرجا شائنا معيبا ، فلزام على كل مسلمة ان تطيل من ثوبها وتضع نقابا صفيقا على وجهها ، ولتحذر أن تتمنطق بالمشد ، وان الحكومة لا تمهلها اكثر من يومين لاطاعة هذا الامر . »

وكان لما جاء فى هذا المنشور شديد وقع على النساء اللائى تسخطنه وتذمرن منه وغضبن غضبا ليس بعده غضب ، حتى ان الحكومة لم تجد لها بدا من تصحيح موقفها معهن بالرجوع عن قولها ، والانتقاض على حكمها ، فنشرت عليهن مايفيد الغاء ما اتخذت من اجراء .

وقد كان للدعوة إلى السفور اصداء من السخط والعصيان فى ولاية طرابيزون ، فعولت النساء على التمرد كراهة أن يبدلن عادة درجن عليها كما درجت أمهاتهن من قبل ، فما وسع الهيئة الحاكمة فى الولاية الا ان تصدر بيانا تعدد فيه مساوىء الحجاب وقد ركبت الشطط واصطنعت الاغراق فى اعتبار ستر الوجه حيلة كانت المرأة تلجأ اليها للتستر رجاء الا تلحظها العيون وهى تسعى إلى الريبة !

ثم قر القرار على أن يسوق الشرطة كل امرأة غير سافر الى المخفر . ومن مستطرف مايروى ان منهن من كن يسترن

وجوههن العارية بما فى ايديهن من مظلة مفتوحة . تنفيذا لمشيئتهن ومشيئة الحاكم فى وقت معا ، غير انه لم يكن لهذه الحال دوام فكشفن عن وجوههن فى البلاد عرضا وطولا .

ولم يكن هذا النقاب خاصا بالمسلمات دون غيرهن ، فقد ذكره الشاعر اليونانى هوميروس فى الاودسا ، وكان للفينيقيات نقب قرمزية اللون ، وعرفته الراهبات فى عصور المسيحية الاولى ، ولم يعرفه عرب الجاهلية ، اما فى الاسلام فقد كثر الجدل حول شرعيته لتضارب اقوال المفسرين فى تفسير قوله تعالى فى سورة النور : « وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن او اخوتهن او بنى اخوتهن او بنى اخواتهن او نسائهن او ما ملكت ايمانهن او التابعين غير اولى الاربة من الرجال او الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء .. »

فمنهم من يفسر الزينة بمواضعها كالجيد والمعصم والساق ، ومنهم من يجعلها نفس التزين كالاكتحال وتخضيب البنان . ومهما

يمكن من امر فنحن لانريد هنا إلا ان نبين كيف ابت بعض التركيات ان يخرجن بالسفور عما الفن من عادات وتقاليد ، بقطع النظر عن حكم الشرع ،وعلى المؤرخ حكاية الحوادث كما وقعت .

اما استبدال القبعة بالطربوش ، فقد أثار من اللغط والهرج والمرج اكثر مما أثار طرح النقاب على غير مايسبق إلى الظن ، وذلك محمول على ان الاتراك كانوا يعتبرون الطربوش شعارهم القومى الاسلامى ، وكانت اولى المشاكل التى ولدها لبس القبعة فى وجهة نظرهم يومئذ ، هو استحالة الصلاة بها لسببين ، اما اولهما فحافتها البارزة التى تجعل السجود بها امرا متعذرا ، والثانى ان خلعها دليل على رغبة صاحبها فى اظهار الاجلال ، ولما افتى مفتى استانبول بجواز خلعها أثناء الصلاة ، كان هذا امرا غريبا على الناس .

وكان السلطان عبد الحميد اول من عرض برأى للبس الطربوش والقبعة سنة ١٩٠٢ يوم عارض شيخ الاسلام فى اتخاذ جند الترك للخوذات ، فسفه السلطان احلام الشيخ وقرر ان لباس الرأس لا يمس الدين فى كثير ولا قليل . وفى الحرب العالمية الأولى لبس

ضباط الترك قبعات فرنسية طويلة الحافة ، ويقال ان اللورد بالمرس سأل يوما السفير التركى فى بلاد الانجليز قائلا : « ما بال الترك يتخذون الثياب الأوربية بتمامها ماعدا القبعة ! » فأجابه السفير بقوله : « لأنهم قوم معاندون لا يريدون لرؤوسهم تبديلا! »

ولما اجتمع مجلس الوزراء فى انقره عام ١٩٢٥ تحت رئاسة اتاتورك ، وقرر ان تكون القبعة غطاء لرأس الترك مع استثناء رجال الدين منهم ، فتحت احدى جرائد استانبول استفتاء فى هذا الشأن تستطلع فيه الآراء . فكان من صبحى بك وزير المعارف ان قال ان الدين فى القلب لا على الرأس ، وصرح رشيد بك مدير التعليم بأنه رأى بعينى رأسه حجاجا فى مكة وعلى رؤوسهم قبعات بيض وقال آخر ان قواعد الصحة تقضى بايثار القبعة على الطربوش.

واقبل الناس على لبس القبعة امتثالا لأمر اتاتورك ، وبلغ من شدة تهافتهم وحماستهم ان تخطفوا القبعات فنفدت من الأسواق بعد زمن يسير ، ولم يحصل عليها الناس جميعا ، ومن عجيب امر هؤلاء الذين لم يحصلوا عليها انهم آلوا على انفسهم ان يبقوا من غير غطاء للرأس ولا يعودوا إلى لبس الطربوش !

غير ان الناس كافة لم يرتضوا تغيير شعارهم هذا التغيير الفجائى

بين عشية وضحاها . وتراءى لهم انهم يكفرون باتخاذ شعار الأوربيين ، وقد ذهلوا عن انهم انما اخذوا الطربوش عن اليونان غير المسلمين ، فقامت فى بعض المدن التركية كسيواس وارضروم مظاهرات عظيمة تدل على روح التمرد والثورة ، وارتفعت الهتافات ترمى بالكفر حكومة انقره .

وكان من المعترضين على لبس القبعة نور الدين باشا ذلك القائد العظيم الذى طرد اليونان من ازمير ، ونائب مدينة بروسه الذى قدم للمجلس الوطنى مذكرة ينص فيها على ان الزام الشعب بلبس القبعة خروج على القانون الدستورى الذى تنص مادته المائة والثلاثون على الحرية الشخصية ، فرد عليه اسعد بك وزير العدل بأن لبس القبعة وهى غطاء الرأس عند الشعوب المتحضرة لايمكن ان يعتبر خرقا للقانون الدستورى

واجريت تحقيقات دقيقة واسعة المدى ، تكشفت عن ايد خفية اجنبية وشيوعية تحرك الثورة وتدفع الى العصيان . فشمرت الحكومة عن ساعد الجد والقت القبض على الجم الغفير . ووجهت الى المقبوض عليهم تهمة الثورة على الاصلاحات الحكومية ، وحكمت احدى المحاكم بالموت على ثلاثة وبالسجن

على ثمانية وأربعين ، وأصدرت محكمة اخرى حكمها على خمسة عشر قتلوا ، وكثيرين سجنوا .

وطرح التركى طربوشه كما نبذت التركية نقابها ، ولكن بعد وقفة املاها الوفاء للطربوش والنقاب ، وأسف على صحبة قديمة لهما ، وأسى لفرقتهما .

السفراء في إيران القديمة

من المعلوم أن السفارة فى سالف الازمان لم تكن ما نعهد اليوم من منصب قائم دائم يتبوؤه عظيم رفيع الشأن عالى المقام ليرعى مصالح دولته ويدبر امور رعاياها ، وانما كان السفير رسولا تنفذه دولة إلى اخرى ليسفر بين القومين ، حاملا خبرا أو رأيا ، وساعيا إلى اصلاح ذات البين ، وربط ما انبت من صلات ، تبعا لما يستوجب ذلك من امور تطورت واحوال تبدلت . وغنى عن البيان ان القوم لا يصطنعون متحدثا بلسانهم وعنوانا عليهم مالم يكن صالحا لذلك اتم الصلاحية ، حريصا أشد الحرص على اداء واجب يناط به أن يؤديه ، وامينا كل الامانة على وديعة فى عنقه ، فهو صاحب العقل والبديهة والقول الفصل والمتقد حمية ووطنية ، وكانت ملوك الاعاجم ، إذا آثرت أن تختار من رعيتها من تجعله رسولا إلى بعض ملوك الأمم ، تمتحنه

اولا بأن توجهه رسولا إلى بعض خاصة الملك ، ثم تقدم عينا عليه يحضر رسالته ويكتب كلامه فإذا رجع الرسول بالرسالة ، جاء العين بما كتب من الفاظه واجوبته ، فقابل الملك الفاظ الرسول فإن اتفقت أو اتفقت معانيها ، عرف الملك صحة عقله وصدق لهجته ، ثم جعله رسولا إلى عدوه ، وجعل عليه عينا يحفظ الفاظه ويكتبها ثم يرفعها إلى الملك فإن اتفق كلام الرسول وكلام عين الملك وعلم أن رسوله قد صدقه عن عدوه ، جعله رسوله إلى ملوك الامم ، ووثق به ، ثم كان بعد ذلك يقيم خبره مقام الحجة .

وان ما يتحلى به من صفات المدح ، ليحرك همتنا إلى الوقوف على طرف من اخبار هؤلاء السفراء في ايران القديمة ، خصوصا إذا شئنا ان نتعرف بعض الفروق واوجه الشبه بين الغابر والحاضر .

فلما صح عزم الملك دارا على غزو بلاد اليونان ، زين له الدهاء ان يركن إلى قذف الرعب في قلب العداة ، ويعتبر الدعاية سلاحا يشبه في الفتك سيوفه المسلولة ورماحه المشرعة فاشخص رجلين من بطانته إلى ارض اليونان ، فطافا بالبلاد

وتحدثا مع اهلها مظهرين لهم صولة الفرس وجبروتهم ، وبسالتهم وشديد بأسهم ، ونصحا لهم بالترحيب بمقدمهم والتسليم عن رضا وطواعية ، كما اوضحا لهم سوء مغبتهم إذا حاولوا صدهم ووقوفا بالسلاح امامهم ، فالضعيف إذا نهض لقتال القوى انما يسعى إلى حتفه بظلفه ، ويقضى بحماقته على نفسه بيده ، فانطلى رونق هذا الكلام على اليونان ورأوا ان يؤثروا العافية ويكفوا يدهم عن محارب لا يد لهم به ، وخارت نفوسهم وذهبت شعاعا ، ووجد الفرس يوم اقتحموا عليهم ملكهم قوما مستسلمين مستضعفين.

ولما بلغ السفيران من اليونان الارب ، شدا الرحال إلى اسبرطة ، وكان اهل اسبرطة غلاظا شدادا لا جانب فيهم لرحمة او ملاينة ، فلم يرعوا للسفيرين حرمة ولم تأخذهم بهما رحمة ، فأوقعوهم فى الاسر ، ونكسوهما فى بئر حتى ماتا ميتة سوء . ونمى إلى دارا خبر السفيرين فاتقد غضبا وعول على التنكيل بمن جرح كبرياءه فى شخص رجلين من اتباعه يصدعان بما يؤمران وما عليهما إلا البلاغ ، غير أن العمر لم يمتد به حتى يشفى غيظه ويدرك ثأره . وخلفه ولده اكزرسيس الذى احفظه قتل السفيرين من اهل اسبرطة ، فأرسل عليهم جيشا لجبا ، ويقال ان الندم

ادرك الاسبرطيين على مافرط منهم ، وادركوا ان القتل فى غير جريرة معرة وخسة ، وارادوا ان يغتفروا لزلتهم ويقدموا المعاذير إلى ملك الفرس فتطوع فتيان منهم لأن يكونا سفيرين ، يرحلان إلى فارس ويسألان اكزرسيس الصفح . ورحل السفيران لطيتهما ، وبعد سفر طويل بلغا بلاد الفرس وتوجها إلى قصر الملك ، واستفتحا بابه ففتح لهما ، ولما مثلا فى حضرته قالا : « ياملك الفرس ، لايخفى علينا ان للسفراء ارواحا عزيزة مقدسة ، تستوجب الحماية من كل شر واذى ، وانا على ما كان منا لنادمون ، أما انت فقد وجهت جيوشا إلى ارضنا ، طلبا لثأرك عندنا . اثن عن عزمك ولا تغز بلادنا ، فنحن على اتم اهبة لان نفدى روح سفيرك بروحينا . نحن طوع يديك فاقض ما انت قاض واصنع بنا ما انت صانع . »

ووقع كلام الفتيين من نفس الملك اجمل موقع ، وراقه منهما ان تبلغ الشهامة والوطنية بهما هذا المبلغ ، فقد طاب لهما ان يموتا فى سبيل دفع البلاء عن وطنها ، ولم يشتد عليهما أن يكونا ذلك البرىء الذى يؤخذ بذنب المسىء ، مادام سعيهما إلى غاية ، وفداؤهما عن مبدأ . وكان الظن ان الملك لامحالة قاتلهما

كما صنع بسفيريه قومهما ، غير أنه كظم غيظه ولم يخرج عن طوره وشاء أن يكون ذا معدلة فأجزل صلتهما وأفاض عليهما الخير من كل جانب وردهما إلى وطنهما وهو يقول : « كلا لن أمسكما بأذى ، فأنا من أهل اسبرطة اكثر عدلا وأعظم مروءة »

وقد اختص ملوك الفرس الأقدمون بعادات ومراسيم لاستقبال رسل الدول وسفرائها ، ولا ريب أنهم كانوا يحرصون الحرص كله على الظهور أمامهم بمظاهر العظمه. فكانوا يستقبلونهم فى ابهاء تحار العين فيها حسنا وبهاء ، وقد لبسوا الحرير تجرى فيه خيوط الذهب ، وتحلوا من نفيس الجوهر ، كما كانوا يفتنون فى اكرامهم غاية الافتنان ، فيكرمون وفادتهم ويغدقون عليهم من هداياهم وعطاياهم ، ولا يأخذونهم بعقاب لخبر يحملونه بالغا ما بلغ من الشؤم والسوء . وان دل ذلك على شيء فهو يدل على كياسة وحسن سياسة .

وفى عهد الدولة الاشكانية وهى الدولة التى حكمت بعد فتح الاسكندر المقدونى لفارس، قويت الروابط بين الفرس والروم، وكثر تبادل السفراء بين الدولتين ، ومما ينهض دليلا على اعتبار السفارة عملا عظيما لا يضطلع به إلا عظيم ، ان الملك فرهاد

أرسل أبناءه إلى قيصر الروم لتبادل الآراء وتناقل الأخبار .

وفى عصر الساسانيين كانت مهمة السفراء فى الأغلب هى فض المنازعات وحل المشكلات ، فقد حدث أن قائدا من قواد الروم أراد أن يغزو فارس ، فوجه إليه ملك الفرس سفيرا يقنعه بالعدول عن خطته فكان من السفير الفارسى أن قال للقائد الرومى :

« أيها القائد ، إذا شئت أن تعلن علينا حربا شعواء فنحن من أخذ للحرب أهبتها ، ولكننا مع ذلك نرحم شيخوختك ، إن هامت نفسك فى ذلك الوهم الذى لا يجديك فتيلا ، ونحن نأذن لك بأن تنقلب إلى بلدك وعشيرتك تحت جناح من رعايتنا ومسالمتنا ! »

فساء هذا القول قائد الروم وأغضبه لما فيه من تهزؤ وتهكم فنادى بالثبور والويل . وقال أنه سيحاسب ملك الفرس عسير الحساب على سخريته منه يوم يفتح بلاده ، وما سمع السفير الفارسى ذلك حتى استضحك باسطا يده وقال : « انظر إلى كفى ، لن تشاهد بلاد الفرس حتى تشاهد شعرة فى كفى ! »

وصحت فكرة السفير فانكسرت جيوش الروم وقتل

قائدها مع ولده بين رحى القتال .

وكان من عادة الساسانيين أن يختاروا سفراءهم المبعوثين إلى الروم من القساوسة ، والعلة فى هذا راجعة إلى اتساع مداركهم واتصالهم الوثيق بملوك الفرس، واطلاعهم على بواطن الأمور فى البلاد والبلاط ، كما كان من امبراطور الروم أن جعل السفارة لرئيس كبير من رؤساء المسيحية ، وأرسله مرتين إلى يزدجرد ، فارتبط العاهلان بالصالح المشترك والود الأكيد ، وكان ذلك نصرا مؤزرا للمسيحية فى بلاد الفرس ، ومرجع الفضل إلى ما للسفير من لباقة وحصافة .

وفى زمان الدولة الصفوية التى حكمت إيران الاسلامية من أواخر القرن الخامس عشر إلى أوائل القرن الثامن عشر ، كان الاحتفاء بسفراء الدول الأجنبية يشبه ما نعهده اليوم ، فاذا تسلم السفير مهام منصبه فى إيران وأراد أن يحظى بلقاء الشاه المرة الأولى ، أرسلت إليه قافلة من الجمال البيض أعدت لركوب السفراء يوم تقديم أوراق اعتمادهم ، وكانت العناية عظيمة بتزيينها ، فرحالها من الحرير الأحمر ، ورقابها محلاة بالأزاهير ومقاودها من الذهب الابريز، أما قادتها فعليهم

أبهى حلة ولهم أحسن هيئة . فتزايل القافلة قصر الشاه إلى دار السفير . وهناك تناخ الأبل لركوب السفير وحواشيه ، ويسير الركب بين مظاهر الإجلال والإكرام ، حتى إذا ما وصلوا إلى القصر الملكى ، وفرغوا من اداء المهمة التى قدموا لأجلها ، أعيدوا إلى دارهم كما جاءوا . وقيل ان بعض السفراء كرهوا ركوب الابل لما فيه من جهد ومشقة وهزة لا عهد للأوربى بها ، فاعتذروا من قبولها مظهرين الأسف على الخروج بذلك عن مجرى العادة ، وطلبوا الخيل عوضا منها .

ومن سفراء إيران فى تركيا ، سفير يدعى مرتضى قليخان ، وكان أديبا شاعرا لسن اللسان . فلما رحل إلى استانبول ، وكان ذلك فى القرن الثامن عشر ، التقى هناك بالصدر الأعظم ابراهيم باشا . ورحب الباشا بمقدمه ، وسأله عن بعد الشقة ووعثاء السفر ورأيه فى استانبول الجميلة ، فأجابه السفير بقوله (لقد وجدت منها روضة كروضة ابراهيم لكرمكم وظرفكم) وفى هذا الكلام إشارة إلى النار التى اوقدت لابراهيم عليه السلام فكانت بردا وسلاما وروضة ذات زهر . وكان فى المجلس نخبة من أدباء الترك وعلمائهم كالشاعرين نديم ووهبى ،

والمؤرخ رشيد، والخطاط وحيدالدين ، فتحدث الصدر الأعظم عن الأدب التركى وغيره من الفنون كالموسيقى وتحسين الخط ، ثم استطرد إلى ذكر شعراء الفرس ، وأظهر الاعجاب بجمال الورد فى أصفهان ، وهكذا تجاذب السفير والصدر الأعظم حديثا لا يديره إلا حصيف سمح البديهة . ولهذا السفير قصة يتفكه بذكرها ، فقد اتفق له أن زار اسطول الترك فى الميناء ، وأعجب الاعجاب كله بسفينة حربية قيل له ان مدافعها تدك الحصون دكا وتدمر السفائن تدميرا ، ورأى أن تكون هذه المدافع أول ما يحدث عنه دولته بعد عودته إلى بلاده ، فأكثر السؤال وأراد أن يحيط بكل شىء علما ، وكان الشاعر المزاح وهبى بين الحاضرين فقال له (يحسن بك ياسيدى أن تدخل هذا المدفع من فوهته ليكون رأيك فيما بعد عن علم وتجربة) وبلغت بالسفير سلامة الطوية أن يحسب الشاعر الهازل جادا فيما قال . فهم بدخول المدفع ، ولم يوقفه إلا ضحك الملتفين حوله ، ولما سألهم ماذا يضحكهم قيل له ان وهبى أراد أن يجعل منك قذيفة لهذا المدفع تنطلق إلى أصفهان، فإذا بك بين قومك فى لمح البصر تحدثهم عن عجيب ما رأيت من عظمة الأسطول

التركى ! ووجدها الصدر الأعظم دعابة خشنة ، وكره أن يستسخر من السفير الايرانى ، وأمر الموسيقيين بالعزف حتى تمحو بهجة الطرب ما قد يثور فى النفوس من غضب .

والذى نلحظه هو أن السفارة فى ذلك الزمان كانت ذلك المنصب الذى نعرفه اليوم ، فلم يكن السفير رسولا يوفد ثم لا يلبث أن يعود ، وعودته رهن بانجاز مهمته كما كانت الحال فى الزمان الأول .

ثورة الجوع

ان كان للجوع ثورة تقوم ، فانما الصراع بين البقاء والفناء وهما المتغالبان اللذان لايكفان عن المغالبة أبدالآبدين. والنزاع الشديد على حياة هى أعز مايملكه الحى ويطلب له الدوم بدافع غرزى لاحيلة له فى صده ، وهذا ملحوظ فى ظواهر عدة ،منها ما يذهب اليه البعض من ان الشيخ أشد حرصا على حياته من الشاب ، وأصدق رغبة فى وصل عمر قارب أن ينقطع ، ومن حكمة الطبيعة انها تزود حتى من لاقوة له ، بقوة يستطيع بها أن يغالب الموت فى الأعم الأغلب ، وان هذا الملحظ ليدير فى خلدنا احداثا من مأثور التاريخ تنهض عليه دليلا وتصلح له تفسيرا

ففى ايران ، ومنذ اربعين عاما أو مايقرب ، احتبس المطر فى الشمال خصوصا ، فخاب الزرع وعم الجدب وشح القوت ، ولقى

القوم من ذلك أشد الجهد والعنت ، ومما زاد كربا على كرب وأضاف بلاء الى بلاء ، حال سياسية فى البلاد مضطربة ، وثورة داخلية رفع لواءها شعب غضب على حريته ، فقام مطالبا بالحكم النيابى ، وأعلن رفضه لتسلط الأجنبى وقوامته .

وكانت الغلال ترد الى بلدان ايران من حقول تتاخمها ، فانقطعت السبل بحاملها ومرسلها ، ونهب الشطار واللصوص غرائرها الممتلئة بعد الفتك بكل من زجرهم ومنعهم ، فما كان يتوصل منها الى حيث يراد ارسالها الا النزر اليسير وفى الفلتات . كما كان من التجار ان احتجزوها عن الناس ليغلو السعر ويعظم الربح . اما الخبازون فلما رأوا اقبال دولتهم ورواج بضاعتهم ، تنمروا واستعلوا ، وطاب لهم أن يشاهدوا الحشود والوفود وقوفا بابوابهم مستعطفين مستصرخين ، وبلغ من جبروت رئيس الخبازين فى طهران وغلظته أن زج أحد رجاله فى التنور ، وقد زين له شيطان الغضب أن يعاود هذه الفعلة الشنعاء غير مرة ، ووجد هذا الظلوم الغشوم قتيلا فى دكانه ذات يوم ، فكان الجزاء من جنس العمل .

وتطاولت هذه الحال وأصبح الرغيف أعز منالا من

بدر السماء ، ولم يجد الناس مايسد الجوعة ويقيم الأود ويمسك الحياة على الحى ، فاحترقت الأكباد جوعا ، وشوهدت فى الطرقات جثث أكلها السغب غير مبق منها الا عظاما رقت تحت جلود بليت . ولما تفاقم هذا الشر على مر الايام واقفرت المتاجر ، لم لم يجد اصحابها محيصا عن اغلاقها لعدم تحقق الرغبة من فتحها . وأصبحت الأسواق قاعا صفصفا ، مخافة أن تحدث الجياع نفوسهم بنهبها على زعم وجود قوت مخفى فيها ، بعد أن فسد الامن وأصبح السلب أمرا مألوفا لتعدد حوادثه حتى فى النهار المبصر ، فكان السالبون يسلبون كل ماوصلت اليه يدهم واستطاعوا اليه سبيلا ، لايفرقون بين عظيم وحقير مما يغنمون ، فهم ينزعون الوعاء الصغير فيه بعض السمن من فتاة تغدو به على أمها العجوز ، كما يقتحمون على صاحب القصر قصره باحثين فى السراديب عن القمح أو الدقيق أو خبز الشعير ، متوعدين بالقتل من حاول ان يصدهم .

وقد صور شاعر هذه الحال فقال (مادام للمحتكر يد تحتبس خبزنا ، فهذا هو الخراب والفساد فى أرضنا . وبه تدخل العدالة فى محاقها ، أما المساواة فتختنق طلعتها . ايها الطفل الجوعان ،

حذار من البكاء وشكوى الحرمان . وإلا عاجلك المحتكرون بالصفعات والضربات وأنت ايتها الأم . اودعى الثرى ولدك الذى تضمينه إلى صدرك . فقد أصبح ابن آدم أقل ثمنا من لقمة !)

وكانت مدينة اصفهان اوفى بلدان ايران نصيبا من بلاء هذا القحط المبير الذى عصف بها عصفا وعذب اهلها وجيع العذاب . غير أن هؤلاء الذين اتلفتهم المجاوع والمخامص لم يستسلموا للأمر الواقع ويتركوا المنية تنشب اظفارها فى بطونهم دون ان يذودوها عن انفسهم ، فتحركت فيهم تلك الرغبة الجامحة فى الحياة التى يستمد الضعيف منها قوة ، والعاجز المتخلف قدرة وحيلة ، واوفدوا رجالا منهم إلى حاكم المدينة ، ليعملوا عنده فى فك الكربة ورفع البلوى ، ويشرحوا له سوء الحال وماسوف يتكشف عنه الغد القريب مالم تدركهم رحمة الله ، ويسعفهم ولى الأمر بحاجتهم بعد ان بلغت الارواح التراقى ، فوعدهم الحاكم خيرا وطيب نفوسهم ، وقال لهم توكيدا ان القمح سيغمر مدينتهم ويسد جوعتهم . ولم يجشمهم الا صبر يوم واحد .

وانقلبوا إلى اهلهم فكهين ، وتنادى الناس وصبر بعضهم

بعضا بأن لذة الشبع على قدر ألم الجلوع ، وتصور كل من كان خميص البطن فى امسه ، انه سيصبح بطينا فى غده ، ثم مضى يوم تبعه يوم ، فوجد الناس ان الحاكم خاس بالعهد واخلفهم ماوعدهم ، وخدعهم بسراب ملتمع وواحة ضائعة ، فتبدلوا من عظيم الأمل بعظيم اليأس ، واصبح فرحهم ترحا ورضاهم سخطا ، واشتد عليهم أن ينتقلوا فجاءة من الضد إلى الضد فغضبوا بكل مالديهم من عواطف الكراهية والحقد ، وثارت خواطرهم ما وسعها ان تثور ، وهدتهم طبيعتهم إلى مافى التجمع والتكاتف من قوة يعدمها الآحاد ، فتزاحمت جموعهم فى ميدان من ميادين اصفهان يقال له ميدان الشاه حتى تعددوا على خمسة آلاف رجل ، قر فى افهامهم ان الحكومة حبست الخير عنهم وارادتهم بالسوء ، وما ذاك إلا لاهواء تلاعبت برجالها ، فسفهت احلامهم ،وما اصابوا الصواب شاكلة فى كل مايقولون ويفعلون ، واعيتهم حيلة يجعل الله لهم بها مخرجا .

ومن عجب أن ينضم إلى الثائرين جمع كبير من ربات الخدور اناف على ألف وخمسمائة ، فهتكن البراقع واللفاع ، بعد ان ازعجهن الجوع عن ديار كن فى عقرها قابعات ، ومزجن

من أصواتهن نبرة ناعمة بتلك النبرة الخشنة التى ارتفعت من حلوق الرجال بينما كان الجميع يصيحون صيحة صائح واحد « الجوع الجوع ! » .

وإلى النساء مرجع الفضل فى الهاب قلوب الرجال حمية وحماسة ، فقد وقفت منهن من تدعى « أغابيكم » على أكف صواحب لها ، وخطبت الجم الغفير من النساء والرجال موجهة اليهم كلاما جهرا يهز الأعماق ، بعد أن أقامت النكير على الرجال ونعتتهم بالجبن والاستخذاء ، ثم صرحت بأن النساء سيتوجهن إلى حاكم المدينة . فما لهذا الأمر إلا هن ، وسيطالبن بالخبز ، ولن ينثنين عن ذلك أو يهلكن دونه .

وسارت الجموع الساخطة الهاتفة أمواجا ترغى وتزبد وقد شق أجواز الفضاء لغطها وصخبها ، أما النساء فكن فى الطليعة ، معهن عصى يلوحن بها وأحجار للشدخ والتحطيم ، وما وقف موظفو الحكومة على جلية الأمر وسمعوا الصخب حتى غلقوا الأبواب وأوقفوا الحجاب ، وانكمشوا فى زوايا الحجرات واجفى القلوب . ووقف الثوار أمام أبواب محكمة وأسوار منيعة ، أما الثائرات فاطلقن من أفحش السباب كل سهم مسموم

سدّدنه إلى علية القوم وأهل الحل والعقد ، فما كان من الحاكم إلا أن برز للثائرين ، فاسترسلت النساء فى السب والثلب ، غير غير أنه رفع عقيرته بكلمة بين فيها أن سبب هذا القحط معزو إلى المحتكرين فى أصفهان فالذنب ذنبهم والحكومة بريئة الساحة من كل ما نسب ظلما اليها ، وستبذل الوسع فى امداد أصفهان بحاجتها من القمح .

بيد أن هذا الكلام لم يصادف من الحاضرين آذانا مصغية لاعتقادهم بأنه زور لا ينطلى عليهم فكانوا يقاطعونه باستخفافهم وسخريتهم وتكذيبهم ، حتى اجتمع الحاكم غضبا وخرج عن صبره وشاتمهم . وكان من النساء غير بعيد ، فما كان إلا أن حملن عليه حملة شديدة أفزعته والجأته إلى الفرار من وجوههن ، وزادهن ذلك جرأة ورغبة فى التشفى ، ولا عجب فهو فى رأيهن من نزع اللقمة من يد أطفالهن ، وأهلك جوعا عائلهن ، ثم هو فوق ذلك يتكذب ويخدع ويسب . فلحقن به ورفعن أيديهن بما فيها من غليظ العصى وصلب الحجارة ، وهوين بها على رأسه ، له تهشم تحت أقسى الضربات وأعنف الصدمات وأوجع الركلات فمات الرجل تحت اقدامهن ميتة سوء .

ثم وقفت «اغابيكم» بين القاتلات فاتحة عينيها بنظر شديد فيه فرحة النصر ومرارة الشماتة ، وأشارت بسحب القتيل على وجهه الى ميدان الشاه ليعرض على من يثلج صدورهم أن يروا قاتلهم مقتولا وعدوهم منكسرا ، وسحب الحاكم إلى الميدان وهناك علقت جثته فى شجرة .

وقد أشاع ذلك الفوضى والشغب فى المدينة ، وانضم الى الثائرين كثير من اللصوص والدهماء ليرتعوا معهم فى المرعى الخصيب ، فاندفعوا صوب دار الحكومة ، وتمكنوا من النفاذ الى داخلها ، ولما لم يجدوا احدا فيها ، شفوا غيظهم من الأثاث والرياش ، فحطموا ومزقوا وافسدوا ، كما نهبوا وحملوا ثم مضوا . وأصبحت نقمتهم من الحكومة أمرا خاصا لاسخطا عاما عليها ، فاثبتوا بذلك أن نفسية الجماهير تغاير نفسية الافراد كل المغايرة . وانطلقوا الى السجن ولم يثبت بابه على عنفهم وشدتهم ، فانفتح لهم عنوة ، وخلوا سبيل من فى السجن من سجناء . وما بلغت الحال من السوء هذا المبلغ حتى رأت الحكومة ان تصطنع الشدة وتأخذ على يد المشاغبين ، وكان الرأى أن تطرد هذه الذئاب الجائعة ببطش السلاح ، فلما تجمهروا امام المحكمة

كان فى انتظارهم شرذمة من الجنود على سطحها ، فأطلقوا نارهم عليهم ، فتهافت منهم على الارض امثال السنابل إذا اعمل فيها الحاصد منجله . وفلح الحديد بالحديد ، ولم يجد الثائرون والثائرات بدا من النكوص على الاعقاب والتفرق فى كل وجه .

واودع الحاكم القتيل الثرى ، وظهر أنه كان صادقا فى قوله بارا بوعده ، فقد اثمر جهده ونجح مسعاه ، وما أصبح صباح الغد حتى كانت غرائر القمح تدخل اصفهان لتعيد إلى الحياة اهلها الذين كاد الجوع يلحق احياءهم بموتاهم ، ووفرت الخيرات شيئا بعد شيء .

الوطن

من تمثيلية للكاتب التركى نامق كمال بك المتوفى سنة ١٨٨٧ ، ولهذه التمثيلية عند الترك منزلة لا تسامى ، فقد حركت حماستهم ، واشعرتهم معنى الوطنية والحرية فى عهد تحول واستشراف لعصر جديد سعيد من تاريخهم القومى . ولما ظهرت سنة ١٨٧٣، ثم عرضت على المسرح المرة الأولى فى استانبول ، كان الطرب لها شديدا ، ودويها فى النفوس عظيما فمنع عرضها ونفى صاحبها الى قبرس ،ولم ينفك الناس عن ذكرها والاعجاب بها حتى بعد ظفرهم بالدستور عام١٩٠٨ .وتعرف كذلك بسلستره،وهى مدينة على الدانوب ، ذاد الترك ذياد الأبطال عن قلعتهافى حرب لهم مع الروس.

الفصل الأول

ينشق الستار عن حجرة على الطريق مطلة. وزكية هانم فى حلة البانية متكئة على حشية، بين يديها كتاب وأمامها شمعة متقدة. واسلام بك فى الطريق يقطعه جيئة وذهابا.

زكية « تضع الكتاب على صندوق بجانبها » – اماه يا اماه لم افعمت قلبي رقة وضعفا، وانى تجعلين لعقلى كل هذه الحصافة والرجاحة، لو رأيت ابنتك اليوم لأدركك مر الندم على هذا الصنيع! كيف يقوى هذا القلب على احتمال حياة ينوء بحملها، فهى ثقيلة ثقيلة، وكيف لا يضيق هذا العقل عن كل تلك الاخيلة وهى وسيعة وسيعة. آه ما اشد وجيب قلبي، لكأنه يريد قد صدرى والخروج من بين أضالعى، أما عقلى فهو فى اضطرابه وفورته يريد تحطيما لما ينطبق عليه ويمسكه فى مستقره!

(تستر وجهها براحتيها) اماه يا اماه، ان الفكر الذى هيأته لكى يتجه دائما الى ابى، قد انحرف عنه الى غيره، والروح التى هذبتها وسموت بها رجاء أن تتعلق بك، أصبحت اليوم ملكا لآخر. لقد علمك ابى وتأدبت بأدبه ومت من أجله وادبتنى فأحسنت تأديبى غير أن الموت من اجلك لا يدور

بخلدي . وليس فى الحسبان أن يستقطر موتك دمعة من عيني .

آه منه ، انه امامى لا يريم كأنما تمثل لى بكل سبيل ، هو فى عيني صورة وفى خيالى طيف وفى عقلى خاطرة ، هو من اخذه بصرى ببعض الطريق مرة ، ياليت تلك النار التى مس حرها فؤادى وأنا ارنو الى وجهه ، كانت صهرته فذاب ذوبا ! لقد جهدت أن احول عنه ناظرى بكل ما اوتيت من عزم فما بلغت من ذلك مأربا ، ويلاه ، خذلتنى قوتى وامتنعت على عيناى . لكأنما اجتمع كل حسن فى الوجود رأيته وسمعت به فى وجه هذا الرجل الذى أمامى .

(بعد تفكير) لله هذى الحياة ما اعجبها ، لقد كنت بالامس القريب اذا رأيت باكيا الى جانبى حسبت دمعه دمع الفرح ، اما اليوم فشهقات الضحك عندى هى شهقات النحيب ، والندى فى الزهرة المطلولة دمعة فى العين المحزونة ، انا من كانت تبسم فكأن كل شىء يبسم حولى ، واليوم ابكى فكل شىء باك . هو ذا الليل قد ادبر والصبح قد اسفر وما اكتحلت عيني بغمض .

(تطفىء الشمعة) — ايتها الشمعة ما احسبنى الا مثلك فى نزعك البطىء وفنائك الوشيك . آه لو انطبق جفناى برهة ولو

كحسوة الطير . يا الله أى شيء تلك الرسالة ، لو كانت حروفها من نار لما كان لها على هذا الوقع المحرق ، لقد قرأتها فوجدت لهيبها على وجهى، وبين جوانحى ، وقدمتها الى ظرّى فامتلكتنى خجلة وددت معها ان تسوخ الارض بى ، ان الفرحة لا تقتل غير انهـــا تذهب العقل ، لقد عرفت خبر مقدمه من سطور رسالته ، انا اهواه وهو يهوانى .. هذا حق ، هذا مقطوع به ، يا الهى ان صدرا له هذا الحسن لا يمكن ان ينطوى على قلب خؤون .

(بعد روية) من يدرى ؟ ان الافعى قد تسعى فى شجرات الازاهير الجميلة !

اسلام بك ــ زكية هانم

(اسلام بك يدخل من النافذة)

زكية (تراه داخلا فتجد شديد الرغبة فى الاتجاه اليه غير انها تملك نفسها ، وبعد سكون تتحدث فى سريرتها ولكن بصوت مسموع) الم اكن محقة فى تمنى الموت كل يوم ، بالله ماذا يحدث لى اذا لحظتنا عين الرقيب ؟

اسلام بك ــ لا تخشى عاذلا ولا رقيبا ، كأى من يوم

وليلة تحركت على الأرض زحفا حتى لا ترانى العيون ، الصبح يتنفس، والسكرى مازال يرنق فى العيون فنحن فى آخر لحظات الليل ، لقد اجتزت بدارك كل ليلة ، فثقى مما افعل .

زكية (تخفى فرحتها بفتور) — من هذا الذى دعاك الى المجى. ؟

اسلام بك — بالله لا تسترى وجهك بيديك ، لقد رأيت الدنيا مرة واحدة فانت دنياى ، فهل اراها ثانية ؟ الله يعلم . وكنت استمع إلى كلامك ونجواك كأنى عين عليك (يظهر الحزن والطرب فى وجه زكية) .

انا اعلم شناعة خطئى ، ولو ان واحدا صنع معى ما صنعت معك لاستحقرته وسخطت عليه الى يوم يبعثون (وتبدو زكية أشد حزنا) لقد دخلت عليك الدار من النافذة كاللص ، ولو دخل على احد دارى كما دخلت عليك دارك ، لكان حقا على أن استحل دمه واقتله ، ولكن ما حيلتى ، وقد عجزت عن السيطرة على عزيمتى ؟ انا احبك وسأفارقك ، وسمعت اليوم من فيك انك تحبيننى .

اليوم استودعك الله . انظرى كلما اردت الابتعاد عنى ،

قربتك قدماك مني ولو كان لي سيطرة على نفسي لسلس زمامها في كفي ، وتحاشيت ان اسيء اليك . بالله مرحمة ، ان هذا القلب الذي قد من صخر ، لا يليق بهذا الجسم الذي كأنما افرغ من نور !

زكية (تنازع نفسها مهتاجة مترددة) - ما اطول ماتحملت من عذاب الموت (تشير إلى اسلام بك) ماذا تريد ؟ أنا اجاهد نفسي ، لقد انتزعتني من نفسي ، انت في احلامي إذا رقدت ، وفي افكاري إذا صحوت ، وامامي في وحدتي ، انت على الدوام . فهاك روحي وجسدي ، وارحني مما اكابد من لواعجي وبرحائي .

اسلام بك - لما ابصرتني اردت ان تحولي عني بصرك ، اليس كذلك ياقاسية الفؤاد . ولما ابصرتك اتعلمين ماذا كنت احس في قلبي لو كنت اغمضت الجفن برهة لظننت اني فقدت العمر كله ، الحمد لله حق حمده ، انك تحبين على غير عمد مثلي ولا تملكين قلبك ، لقد رأيتك مرة ورأيتني مرة ، لقد خلق قلبانا صنوين وجعلك الله لي كما جعلني لك ، ولو فرقتنا الايام هنا فسوف تجمعنا هناك ، وإذا افترقنا اليوم فلقيانا في الغد ، وقد نلوح مفترقين ، ولكن كلانا سيلقى صاحبه ، وإذا تصدع شملنا فنحن ملتقيان .

تعالى ! تعالى إلى جانبي . اقسمي لى بأنك ستبقين على عهدى ولا تحبين سواى ان فرق الدهر بيننا .

زكية - (عاجزة عن حكم نفسها) - بالله ... (خجلة) لا افهم ماتريد ان تقول ، لقد قلت لنفسى ... لقد ظهرت فلم اقل شيئا .. ماذا عساى اقول ؟ ..

ولكن ان كنت تحبنى فكيف تفارقنى !

اسلام بك - سأذهب لطيتى ...

زكية (تقاطعه بعنف) لقد ذدت عنى حب امى وابى ، وكان قبر اخى فى قلبى ، لقد انسيتنى كل شيء ، واليوم طيفه كجسده دفين فى ظلمة الارض ، لانوم لى ولا عزم ولا همة تتحرك إلى شيء ، لم تبق فى الفؤاد شيئا سواك وتريد ان تهجرنى وتزف إلى هذه البشرى !

(تخطو فى الحجرة ثائرة مدمدمة) وماذا يحدث فى النهاية ، ستزايل هذه البلاد وسأفارق هذه الدنيا ، وما اهون الموت على فإن هذا العيش لا يهنأ لى .

اسلام بك - (كأنه لم يسمع) لا بد من الذهاب ، الست رجلا ، اليس على واجب ، الست لوطنى محبا ، كيف تتوقعين

صدق رجل فى عاطفته إن كان لايحب وطنه !

زكية ـ ان كان حديثك عن الوطن فماذا عسيت ان اقول ؟ اذهب اذهب ! الم تستحلفنى ! ويمين الله بجميع اسمائه الحسنى ، الذى خلق هذه الدنيا وجعل هذا الحب لاكونن لك فى الدنيا والآخرة .

اسلام بك ـ وانا ايضا اقسم بربى .

زكية (مقاطعة) صه ، لا اريد ان تقسم ، فانا ان توقعت كلمة كاذبة تفوه بها جننت جنونا .

زكية بالحجرة ـ اسلام بك ـ الجنود المتطوعون فى الخارج .

اسلام بك ـ (فى الطريق) نحن هنا ايها الرفاق .

(تسمع زكية صوته فتعدو إلى النافذة مستطلعه وتختفى فى جانب منها) .

متطوع ـ نحن هنا جميعا .

اسلام بك ـ ايها الرفاق ، لقد التففتم حول لوائى . وانى بذلك لمزهو فخور ، وان كنت لا ادرى هل احوز رضاكم أم لا ؟ انا ذاهب إلى القتال ، وقد عقدت العزم على ان اموت ، انا لا انال على ذلك أجرا ، وعلى الراغب فى الاجر ان يخرج

من زمرتنا ، ولا امل لى فى غنيمة وعلى الراغب فيها ان ينسحب . وقد وطدت عزمى على الاين واللغوب ، فعلى طالب الراحة الا يتبعنى . ولا خشية لى من السيوف المجردة والسهام المسددة ، فاولى بمن يخشاها ان يقبع مع اهل بيته . أتفهمون كلماتى ، وتملكون ان تطردوا خشية الموت من قلوبكم ؟ افى مكنتكم ان تعتبروا صدوركم قلاعا تحمى بلادكم . اتذهبون لملاقاة الردى ؟ سنبذل انفسنا عن وطننا والله حافظنا ، اما إذا لم يحفظنا فتلك حكمته وله الأمر من قبل ومن بعد ، ألكم فى انفسكم عظيم الثقة ؟

ايها الرفاق انا إلى شـــاطىء نهر الدانوب متجهون . الدانوب حياتنا وإذا فقدناه فقدنا الوطن ، فما استطاع احدان يحيا فيه ، وقد يستطيع البعض ان يعيش فيه ، كلا كلا ! قد يستطيع احد ان يعيش ولـكنه لن يكون رجلا . فلا يمكن لرجل ان يعيش وهو يرى امه تحت الاقدام ، والرجل لن يعيش وهو يرى ولى نعمته تحت اقدام المهانة دون ان يحرك ساكنا إلا ان يكون احقر من كلب ، ايها الاخوان ، ليس الانسان باحقر من كلب .

ان الله يأمرنا بمحبة الوطن ، الدانوب معناه الوطن فاذا ذهب احدهما لحق به الآخر. وستجدون عظام آبائكم واجدادكم اينما سرتم وتوجهتم على شاطئه ، وإذا رأيتم الكدرة فى مائه فهذا الغرين ذوب اجساد من نافحوا عنه من ابطال اماجد .

لقد عبر الترك الدانوب يوم عرفوا برنين اسمهم ، لقد عبروه دفعات ، إلا انهم لم يستولوا عليه ، وما دام لهم وجود فى هذا الوجود فلن يغلبوا عليه . أأنتم على اتم الأهبة للموت من اجله ؟ اتقسمون بربكم على انكم ستتبعوننى ؟

المتطوعون — يميننا لانحنث فيها .

اسلام بك ـ من احبنى تبعنى .

الفصل الثانى

(يرفع الستار عن فريق من المتطوعين ، وهم جلوس فى جانب من قلعة سلستره ، وزكية فى ثياب الرجال)

متطوع ـ الزموا الصمت الزموا الصمت .

متطوع آخر ـ ما الخبر ؟

المتطوع الاول ـ اما تسمع الموسيقى .

المتطوع الثانى -- علام هذه الجلبة ، الجيش قادم .

المتطوع الاول -- كأنها نغمات حربية .

زكية -- مادامت النغمات حربية فلنترنم بنشيد حربى .

المتطوع الثانى -- تأمل هذه الطفولية .

عبد الله -- اين هذه الطفولية ! ؟

المتطوع الاول -- صه يارفيق .

(الجماعة) لنترنم بأنشودة

« الوطن شاغلنا عن أنفسنا ، واقباله مناط آمالنا ، ولنا من اشلائنا حصن يحمى حدودنا . نحن العثمانيين زينتنا كفن ملطخ بالدماء ، والموت فى الهيجاء اعز مالنا من رجاء ، نحن العثمانيين رايتنا حسام دام ، ولا خوف من الموت فى سهلناولا جبلنا ، فالاسد رابضة فى كل ركن من بلادنا . الموت فى الهيجاء أعز مالنا من رجاء ، نحن العثمانيين نبذل الارواح والاجساد لننال اعظم الامجاد . ان للعثمانيين اسما يلقى الرعب فى كل القلوب ولاجدادنا مهابة تعرفها الدنيا بأسرها ، لاتحسبن دماءنا قد تغيرت فدماؤنا هى دماؤنا ، والموت فى الهيجاء أعز مالنا من رجاء ، نحن العثمانيين نبذل الأرواح والاجساد لننال اعظم الامجاد .

ولهذه المدافع ان تقصف وتبعث بالنيران فى كل الانحاء ، ولتفتح الجنان ابوابها للشهداء . ماذا اصبنا من دنيانا لنهرب من منيتنا ! الموت فى الهيجاء اعز مالنا من رجاء ، نحن العثمانيين نبذل الارواح والاجساد لننال اعظم الامجاد . »

صدقى بك - على الراغب فى البقاء بالقلعة أن يقف ناحية .

متطوع - انما قدمنا للبقاء هنا جميعا ، فما معنى أن يفارق بعضنا البعض .

صدقى بك (لا يلتفت الى كلام احد) - يارفاقى لقد عبر العدو النهر . والحكومة قادرة على حماية قلعتها بجنودها ، وانتم فى حل من البقاء هنا كما اذن لنا الباشا .

متطوع - العدو كثير ، فهل تريدوننا ان نكون اقل عددا على قلتنا !

عبد الله - ان كنا فئة قليلة فأى بأس فى ذلك ، مادمنا قلة ، فالموتى عديد قليل . اما اذا كنا كثرة فالموتى فئة كبيرة .

صدقى بك - صه ، دعهم فى كلامهم .

عبد الله - بالله .

صدقى بك - ايها الرفاق ان المحاصرين يلاقون من الجوع

اهوالا الى تلك الاهوال التى يلاقونها من بطش سلاح العدو .

انجوا بأنفسكم .

متطوع - سيدى : لقد جئنا طوعا لا كرها ، وكان مجيئنا من أجل شيء ، اتشير الى العدو باحدى يديك ، وتشير الينا أن نهرب بيدك الاخرى ! لقد عشت ما كفانى وهاهو ذا كفنى معى ، وانا على اهبة الموت ، لقد قدمت من بغداد على هذه النية .

صدقى بك (مشيحا) لست اعنيك بقولى يارفيق .

متطوع - اذن اينا تعنى ؟

متطوع آخر - اينا بلغ من الجبن والنذالة ان يولى الادبار قبل بدء المعركة !

صدقى بك - حسنا ، انت مثلنا تريد الموت من أجل الوطن ستثاب وتؤجر عند ربك ، واذا ذهبت نفسك بقى اسمك ، والرجل بحق هو من يؤثر اسمه على نفسه . كونوا اشجع الشجعان ، لا تهابوا الموت ، فانه لاشك مدرككم فى يوم من الايام ولا منجاة منه فى سلم ولا فى حرب .

(يشير الى زكيه) ياغلام .

زكية - سيدى

صدقى بك ـ من تكون ؟

زكية (حيرى) ـ انا رجل من الرجال .

صدقى بك ـ ما اسمك ؟

زكية (تتمالك نفسها) ـ رجل ياسيدى .

صدقى بك (فى نفسه) ـ ماهذه القحة ! (مشيرا اليها) لك أن تغادر القلعة .

زكية ـ انا ابذل حياتى ، اتحدثنى لحداثة سنى ، ان كنت جئت الى هنا لنقتل الرجال فاقتلنى معهم ، اما ان كان مقدمك الموت فاعلم بأنى سأكون بالموت اطيب منك نفسا .

اسلام بك (يعدو وفى صدره جراح)

سيدى سيدى .

زكية ـ آه .

صدقى بك ـ لقد عبروا النهر وهم عشرة آلاف رجل ، فصمدنا لهم ونحن ثلثمائة وقاتلناهم ثلاث ساعات ، نعم ثلاث ساعات قضيناها فى الجهاد والجلاد فسقط رجالنا جميعا . لقد لحق كل منهم برحمة ربه ، ولكن بعدان اهلك اثنين من الاعداء وهاهى ذى الاجساد على اديم الارض ، لقدواجهنا عشرة آلاف

سنان مشرع الينا وتواثبنا بين القنابل ، وانهمر على رءوسنا من الرصاص مثل الوابل ، ثم التحمنا واظهرنا عثمانيتنا . لقد متنا عن آخرنا ، آه ولم يبق منا الا سبعة ، ولقد وددت أن ألحق بهم والله على ما اقول شهيد ! وكنت فى الطليعة ، فنفدت مؤونتى وتحطم سيفى .

(وتقترب زكية هانم رويدا رويدا من اسلام بك وهو يقص قصته حتى يسقط بين ذراعيها ، ويلتف الحاضرون حولهما) .

اسلام بك ـ تعال ياعبد الله ، سر بها توا الى حجرتى ، ووافها بكل ما تطلب ، ادع طبيبا ، لاتتركها حتى اعود .

عائشة التيمورية في شعرها الفارسي والتركي

العربية والفارسية والتركية ، هى اللغات الاسلامية الثلاث باعتبار الأهم وتقديمه على المهم . وقد اتى على المتأدبين من ابنائها حين من الدهر كانوا معنيين بها يتعلمونها ويتفهمونها ، على ان ذلك ضرورة ثقافية لاغنية لهم عنها ، ووحدة كاملة لا سبيل الى التفرقة بين عناصرها ، لأن الادب الاسلامى الرفيع يتألف منها ويتفرع عنها فى ثلاث شعب تتكامل وتتجاوب وتحتفظ كل منها للاخرى بظلال واضحة وأصداء مترددة .

وقد ظل هذا دأب المتأدبين الى نهاية القرن الماضى ، وانه ليفسر لنا أن ينظم شعراء من الفرس بالعربية والفارسية ، ومن الترك بالتركية والفارسية . غير اننا اذا اردنا تحديدا ودقة ، قررنا ان ابناء التركية كانوا اكثر عناية باللغات الثلاث ، وما

ذلك الا لحداثة عهدهم بالادب ، فان ادبهم ترجع نشأته الى ماقبل ستة قرون ، على حين كان الادب الفارسى مزدهرا منذ الف سنة والادب العربى منذ الف وخمسمائة او مايقرب . ومن ثم وجد الترك مس الحاجة الى النظر فى آثار من سبقوهم ، لتأثر خطاهم واحتذاء امثلتهم . وهذا ظاهر الوضوح عند بعض من رجالات الادب فى مصر المنحدرين من أصل تركى ، أو الذين عاشوا فى بيئة تركية الثقافة ، كمحمود سامى البارودى باشا الذى كان يحذق الفارسية والتركية ، ويتزود من آدابهما لأدبه ، ونسوق لذلك مثلا قوله فى ذم الدنيا :

إذا احسنت يوما اساءت ضحى غد
فاحسانها سيف على الناس جائر
ترب الفتى حتى اذا تم أمره
دهته كما رب البهيمة جازر

فهو متأثر بقول الشاعر الفارسى سعدى: «اخى ، هى الدنيا لاتبقى لكائن من كان ، فكافيك منها أن تكون موصول القلب بالرحمن . لايغرنك ملكها ، ولا تكن فى امن منها ومن حدثانها ، فكم من امثالك ربت ثم قتلت . واذا ماحان انقضاء

عمرك ، فسواء ان تموت وانت على عرش ، ام ان يكون لك من التراب فرش . »

وكان من يدعى اسماعيل تيمور باشا من أماثل الكتاب ومذكوريهم على عهد محمد على الكبير الذى اصطفاه واتخذه كاتبه الخاص لاتساع باعه وعلو كعبه ، فقد كان علمه بالتركية فى وزن علمه بالفارسية والعربية . وله ابنته عائشة التيمورية التى نظمت الشعر شيئا عجبا ، فكان من حقها علينا وقفة عندها ونظرة فى ديوانها . فنحن لا نعرف من الشعراء والشواعر من نظم جديا فى اللغات الثلاث بهذه القدرة وتلك الوفرة . ومن اسف ان يسكت عنها مؤرخو الأدب التركى سكوتا تاما ، مع ان لها شعرا تركيا يروق ، وشاعرية ليست لشواعرهم ، وهذا السكوت معزو الى جنسيتها المصرية ، وانه ليذكرنا بأدباء الترك الذين طووا ذكر السلطان سليم الاول كشاعر ، لأنه لم ينظم إلا بالفارسية كما أهمله أدباء الفرس لجنسيته التركية . واذا ماقرأنا هذه الشاعرة المصرية التى ضاع جانب من آثارها بين العرب والترك والفرس تهيأ لنا ادراك الفرق بين دواوينها الثلاثة ان كان هناك من فرق .

وديوانها الفارسى التركى مطبوع بالقاهرة عام ١٣١٥ هجرية ، وقد قدمت له بمقدمة تركية بليغة فى شرح حالها ، واظهرتنا على الكثير من دقائق حياتها ، فروت لنا قصة جميلة بها من الاحداث والملابسات مالا يكون الا فى قصة شاعرة كمثلها . فذكرت كيف بلغت ضحوة العمر ، وارادت بها امها ان تعالج فنون التطريز والحياكة على غير رغبة منها ، فانما كانت همتها إلى الادب متجهة ، ومتمناها ان تنصرف انصرافا تاما إلى شعر تكلف به اشد الكلف . وما احس ابوها وهو الاديب الاريب بذلك من امرها حتى احزنه ان يجد البلبل حبيسا فى القفص ، واحب له ان يكون طليقا مغردا بين الاعناب والنخيل ، فاستدعى لها من يؤدبها ويلقنها العربية والفارسية والتركية . فبرعت فى الفارسية والتركية كل البراعة وانكبت عليهما تدرسهما حتى استأدبت . واتفق لها يوما حدث تفتحت له شاعريتها ، وذلك ان الخصى الذى كان يقوم على تربيتها ، دخل غرفتها وبين يديه طاقة زهر قدمها اليها ليطرفها هدية تعجبها ، فتناولتها وجعلتها فى اناء الزهر .

وكان الوقت ليلا والليلة مقمرة ، فدخل القمر الغرفة وغمر الزهر بنوره اللؤلؤى الحالم ، وكان مشهدا شعريا جميلا ، فكأنما

قطعة من الفجر تبسم للزهر المطلول والليل مرخى السدول !

ووقفت الفتاة تتملى هذا الحسن بروح سكرى، وعين ترنو فترى ما لا تراه العيون ، وبينما هى فى وقفتها اذ نادتها امها فى حاجة لها ، فانطلقت اليها ووافتها بما طلبت ثم عادت إلى زهراتها ، ، فاذا بها منتثرة كأنها شمل احباب كان جميعا فتصدع . وحزنت لذلك حزنا مرا حرك اعماق نفسها الشاعرة ، فنظرت إلى البدر مليا ثم جادت قريحتها بهذين البيتين من الشعر الفارسى وهما : « يا بدرا فى السماء منيرا ، هو ذا زهرى اراه نثيرا ، بالله إلا قلت لى من اذبلك ولك عندى ما تتمنى ، أى حزن هذا الذى له وقد الجمر فى نفسى وانا اشاهد زهراتى فى ذبولها ! »

وفوجئت عائشة بأبيها يسألها عما تصنع ، فأنشدته البيتين ، فطرب كثيرا لهما ، وطابت نفسه بابنته وبهما ، واحتضنها داعيا لها ماسحا على رأسها ، ثم اوصاها باللغات الثلاث ، قائلا ان الشعر لا يحسن إلا فيها جميعا .

وهذان البيتان نخصهما بالذكر لانهما باكورة شاعريتها ، ويالها شاعرية اصيلة تدرك الجمال فى صفه لم تبتذل ، ولم تدر على ألسنة الشعراء دورانا يفقد الجديد جدته والمليح ملاحته ،

كما يشهد لها هذا الوصف للزهر والحديث عن البدر بانها تصدر عن شاعرية أصيلة وملكة مواتية ، فلا تتكلف ولا تتعسف متبعة مقلدة لما ردده الاولون فاطالوا ترديده ، والتزموه فما كادوا يتخلون عنه . وانها لصورة ساذجة رسمتها لنا غير واضحة المعالم بريشة رقيقة تتردد بين انامل يعوزها الثبات وتنقصها الدربة ، وان كان لا يسعنا امامها الا ان نتخيلها فى غد مشرق مزهـــر بعد استتمام الاداة ونضج التجربة والتطور المأمول بعد مرور الزمن .

ودارت الايام ، وحان لعائشـة ان تتزوج ، فتزوجت ورزقت (توحيدة) ، فانست بها وحدبت عليها ، واورثتها علمها وادبها وما لبثت الصغيرة ان تمت قواماواستوت خلقا ، غير ان الداء دب فى شبيبتها كدبيب الذبول فى كم لما يتفتح ، وبلغ من رقة حس العليـلة ونبـل عاطفتها ان تكتم عن امها ما تشتكى ، وشديد ما تجد من ألم فى جسدها الضاوى ، واسف فى نفسها الحزينة على عمر لم تبق منه بقية . فكانت إذا سئلت عما اصارها إلى المشاهد من حالها ، قالت انها بخير حال ، وان اعجزها ان تغير ماينطق عنها من ضنى وشحوب . وحدث يوما بين الام

وابنتها ما يوقفنا على تلك العلاقة التي كانت بينهما في هذا الصدد ، وذلك ان توحيدة آوت إلى مضجعها ذات مساء مبكرة على غير عادتها وفي عينها اثر الدمع ، بعد ان اطبقت يدها المخضبة بالحناء على قرطاس وقلم ، ثم لبثت بعض اللبث في هدوء وسكون ، وفطنت الام إلى ما كان من ابنتها ، وارادت ان تستكشفها عن سرها ، وتسللت إلى حجرتها ، فما شاهدتها توحيدة حتى ارتعد هيكلها الواهي ، وكانت اسرع شيء إلى دس القرطاس بين الوسائد ، ولما طلب اليها ابرازه حزنت والحت في رجاء حار ان تترك وشأنها ، وقالت انها لاتحب اطلاع احد على القرطاس . ثم دفعته إلى جارية لها ، ورغبت اليها ان تقدمه طعمة للنار ، إلا ان الام كانت اشد شوقا إلى الوقوف على جلية الامر من ان ترضخ لمشيئة ابنتها ، فتعقبت الجارية وانتزعت القرطاس من يدها وبسطته ، فإذا فيه ابيات من الشعر نظمتها توحيدة في البكاء على نفسها بعد ان شعرت بالموت يخطو حثيثا نحوها ، وهي :

اسمع مقالي يا اريب ... وقصتي شرح مريب
قد كنت في دوح الصبا ... اهتز كالغصن الرطيب
اصبحت حالي عبرة ... يبكي على مثلي الغريب

كلا ولا لى منهل اروى به الا النحيب
فالدمع منى ساجم والرمس اضحى لى قريب
يارب عجل رحلتى واغفر ذنوبى بالحبيب

فأخذ الأسى من عائشة كل مأخذ ، ووجدت فى الفؤاد حرقات الثكل ولذعات الفجيعة ، فطال ليلها سهدا ، وسرى الوهن فى جوارحها والخور فى نفسها إذ تذكر انها ستقف من توحيدة وقفة الوداع . وصدق شعور البنت وحسبان الأم ، فمضت توحيدة انضر ما تكون عودا وكأن ليلة مأتمها كانت ليلة عرسها .

وكان موت توحيدة شديد الاثر فى حياة عائشة التيمورية عامة ، والادبية خاصة ، لأنه الستار الاسود الذى انسدل ليفصل اتم الفصل بين امسها ويومها . فقد كفت عن قول الشعر بعد مدة ، ولم يبق فيها جانب لتلك الدنيا التى انصرفت عنها بشاشتها بموت ابنتها ، وزهدت فيها زهادة حببت اليها ان تنطلق منها بعقلها وقلبها ، فاتجهت بنفسها الى الآخرة ملتمسة موئلا من آلامها ، وريا لصداها ، وعكفت على القرآن تتلوه وكتب الاحاديث تستوعبها رجاء السلوة والعزاء ، مستعينة بكل ذلك على تناسى المصاب وصبر المؤمن المحتسب . ثم عمدت الى شعرها العربى والتركى

فحرقت اكثره، ولم يبق إلا اقله ، اما شعرها الفارسى فأكله اللهيب برمته واذرته الريح رمادا ، وكل ما يحتوى عليه ديوانها منه ابيات نقشتها على قبر ابنتها وهى : « ولما تناهى إلى سمع العروس نداء الحور العين ، قائلات ان المواشط منتظرات لمقدمها فى قصر عليين ، قالت انى اليكن قادمة ، ولكن لى اما تزفر النار من كبد حرى ! اماه لا تنتحبى وكفى عن البكاء ، وعليك بجرعة من ماء ، لقد انقضى الأجل ، ودعيت للرحيل عن الدنيا لاستيفاء النصيب منها ، فأى جدوى من طب لقمان ؟ ايها الزائر ، ان قبرى يستهديك ان تقرأ الفاتحة لروحى ، وتطلب الرحمات من رب السموات » وليس فى مكنتنا ان نحكم حكما عادلا على هذا القدر الضئيل من شعرها الفارسى وان بدا اقل طلاوة من شعرها التركى والعربى فى الرأى الاغلب . اما اختيارها الفارسية لشعر القبر فمرده إلى ان الترك جرت عادتهم بالتشدق بالفارسية تفصحا وتظاهرا بسعة العلم على انها لغة البلغاء وصيارفة الكلام . وان احراقها لشعرها لمما يجعلنا نميل الى الظن بأنه من وحى ذكرى حزينة ، هى ذكرى توحيدة يوم طلبت احراق الابيات التى نعتت فيها نفسها .

وديوانها التركى يحتوى على قدر صالح من الشعر الجيد إذا

وزناه بميزان عصره ، وهو يضم معظم الفنون الشعرية التي عالجها شعراء الترك ، فافتتحته بقصيدة فى المناجاة منها : « لقد قدمت ياملك الملوك بعد ان اثقلنى حمل ثقيل من جرم وعصيان . فأنا كاسفة البال من وحدة واسر وفقر ، انا الحقيرة يارب الاحسان . انا من اذنبت فذلت وقصرت فكلت ، وما اشد خجلتى من عجزى وخيبتى ، غير انى سأجد السلامة يوم القيامة إذا ماشفع لى روح عدنان . ولفظ « الا » يحلو لى قلبى فحاشا وكلا ، لن يمسنى حر النيران » .

فهذه المعانى المحدودة المعروفة قلما نعدمها فى دواوين الشعر التركى القديم ، والشعراء يظهرون بها اتباعهم للتقاليد الشعرية ، ويشبعون نزعة دينية صوفية .

وعائشة التيمورية تميل الى الفخر كل الميل وتبدو فيه تياهة معتدة بنفسها الى ابعد الحدود ، كما تجنح كثيرا الى المبالغة فى التشبيه ونصاعة الديباجة ، ولها ولوع بتصيد الالفاظ البراقة حسنة الجرس . فهى التى تقول : « ان لنور افكارى اشعة هى شفاف الياقوت ، ورأيى الذى هو زينة عفتى مشكاة ترسل الضوء من وراء حجاب . وإذا ماقرءوا لفطنت وليلى بالسبق والبراعة ،

فانا من يسأل الرأى والحكم ، وتقريظى فى اختتام احسن عنوان.
وان ولادة والخنساء لتقسمان على كمالى وتبريزى ، وهما لاريب تعترفان بالعجز عن بلوغ شأوى . وقصيدى تاج على شعر الشعراء من ترك ومن عرب . »

فقد ذكرت الشاعرتين التركيتين فطنت هانم وليلى هانم والعربيتين ولادة والخنساء على انهما اشعر الشواعر جميعا ، والبون بعيد بين هذه الفخرية التركية وفخريتها العربية لانها فى قصيدتها العربية انعم نبرة وارق معنى واقل تكلفا .

ولها قصيدة طويلة بعنوان «قصيدة خيالية» وهى فيها تتحرر من قيود التقليد وتبدو شاعرة واسعة الافق تولد المعانى الكثيرة من المعنى الواحد ، وتضفى عليها من روحانيتها رونقا وبهاء . والقصيدة من الشعر الرصين العالى الذى يتعاصى على كثير من الافهام ، واجمل مافيه هذان البيتان : « وقع طائر الامل فى روض الوفاء ولم يجد له مكانا يعتش فيه ، فدار ببصره بين الأشجار وهو ينوح ، فهل عمد القدر الى قوادمه فقصها ، حتى تنقل كالغريب التائه ، ورغائبه من فوقه اغصان واغصان . »

وقد نظمت فى اغراض اخرى منها الرثاء : فرثت عليه القوم

كالخديو توفيق ، وبكت امها واباها ، ومن عجب ان يخلو ديوانها من مرثية لابنتها ، اللهم إلا بضعة ابيات تعتبر وسطا بين الجودة والرداءة اوصت بنقشها على صفحة قبر توحيدة . ونحن لانجد مايمنعنا من الظن بأنها رثتها بالتركية فضاع الرثاء فى جملة ماضاع من شعرها .

ومن شعرها فى الغزليات قولها : «انا السكرى فهل من الصهباء نشوتى ، انا النائحة فهل نواحى نواح الناى ، ايها الحظ العاثر الغادر ، هل كل ما القاه منك انت او منى انا او قلبى . انتحابى كانتحاب البلبل بين الأغصان ، واحتراقى كاحتراق الفراشة فى النيران ، والله ما ادرى ما الذى يبكينى ، هل كل ما القاه منك انت او منى انا او قلبى . اظل حيرى طول ليلى ونهارى ، فهل من بأس إذا سألتك ؟ بالله ما اصارنى الى تلك الحال ، هل كل ما القاه منك انت او منى انا او قلبى ، الناس فى فرحهم ومرحهم ، والاحبة فى هناءة باسمة ، وانا من يصعد زفرات الأسى ، هل كل ما القاه منك انت او منى انا او قلبى . »

فهذا الشعر الصوفى الجميل بما يشتمل عليه من رمز وايماء ومعنى روحانى ، هو الكنز الذى خلفه شعراء الترك والفرس

للانسانية ، والربيع الذى تهيم فيه روح من تأدب بأدبهم ، لأنه يغمر النفوس بنشوة حالمة تطرب الصوفى الواصل وتعجب المتيم الولهان ، فكل منهما يبكى على ليلاه ويفهم بوحى من ذات نفسه، فلكل لفظ فى هذا الشعر معنيان قريب غير مقصود وبعيد مقصود وللقارىء ان يفسر كما يشتهى وعلى الوجه الذى يرتضى ، وهذا لا نعهده الا عند بعض من شعراء العرب ، فعلينا بعد ذلك ان نخفف من عجبنا ونحن نرى الناشر لديوانها العربى يقول فى باب الغزل : « وقالت متغزلة فى غير انسان ، والقصد تمرين اللسان» ، ولم تدع الحاجة الى مثل هذا التنبيه فى ديوانها التركى اعتمادا على معنى الغزل فى فهم الترك . وان ذلك لفارق بين الشعر العربى والتركى .

دقيقة واحدة .. [illegible]

جلس ملك الملوك على حشية حرير فى حديقة قصره المتراحبة الارجاء ، وكان المجلس مجلس أنس وطرب ,فأدار الكأس على السمار ساق مشرق الجبين ، وسطعت شموع العنبر نورا وعبيرا وقد خفقت اوتار الرباب فسرت خفقاتها فى القلوب ، وهزت من أعطاف راقصة ما هزت النسمات من شجرات السرو والحور ، وامتدت نقوش البسط امام الجالسين ازهارا واطيارا ، فكأن فى البستان بستانا طاب الوانا والحانا .

وعب ملك الملوك من الصهباء كأسا تلو كأس ، فمال رأسه وثقل جفنه ، وهام فى الأوهام والرؤى ، وكان هذا الملك وهو المسمى خشايارشا ، كثير الزهو معجبا بصولته وسلطانه ،وبتلك الاقاليم المائة والعشرين التى تستظل بعرشه وتنضوى تحت لوائه . وساقته كبرياؤه إلى حب الظهور بكل ما يدل على عظمته ويشير

إلى انفراده بالملك والسيادة ، فزينت له نشوته ان يأمر الغلام بدعوة احدى حظاياه إلى حضور مجلسه ، وشرط ان تأخذ احسن زينةوتبدو فى ابهى الحلل لتبهر الحاضرين بالجمال والجلال وما كان يرمى من ذلك إلا ان يطلع الندماء على عظمته مضافة إلى عظمة ما يمتلك .

وامتثل الغلام لأمر مولاه ، وانطلق الى مولاته واخبرها الخبر ، فلما عرفت جليته نفرت نفارا وابت ان تطيع ، وقالت فى نفسها ان هذا الا كلام مخمور والخمر تذهب بعقل شاربها . وانهى الى ملك الملوك ما كان من اباء حظيته فاستشاط غضبا ، وعدم الحيلة ، فما وسعه الا ان يستشير اهل مشورته ، فقال قائلهم ان حظية الملك سيدة النساء ، وللنساء أسوة فيها ، واذا مر بسمعهن انها خرجت عن الطاعة ، كن اسرع شيء الى تقليدها فعصين الازواج ونشزن منهم ، وهذا شر عظيم وفساد فى الأرض . فالرأى ان يسلو عنها ويطردها من قلبه . قيل واشير عليه بأن يقتلها فأمر بقتلها ، وتقوض مجلس الانس ، وران على قلب ملك الملوك هم وغم .

ومرت ايام بعد ايام ، فثابت اليه نفسه ، وانجلت عنه

غمرات اساه ، فوجد مس الحاجة الى عوض من تلك الحظية التي ذهب بها النشوز والعصيان ، وبث رجالا من بطانته يطلبون له ذات حسن تصلح للملوك ويصلح الملوك بها . وجاسوا خلال البلاد ، فما اصابوا جوهرة غالية جدوا فى نشدانهـــا ، فرأوا لليأس ظلمات تغشى نفوسهم ، غير ان بارقة لمعت فجاءة لتبديد تلك الظلمات ، فقد اعترض سبيلهم رجل يهودى بمدينة شوش يدعى مردخاى ، وجاءهم بذبأ هز القلوب منهم فرحا ، لان هذا الرجل كان يكفل ابنة اخ له بارعة الحسن يقال لها هدسا . فاجلس الفتاة بحيث يرونها ولا تراهم ، وما وقعت عليها عيونهم حتى راقهم جمالها ، وايقنوا انهم أمام كنز تبدى لهم من بعد طول احتجاب . فحملوها إلى القصر ومعها عمها الذى اوصاها بانكار يهوديتها وإخفاء نسبها ، حتى لا يرتاب احد فى امرها ، او يكره منها جنسها .

وفى القصر وكلت سبع جوار بخدمتها ، فزينت وعطرت واكرمت ونعمت ، ثم اتخذت سبيلها إلى حضرة ملك الملوك الذى تعلقها ، وتهافتت عليها روحه تهافت الفراشة على النور ، فآثرها ولم يؤثر عليها ، وسماها « استر » بمعنى نجم فى الفارسية ،

ولاغرو فلئن كانت نجما فى حسنها ، لقد اصبحت نجما فى رفعتها وعلو شأنها .

اما عمها مردخاى ، فما كان أبعد البون بين يومه وامسه ، لانه اصبح من اهل السيادة ، فعظم جاهه وسمت رتبته ، واتخذ من ابنة اخيه وسيلة لكل ما يريد ، فكانت تأتمر بأمره وتصدر عن رأيه ، وذلك من طرف خفى . وقد تنسم الاخبار ذات يوم فتناهى اليه ان ملك الملوك مقصود بالسوء ، وعرف ان رجلين من رجاله يضمران نيتهما على قتله ، فوجدها فرصة مواتية لمكافأته ان دل عليهما ، وسرعان ما اسر ذلك إلى استر ، وامرها ان تنقله بدورها إلى مولاها ، فتنبه الملك إلى ما كان عنه غافلا ، ورأى ان يرد السهم الى نحر راميه ، وكفى نفسه شر الرجلين بقتلهما ، ومد عمره من عمرهما . وتطلع مردخاى من الملك خشايارشا إلى ان يكافىء حسن صنيعه ويرد جميله فطال انتظاره ثم طال !

وكان للملك وزير يدعى هامان ، وكانت له الرتبى على الناس ، فأمروا جميعا بتعظيمه وإكباره وطاعته ، وحز فى نفس مردخاى وكبر عليه ان يستأثر هذا الوزير دونه بالمنزلة

التى لاتسامى ، فلم يظهر له اجلالا ولا اكتراثا ، كما نقم منه الوزير دسه ومشيه بالنميم ، وان يصير إلى بسطة فى الدنيا وسعة من المال ، وهو الذى كان بالأمس مستحقرا ضعيف الشأن . فهاج العداء والشر بين مردخاى وهامان ، وتمنى كل منهما لو تمكن من خصمه فأورده موارد الهلكة . واراد الوزير ان يوغر عليه صدر الملك متربصا به الدوائر ، ومؤملا القضاء عليه وعلى ابناء قومه قضاء مبيرا ، فقال للملك ، ان فى البلاد قوما لا يدينون له بالطاعة ، ويجتمعون على عداوة الايرانيين الذين يخالفونهم فى الجنس والعقيدة ، كما ينقبضون عن غيرهم ، فلهم عاداتهم وعرفهم وشرائعهم ، فمن الخير ان يقتلوا عن آخرهم فتستأصل شأفتهم وتكسر شرتهم ، وما كان الملك ليراجع وزيره فى امر من الأمور ، لأنه تعود ان يستشيره لا ان يشير عليه ، فصح كلام الوزير فى فهم الملك ، وفوض اليه امر قتل اليهود فى ايران .

وماظن هامان انه ادرك بغيته حتى سر سرورا لا مزيد عليه ، وعقد العزم على ان يشفى غيظه من مردخاى وابناء جنسه الذين عاداهم من اجله . واحاط اليهود بذلك علما فجزعوا جزعا شديدا ، ورأوا انفسهم مسوقين إلى هوة للعدم تحت اقدامهم ،

ولم يجدوا مخلصا لهم من ذلك الهول إلا مردخاى فسعوا اليه زرافات زرافات ، وطلبوا الشفاعة عند ابنة اخيه لتثنى الملك عما نواه . فمزق مردخاى ماعليه من ثوب وعفر فى التراب رأسه ولحيته ، ودخل على استر باكيا منتحبا يدق صدره ، فقالت له فى ذلك ، واوقفها على الأمر ، فهدأت من روعه وطيبت نفسه واوصت ان يصلى اليهود فى ايران ويصوموا ويدعوا ربهم ان يلهمها المقدرة على تنفيس الكرب ودفع الشر ورد كيد الكائدين .

ودخلت على ملك الملوك الذى عودها ان يسألها حاجتها متحببا اليها بقضائها ، فطلبت اليه امرا ما كان ايسره ، وهو ان تجمعها به وبالوزير مأدبة ، فكان لها ماطلبت ، وجمعت المأدبة بينهم ، وعلت الملك ثم علته اقداحا لم تبق فى رأسه مسكة من عقل يميز بها بين الحق والباطل فى اقاويلها واراجيفها ، وهى ترمق الوزير بعين غضبى تنبئه بأن شرا سوف يدركه . ومضى هزيع من الليل ، واوى الملك إلى مضجعه ، إلا ان عينه لم تكتحل بغمض ، فاستعان على السهاد بمن يقرأ تاريخ حكمه وما حدث فيه من احداث ، ولما وصل القارىء إلى المؤتمرين به وما كان

من فضل مردخاى فى التنبيه اليهما ، ذكر الملك ماقد كان له ناسيا ، فسأل عن مردخاى وما نال من جزاء كفاء ماصنع ، فقيل له انه لم ينل بعد شيئا ، فاستدعى وزيره هامان وسأله عما ينبغى عمله إذا ماأريد اعلاء شأن وتعظيم قدر ، فأخطأ الوزير الفهم وظن نفسه المقصود بهذا الاعزاز والاكرام فقال للملك: « إذا اردت بأحد ذلك ، فاخلع عليه ، وزين رأسه بتاجك ، واركبه فاره جيادك » فقال الملك : « حسنا ، ليكن ذلك من نصيب مردخاى ، وعليك تنفيذ مشيئتى فورا . »

وما وسع الوزير إلا الاذعان ، فأكرم خصمه متكرها مضطرا ذلك الاكرام الذى لم يكن له فى حسبان ، بعد ان ظن بأن الله اظفره به ونصره عليه . وفى اليوم التالى رأت استر هامان مجتمعا بالملك ، فاقتحمت عليهما مجلسهما ، وصارحت بطلبتها ، وهو ان يأمن اليهود فى ايران على انفسهم من اعدائهم ، ثم اشارت إلى هامان قائلة انه اعدى اعداء اليهود ، فانخلع منه القلب رعبا ، وعلم ان الملك غاضب عليه وقاتله لما رأى الشر فى وجهه ، وغادر الملك الحجرة ثائرا مزمجرا لبعض حاجته ، فارتمى الوزير على قدمى استر ضارعا فى العفو عنه ، وتعلق بثوبها فأشاحت عنه

وصارت إلى مخدعها وهو مازال متعلقا به ، ودخل عليهما الملك فجاءة فوجدهما على هذه الحال ، وظن السوء بهامان ، فسلمه إلى الجلاد الذى شنقه على اعواد كان قد هيأها لمردخاى من قبل .

واطلعت استر الملك على كل امر كانت عنه تخفيه فعرف ان مردخاى عمها ، وانها من يهود ، ثم بكت احر بكاء وهى تتمنى منه ان يتجاوز عن قتل اليهود ، ويكتب بذلك إلى عماله فى ارجاء البلاد ، فكتب يستوصى بهم خيرا وينهى عن مسهم بالاذى ، وما علم اليهود بذلك حتى تحركت نفوسهم للتشفى ، فنكلوا بشانئيهم نكلة قبيحة وطغوا وبغوا .

ومات الملك خشايارشا عام ٤٦٦ قبل الميلاد ، ومرت على موته وموت استر ومردخاى اعوام متطاولة ، بيد ان اليهود فى ايران ذكروا لاستر ومردخاى فضل استنقاذهم ، فأقاموا لهما مقبرة بمدينة همذان . وبعد اكثر من الفى عام ، أى فى القرن الثالث عشر الميلادى . امر وزير يهودى يقال له سعد الدولة بتجديد بناء المقبرة وتزيينها ، واليوم يتبرك يهود ايران بزيارة هذه المقبرة ، ولا يفوتهم فى كل عام ان يقيموا عندها عيدا من اعظم اعيادهم ، وهناك يفرحون ويمرحون ويشكرون الله ان نجاهم من البلاء والفناء .

الهند فى الشعر الفارسى

بين الهند والفرس اسباب متصلة وواشجة نسب ، فهم جميعا من الآريين ، والآريون اقوام عرفت منذ الزمان الأطول واتخذت من ايران مستقرا لها ، فاكتسبت ايران اسمها القديم من ساكنيها وهو «اريانا» بمعنى بلاد الآريين . ولم يخرج الآريون عن عادة الشعوب البدائية فى المهاجرة ، فانشعبوا ، وولى بعضهم وجهه قبل الشمال ، فجازوا جبال اورال لينساحوا فى القارة الاوربية . اما الفريق الثانى ، فاتجه جنوبا بعد ان اجتذبته اليها ارض الهند المعشوشبة المخصبة . وان هذا ليفسر لنا وفرة الالفاظ المشتركة التى نشاهدها فى لغات الهند والفرس ، وفى الألمانية والانجليزية من اللغات الاوربية ، فيؤخذ من هذا ان شعوب الفرس والهند غصنا دوحة واخوان لأب واحد ، ولم تنقطع ، الروابط قط بين الهند وايران على مر الزمان ، فلما فتح العرب

فارس ، كره بعض الفرس ان يرتدوا عن دين آبائهم ويعتنقوا الاسلام ، كما اشتد عليهم ان يرضخوا للعرب لأنهم فى رأيهم اهل جاهلية يرعون الابل ويأكلون الضباب ، فرأوا ان يفروا من وجوههم بقوميتهم العزيزة عليهم ، ومجوسيتهم التى لا يرضون بها بديلا ، فشدوا الرحال الى وطنهم الثانى الا وهو الهند، وهناك طاب لهم المقام ، وما زالت بومباى مركزا لجاليتهم الى يومنا هذا . واشتدت الخلطة بين القومين بعد ان فتح السلطان محمود الغزنوى اقليم البنجاب فى اوائل القرن الخامس الهجرى ،واحتل عسكره مدينة لاهور ، فاحتك الفرس بأهل البلاد واقاموا بين ظهرانيهم ، وكان من اثر ذلك ان تسربت اللغة الفارسية الى لغة الهند ، وامتزجت اللغتان امتزاجا تاما تولدت منه لغة هندية جديدة تسمى « اوردو » ومعنى اوردو الجيش او المعسكر فى التركية . ولا يخفى ان هذا الجيش هو جيش الفـرس الفاتحين الذين دخلوا هذه البلاد بلغتهم ثم خرجوا منها بعد ان خلفوا فيها لغة تنسب اليهم ، وهى لغة الهند الاسلاميـة ولها ادب اسلامى رفيع .

وقد عم انتشار الفارسية من بعد بين مسلمى الهند فحذقوها

الحذق كله . ونهلوا من آدابها حتى ارتووا ، واتخذوها لغة رسمية ، واعتبروها ضرورة ثقافية لا تكمل اداة المتأدب الا بمعرفتها .

وكان الأمراء يبصرون الشعر الفارسي ويكرمون اهله فمدحهم شعراء من الفرس استوطنوا الهند ، املا فى سنى الصلات وجزيل العطايا ، كمسعود سعد سلمان الذى كان من بطانة سيف الدولة الغزنوى ، فمدحه يوم ارتقى العرش بقوله : « ولما اسفر الصبح وبدا وجه للفلك على صحيفة من فضة ، هب النسيم على ، ومن القصر حمل البشرى الى ، فان الدولة قد سمت رتبتها ، وزادت عظمة على عظمتها ، يوم سلمت الهند بأسرها له مقاليد حكمها ، ودعى له على المنابر فى كل الارجاء ، وتحلى رأسه بتاج ذى لألاء . »

وقد وجهت الدعوة من الهند الى شاعرين فارسيين ، احدهما قديم والآخر من العصر الحديث . ففى القرن الثامن الهجرى ، ارسل حاكم من حكام الهند الى حافظ الشيرازى يطلب قدومه عليه ، بعد ان زوده بنفقة السفر فقبل الشاعر الدعوة وتهيأ للرحلة ولما ركب السفينة هاج البحر بها وماج ، فوقع الرعب فى قلب حافظ ، وعاد الى الساحل ، ثم رغب عن رحلته ، وآثر العافية فى شيراز بلدته . ومنذ نحو من عشرين عاما كان فى ايران شاعر

وطني يقال له عارف القزويني ، وقد اوفد اليه الفرس المقيمون في الهند مبعوثا يزين له الرحيل اليهم للاقامة عندهم على الرحب والسعة ، غير ان الشاعر كره ذلك وزهد فيه .

وفى اوائل القرن السادس عشر الميلادى ، حكمت ايران الدولة الصفوية ، واتخذت من التشيع مذهبا رسميا لها ، وعرف ملوكها بصلابتهم فى مذهبهم وشدة التعصب له ، فجر ذلك الى خلاف ظهر جليا بينهم وبين الصوفية وتنحصر مظاهره فى ان بعض الصوفية كانوا اهل تسنن لا اهل تشيع ، فساءهم من ملوك الدولة الصفوية ان يقسروا الناس على مذهبهم ، ويرفضوا غيره من المذاهب ، كما كان هناك تعارض بين طائفة من عقائد الصوفية وعقائد الشيعة الامامية ، ولما رأى علماء الشيعة قدرهم يرتفع ومنزلتهم تسمو ، رغبوا الى الملوك ان يقضوا على الصوفية لحاجة من دفع شرهم . واذا ذكرنا ان الشعر فى هذا العهد كان ، معظمه صوفيا ، وان الشعر الصوفى جماع فنون الشعر الفارسى ، ادركنا ان فى اسكات المتصوفة عن الترنم بالغناء ، اسكاتا للبلابل فى روض الادب ليغشاه سكون كسكون المقابر . وهذا ما كان فعصر الصفويين احط عصور الادب الفارسى ، ولا تملك فيه

ايران من الشعراء الا نفر اكادوا يقصرون شعرهم على رثاء آل البيت وبكائهم . فأين يذهب الشعراء المتصوفون وفى اى مضطرب من الارض يضطربون ؟ لم يجدوا امامهم سوى الهند ، وفيها من سلاطين المغول من يقرب الشعراء ويخاللهم ويجود عليهم بالعطاء الغمر ، فرحلوا اليهم ولجأوا منهم الى ظل ظليل وكنف كريم . وقد احصى احد مؤرخى الادب عـدد شعراء الفرس الذين استهوتهم الهند فبلغوا مائة وسبعين شاعرا ، وذكر غيره ان خمسين من الشعراء قدموا على السلطان اكبر ، فاكرم وفادتهم . وقد تحدث عن الهند الشاعر صائب التبريزى فقال : « يالك امنية تختلج القلوب بها ، وما من قلب يخلو منها ، فما اشبهك بالرحلة الى الهند ، فانها منى الى كل قلب . . »

وهو هنا يشبه الشوق الى الحبيب بالشوق الى الهند ، وهذا واضح الدلالة على انها كانت مهوى الافئدة ، فان الشاعر لم يجد مشبها به غـير الهند ، وكان الظن ان الشوق الى المحبوب ليس كمثله شوق فى القلوب .

ويقول ابو طالب كليم : « الهند انا اسيرها ، يا اسفى على العودة منها . ليت شعرى اين تبلغ بالطائر الذبيح خفقات جناحه !

هو ذا كليم يعود الى ايران ، وما دفعه الا حنين الركبان ، فان له انينا من قلب حزين ، انه ناقوس تمضى به قوائم الابل وتسير، وهو لايدرى اين تريد ، واتوقاه الى الهند ، ان عينى اليها رامقة لاتملك التحول عنها ، فاذا نظرت امامى ، لم اتبين موقع الاقدامى»

فكليم يظهر شديد الحرقة على فراق الهند فى صورة شعرية خلابة ، فنراه ملتفت العين والقلب اليها ، ولا يمضى به عنها الا رفقة من المسافرين ينتزعونه منها للعودة معهم الى بلادهم وهو كاره لذلك كل الكراهية ، آسف عليه جد الاسف ، وما اجمل ان يجعل من نفسه طائرا جناحه دائم الخفقان ولكنه لا يقوى على الطيران .

ويقول على قلى سليم مدحا للهند وذما لايران : «ليست ايران بلدا طيبا ، تنال فيه اربا ، ولن يكون للحناء حمرة لونها ، مالم الى الهند تبعث بها . »

فالشاعر هنا يتحدث عن بلاده واعراض ملوكها عن الشعراء إلا اولئك الذين يضربون على الوتر الذى يحبونه ، ويصور يأسه من العيش فيها . محبذا ان يزايلها ويطلب الدنيا فى الهند ، تلك البلاد التى يزكو فيها كل شىء ويربو حتى الحناء وهى الحمراء اينما

كانت ، ان تبلغ تمام حمرتها الا فى الهند . ومما يجرى هذا المجرى قول جامى : « ان شعرك ياجامى نسيج وحده فى رونقه وعذوبته . اللفظ الفاخر لحمته والمعنى العامر سداه ، فهلا جعلته فى تلك القافلة التى تمضى به الى الهند ، لينال هناك حسن القبول عند ملك تجارها ؟ »

وهذا دليل على كساد سوق الادب فى ايران ورواجها فى الهند ، وان جامى ليعز عليه ان يعرض بضاعته الغالية على من لايعرف لها قدرها ، ويؤثر ان يبعث بها الى البلد النازح حيث يفهمها العظماء والاماثل الذين يعرفون فى النفيس نفاسته وفى الغث غثاثته .

وفى عام ١٩٤٤ ارسلت ايران بعثة ثقافية الى الهند ، وكان من اعضائها الشاعر الايرانى المعاصر رشيد ياسمى وله فى هذه المناسبة قصيدة بعنوان « فى طريق الهند » وقد الم إلماما تاريخيا حسنا بكل ما بين البلدين من صلات ، ومن قوله : « ما أعذبها بشرى تلك التى سمعتها البارحة ، وقد زفتها الى ببغاء قصباء الهند انها حلوة وحلاوتها من لسان الهند المعسول . قالت اليوم يوم الرحيل عن روضة الرى إلى بستان الهند ، يالها قولة جعلت

للقلب جناحا يطير به شوقا إلى عش له فى الهند ، وهو مالاريش له ولاجناح . ان للهند قصة رويت لنا ، وعن التاريخ وعيناها ، نعم ، لقد تساهمت الهند وايران سراء الحياة وضراءها ، انهما موطن لعشيرة واحدة ، وشاهدنا على ذلك كتب الهند القديمة . وكانت الهند وايران على دين واحد ولا اختلاف بينهما فى علم ولا حضارة ، لقد فتح دارا اقليم السند ، غير انه لم يفرق بين بلاده وبلاد الهند . واعجب انوشيروان بحكمة بيدبا ، وخفق قلب بهرام كور لحسان الهند . وزكت لغة الفرس فى كل الارجاء من بلاد الهند بهمة الأمراء وكرم قريحة الشعراء ، وامتزجت حلاوة الفارسية بالألسن الهندية كامتزاج السكر بالدر ، والماء بالخمر . فمسعود سعد وابو الفرج وخسرو وحسن ، كانوا للهند تراجمة فأحسنوا . لقد اصبحت دهلى واجره ، الرى واصفهان ، فما اكثر من رحل الى الهند من شعراء ايران . »

وفى القرن الثامن عشر من الهجرة ، اغزى نادرشاه جيشه العظيم بلاد الهند ، فغلب به على كشمير ولاهور حتى دخل دهلى ، وغنم من نفائس الهند وجواهرها مالا يدخل تحت حصر ولا يقاوم بثمن . وللشاعر الايرانى المعاصر بهار ، قصيدة طويلة

تسمى فتح دهلى وهى ملحمة يؤرخ بها هذا الفتح ، ويذكر نصر ايران المبين مفاخرا فيقول (انه نادرشاه ، واهب الملوك تيجانها وصاحب اللواء وقاهر الاعداء . طار صيته بجلائل اعماله ، وارتفع ذكره بحروب خاض غمارها . لقد اشخص رسولا إلى دهلى ، ثم تحدث عن قوم صعب مراسهم وانخلع عنانهم ، فسفكوا الدماء وسلبوا حق الضعفاء فهان امرهم وضعف شأنهم . وكان من قوله لهم : صالحونى على منحى دهلى ، وحذار ثم حذار من غضبى وبطشى اما ملك الهند فلم يرد عليه واساء الظنون به ، وسار نادر إلى دهلى اعنف سير ، مستمدا ربه كل عون ، وتحركت جحافل الهند كأنها جراد أو نمل ، وارتفعت الاصوات كنعيق الغربان ، غير انه اسكت نأمتهم فكأنهم مصباح اشتدت به الريح ، واصبح للأرض من دمائهم حمرة العقيق !)

وقد كان لشعراء الفارسية فى الهند مدرسة ادبية . فطريقتهم فى الشعر تسمى الطريقة الهندية ، ولاصحابها عناية باشراق اللفظ وحسن جرسه ، وافراط فى تزيين الكلام بزخرف الصناعة وقد يشوهون المعنى الجيد بالالوان والاصباغ . كما

يخنقون صوت الشاعر بالالفاظ المجلجلة الموسوسة . وليس كذلك طريقة شعراء خراسان الذين يلتفتون إلى الجزالة والاصالة ، ويؤثرون جودة المعنى على زينة العبارة ، وليس اهل الهند فى يومنا هذا اقل ولوعا بالآداب الفارسية من اسلافهم فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، فكثير منهم يقرض الشعر بالفارسية ، وكل ايرانى يقرأ شعر حافظ الشيرازى يقابله خمسة من اهل الهند . وإذا قرأ سعدى احد الايرانيين ، قرأه ثلاثة من الهنود ، اما ديوان قاآنى فقراءته ودراسته حتم على طلبة الجامعات الاسلامية الذين يحفظرن جميعا قصيدة له تسمى قصيدة الالوهية .

شاعر السلام

هو شاعر من شعراء ايران فى العهد السابق ، ورجل من رجالاتها الذين سمت بهم همتهم الى رفيع المناصب . لم يقصر شعره وفكره على معان رددها ابناء قومه ، ولكنه خاطب الانسانية جمعاء فاستفاضت له الشهرة فى الغرب كما استفاضت فى الشرق . واذا ما احطنا بقصة حياته ، فقد عرفنا العصامية ماهى والنجح كيف يكون ، وشاهدنا سعى الانسان الى الحول والطول لينعم بالسيادة والمجد ، كما اتيح لنا بعد هذا كله ان نصادف ظاهرة قد لا نعيرها الكثير من التفاتنا . وهى ان الجاه والسلطان ينسبان الى صاحبهما من الافضال اكثر مما له ، ويضيفان الى الصفة الواحدة من صفات الحسن كثيرا من الصفات .

اما شاعرنا هذا ، فهو من يدعى رضا خان ارفع الدولة ،

مضت طفولته فى تبريز مسقط رأسه ، ولما شب عن الطوق حصل من العلوم مايحصل لداته واهل زمانه ، وكان ابوه تاجرا يتجر تجارة رابحة ، الا ان السيل اجتاح مدينة تبريز عام ١٢٨٨ هجرية ، فعطبت امواله وخلت وفاضه واصبح مفلسا من المفاليس . ولما وجد رضا خان جهد الفاقة وضرورة الكد طلبا للعيش ، اتفق مع احد التجار على العمل فى متجره لقاء راتب يستعين به على امره . وارتحل التاجر الى استانبول فصحبه رضا خان ليكون له كاتبا وحاسبا .

وكانت هذه الرحلة تحولا فى حياته ، وانتقالا به من حال الى حال ، لأنه أحس فى نفسه شيئا من السكينة ، كما وجد الدافع الى التزود من علم له به شغف وكلف ، واحسن استخدام الفرصة والتوفيق بين حاجته المادية الى التكسب ، وحاجته الروحية الى التعلم ، فتردد هناك على مدرسة يقضى فيها سحابة نهاره ، ومتجره الذى كان يمضى فيه زلفا من ليله ، وما انفك يتعلم التركية والفرنسية واليونانية ويقتلها درسا حتى حذقها الحذق كله .

غير ان صحته ساءت على الايام ، وشعر بالعلة تثقل وطأتها على صدره ، اما الطبيب فوقع على معرفة الداء وقال ان المقام

فى استانبول لا يوافقه ، لأن هواءها الرطيب اذى رمضه ويضنيه ، فكان حتما عليه ان يزايلها ، ومضى رضا خان الى تفليس ليعيش فى كنف قاضيها ، وكانت هذه السفرة بشير خير وفاتحة عهد جديد سعيد ، فقد داوم على التحصيل حتى ظفر باجازة علمية عالية وتأتى له ان يتقن الروسية والالمانية والانجليزية ، وبسم السعد له ، فاتفق ان مر الشاه ناصر الدين بمدينة تفليس فى رحلة له الى اوربا ، وطلب مترجما فتقدم اليه رضا خان ، واعجب الشاه به ورضى عنه ، وبلغ من اعجابه ورضاه ان يمنحه وساما رفيعا . وبذلك دخل فى خدمه الدولة ، واقبلت عليه الدنيا بعد طول انصرافها عنه .

ولبث ثلاثين عاما يتقلب فى اعلى المناصب ، فسفر لبلاده فى روسيا وتركيا ، كما اسندت اليه وزارة العدل فى ايران ، وكان لطول اقامته فى أوربا ، وثيق الصلات بملوكها وحكامها واهل الرأى والفضل فيها ، كما كان لرفعة منصبه مرموق المكانة جليل المنزلة ، ولم تجد ايران من يفضله لينوب عنها فى مؤتمر الصلح بلاهاى ، فأوفدته عام ١٨٩٩ م . وظل فى منصبه هذا سبع سنين ، كما نال لقب «امير» .

وعرف الرجل بميله الى السلام والمناداة بالاخوة الانسانية.

ومما رفع ذكره واطار اسمه فى الخافقين، منظومة له بالفارسية سماها «صدى السلام» وقال فيها ان ارض الله وطن الناس جميعا فعليهم ان يعيشوا فيها كما يعيش الاخوة المتحابين المتواصلين. وقد ترجمت هذه المنظومة الى خمس عشرة لغة وقدمت الى الملوك والحكام ورجال الدين فى ارجاء الدنيا، غير ان تقديمها الى الامير البير الاول حاكم موناكو، اعقب مالم يعقبه تقديمها الى غيره، وما ذلك الا لأن هذا الامير لما اطلع على المنظومة، اراد التعبير لصاحبها عن شكره وتقديره، فاختاره عضوا فى جماعة عالمية للسلام جعل مقرها فى موناكو.

ومنذئذ اتصلت الاسباب بين الامير والشاعر، واكن كل منهما لصاحبه ودا خالصا يقوم على اتفاق الرأى ووحدة المشرب، كما توالت المكاتبات بين رضا خان واصفيائه من أعضاء الجماعة، فحببوا اليه ان يزور بلدتهم بعد ان افاضوا فى وصف جمالها وخلابة جوها. وكان الرجل مريضا بداء الملوك فقام فى نفسه ان ينتجع العافية ويسكن بلدا هو أشبه شىء بالروضة الباسمة فى هذه الدنيا العبوس، بيد انه قلب رأيه وخاطب

نفسه . وذكر الغربة الطويلة التى لاتتلوها اوبة ، وذلك الحنين الذى يهفو بقلبه الى ايران ، واحس الشوق وهو يلج به الى الاهل والخلان ، فزهد فى هذه الجنة ورغب عنها ، ونازعته نفسه الى داره الحبيبة .

وكان رضا خان عنيفا فى وطنيته فخورا بايرانيته ، فذكر ان موناكو كانت فى سالف الدهر من ممتلكات ايران ، واستفسر التاريخ فعرف ان ملك الفرس قورش اقتطع موناكو وادخلها فى حوزته ، فاصبحت جزءا من ممتلكات الدولة الفارسية ، وقد تم له ذلك بعد ان غلب على فينيقيا سنة ٥٣٨ قبل الميلاد ، كما ان الملك دارا حارب اليونان وعبر البوسفور ثم غزا تراقيا واوغل فيها ، وفى عودته من اوربا الى وطنه ايران شاهد السفن اليونانية والفينيقية التى عبر البحر عليها ، واصدر الامر الى بعضها فاقلعت جاعلة وجهتها تلك البلاد التى ضمها قورش من قبل الى مملكته ، وانما كان ارب دارا من ذلك ان يعلن على الملأ نصره ويباهى بمجده . وما ذكر رضا خان هذه الحقائق حتى شعر بالفرحة تملأ قلبه ، وصح منه العزم على الاقامة فى بلد كان ملكا له فى سوالف الايام فلن يكون غريبا ولا دخيلا .

هكذا تمثلت موناكو فى خيال رضا خان ، فكتب الى من ابتاع له ارضا فى اجمل موقع ، وابتنى قصرا على طراز داره فى تبريز . وقد جرى بذلك على عادة الفرس الذين كانوا مولعين برفع البنيان فى كل ارض حلوابها تخليدا لذكراهم ، وابقاء لاسمهم على وجه الزمان .

ومضى الى موناكو لسكنى ذلك القصر الذى كأنما انبثق على الشاطىء الاوربى من حلم شاعر فارسى .

وكان القصر آية من آيات الفن الشرقى ، جميل الزخارف بديع النقوش ، يعرج عليه الجوابون وقد استوقفهم بمنظره الذى لاعهد لهم بمثله الا فى اساطير الشرق واخيلة الشعراء . وقد جمع فيه صاحبه من الرياش والتحف كل نادر وجميل ، فمن طنافس ايرانية ، واوعية خزفية ، الى دمى من مرمر وثريات لها بهاء نجوم السماء ، وفى القصر كان رضا خان يستزير علية القوم وفى طليعتهم امير موناكو ، فيدور الحديث على النفائس والتحف ، وايران ومن انجبت من ادباء وشعراء . ويسأل رضا خان فيجيب اجابة الحجة الثبت والوطنى الغيور . ولم يفته ان يقيم على سطح القصر تمثالين احدهما لقورش والآخر لدارا ، احياء لذكرى هذين

الملكين اللذين ملكا هذه الناحية فى الماضى السحيق .

تلك هى حياة الرجل العامة والخاصة ، اما حياته الأدبية ، فانه عالم وشاعر ، والذى نراه منصفين لا مفترين ، هو ان شعره ينحط كثيرا عن رتبة المجيدين ، فمنظومته (صدى السلام) طريفة فى موضوعها وهذا سر شهرتها وسيرورتها ، غير انها قليلة القيمة الفنية او عديمتها ، فلا تكاد تقف منها على بيت يعجبك أو معنى يطربك ، ومن احسن ما فيها قوله : « مثل ابناء آدم فى الدنيا كمثل الازهار فى الروضة والاغصان فى الدوحة . فبالله ما علة هذا القتال والنزال . وما تلك الاغارات وقتل النفس اليوم وبالأمس ، انه لداء عياء حرى بنا ان نعرفه ، ونبحث عن طبابه لنبرأ منه . الجهالة والاثرة منذ القديم ، هى السبب لسفك الدماء والشر العظيم . وما دام لهذه الصفات وجود ، فالسلام بيننا لن يعود . الافريقى والاوربى والصينى ابناء وطن ، وهذه الارض لهم سكن . لقد خلقنا الرحمن من العدم ، فجعل العقل هاديا للأمم . كانا لأب واحد ومن ام واحدة ، وان الاخوة لتجمع بين الرومى منا والصينى ! »

فهذه الدعوة الانسانية لا يمكن ان تعاب ، غير ان ضعف

صياغتها قد افسد كثيرا من جمالها . وله منظومة اخرى من مائتى بيت بعنوان (عمر الانسان الطبيعى) وقدنظمها ايام كونه سفيرا باستانبول ، ويقول فيما حمله على نظمها انه كان يستقبل اعضاء الجالية الايرانية فى تركيا فيشاهد ان معظمهم شيوخ رق عظمهم ووهت منتهم ، يشكون المشيب ويترحمون على الشباب ،والذى يراه هو ان عمر الانسان لا ينبغى ان يقل عن مائة وخمسة وعشرين عاما ، ولذلك فقد قرض هذه المنظومة لذكر السبب فى طول العمر وقصره . ومن قوله : « اجعل الاعتدال رائدك وشعارا لمسلكك ، وان مجانبته فى كل حال ، تجر على بدنك الضنى والوبال ، اصنع ما بدا لك فى نهارك ، اما الليل فليكن لنومك واستجمامك ، لا ترهق البدن فى شبابك . فتعدم بذلك عافيتك ، واعلم ان عمرك ينقص بشيئين ، هما الغم وسوء الطبع واذا ما كنت حميد الطباع عف اللسان ، فحبذا انت من سعيد وحبذا شبابك من شباب ! »

فهذا كلام يخلو من الشاعرية خلوا تاما ، وهو نظم لا ماء فيه ولا رواء ، ومن اعجب العجب ان يقدم رضا خان هذه المنظومة الى الشاه ناصر الدين فيوقع الشاه بقوله : « ان اشعار

الامير ارفع الدولة غاية فى الجودة ، ولقد لقى العناء فى نظمها . » وهى على ما اسلفنا من وصفها ، مشهورة فى تركيا وايران وقد ترجمت الى التركية والفرنسية ، كما اتخذت موضوعا لمسابقة ادبية فى ايران .

والذى نراه تعليلا لاستحسان هذا الشعر الخالى من الحسن هو شخصية صاحبه وسمو رتبته ، فقد كان الرجل سفيرا ووزيرا واميرا ، ويا طالما قال الفرس والترك (كلام الملوك ملوك الكلام) .

مولد النبي في الشعر التركي

الادب التركى القديم ادب اسلامى بكل مايؤديه هذا اللفظ من معنى ، فهو فى معظمه شعر روحانى فاضت بهقلوب الصوفية فكان مرآة مجلوة للنفس الانسانية إذا سمت وصفت وامتزجت فيها التقوى بالعاطفة ، فتولد من هذا الامتزاج ذلك الحب الالهى الذى جرت مدامعه بحرا ، وترددت زفراته وخفقاته وزنا وقافية . وكأن منشد شعره صيدح يئن فى قفصه الارضى ويحن الى وكره العلوى . والنبي الكريم عند الصوفية بأعظم منزلة وارفعها ، لانه فضلا عن كونه نبي الاسلام ، فهو صلى الله عليه وسلم أول من تصوف فوصل ، وعشق الذات الالهية العلية فكان اكرم عشاقها . ولا يعزبن عن البال ان الترك اهل تسنن فحب النبي عندهم فوق كل حب ومقامه فوق كل مقام . وإذا ما نظرنا فى دواوين الشعر التركى فقلما نجد احدها غفلا من

ديباجة شعرية يمدح النبي بها مدحا عاطفيا صوفيا جميلا تهتز منه القلوب المؤمنة وتطرب له النفوس الشاعرة . غير أن الشعر التركى متميز كذلك بما يعرف بمولد النبي ، وهو نوع من المدائح النبوية التى ابتدعها الصوفية . وقد عرفت كلمة (مولد) منذ عهد بعيد واطلقت بمعنى تاريخ ، وللواقدى كتاب بعنوان مولد الحسن والحسين . وقد زعموا انه صلى الله عليه وسلم اوصى فى حياته بأن يحتفل المسلمون بمولده بعد مماته .

ونحن هنا انما نريد لنعرض للمولد بالمعنى الذى جرى به على لسان شعراء الترك ، وما أكثر من نظم الموالد منهم ، غير ان اولهم واشهرهم هو سليمان شلبي الذى عاش فى القرن الرابع عشر الميلادى على عهد السلطان اورخان ، ثانى سلاطين آل عثمان ولا يعرف من سيرة هذا الشاعر الا النزر اليسير ، فقد سكت المؤرخون عن ذكر عام مولده ووفاته ، وكل ما يؤثر عنه انه من اهل مدينة بروسه تلك المدينة التى جعلها السلطان اورخان عاصمة ملكه ، وظلت عاصمة للترك حتى فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ميلادية . وكان من مشايخ الصوفية واماما فى أحد المساجد واشهر من سيرته منظومته التى تعرف عند الترك بوسيلة النجاة

او مولد سليمان شلبي ، وهى طويلة فى نحو من ستمائة بيت . اما الباعث له على نظمها ، فيقال عنه ان الشاعر كان يستمع لأحد الوعاظ ذات يوم فكان من كلام الواعظ ان قال انه لا يفضل محمداً على غيره من الرسل ، وهو على حجة من قوله تعالى فى سورة البقرة : « لا نفرق بين احد من رسله » ، واتفق ان كان بين الحضور عربي من اهل الشام فساءه ذلك كثيرا واثار حفيظته ، فرده وصاح على الواعظ وهو يقول : « ايها الجاهل ، لا علم لك بالتفسير ، وقد ذهلت عن المتشابه والناسخ والمنسوخ ، فان المعنى المقصود انما هو عدم التفرقة بين الرسل فى امر الرسالة والنبوة لا فى مراتب الفضل . واذا ماصح هذا التفسير فكيف تفسر قوله تعالى : « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض » ورجع العربي الى بلده مغضبا ، وهناك استفتى فى قتل هذا الواعظ ثم رحل اليه وقتله . فتأثر لذلك سليمان شلبي ابلغ التأثر واهتزت نفسه فى اعماقها فما وسعه إلا الترنم بهذا المولد ، لما فى ذلك من شفاء لما احس به من لوعة الوجد ، وتنفيس عن شدة الاسى ويلوح ان قصة الواعظ مع العربي من نسج الخيال . وايا ما كان فقد تبوأ سليمان شلبي بهذا المولد منزلة مرموقة فى تاريخ الشعر

التركى ، فهو يعتبر اول شاعر عثمانى اطلق نفسه على سجيتها وقال شعرا فيض الخاطر ، ولم يردد من المعانى ما اطال ترديده اسلافه الشعراء . ومن قوله فى مولده : « هذا القادم للعلوم اللدنية سلطان ، هذا القادم كنز توحيد وعرفان ، هذا القادم تدور الافلاك بمحبته ، ويشتاق الملائكة والانام الى طلعته ، وتقول آمنة لما حان الوقت لمقدم خير البرية الى هذا الوجود ، لقد مسنى حر الظمأ ، فاسقونى قدحا مترعا ببرود يفوق الثلج فى نصاعة البياض ، والسكر فى حلاوة المذاق ، فالوداع ياروح الروح الوداع ، الوداع يابلبل روض الجمال ، الوداع ياحبيب ذى الجلال ، مهما امتد عمر الانسان فالموت لا شك مدركه ، آه من الموت آه من الموت ، الامير والحقير عنده بمنزلة سواء . لقد رحبت بمقدمك ذرات هذا العالم وهى تقول : مرحبا بك ايتها الشمس المشرقة مرحبا ، مرحبا بك ياروح الارواح مرحبا مرحبا بك ياشمس العاشقين مرحبا ، مرحبا بك يا بدر الصادقين مرحبا ، مرحبا بك ايها المحب الصافى مرحبا ، مرحبا بك يارحمة للعالمين مرحبا ، مرحبا بك ياشفيع المذنبين مرحبا ، مرحبا بك يا دليل الأنبياء مرحبا ، مرحبا بك يا سيد الاصفياء مرحبا ،

انت الدواء لداء القلوب ، والآخذ بيد كل عاجز مكروب ».

واذا ما نظرنا فيه نظرة اهل عصره ، راعتنا منه جمل مستوية النسق ، وكلمات متراصفة ، وسهولة مجراه على اللسان ، الى ما فيه من رقة نسج واتقاد عاطفة ، اما تكرار المقاطع فانه لا شك يكسبه الصلاحية للترنم والتغنى ، وان النزعة الصوفية لا تظهر فيه الا بعض الظهور لتضفى على حب المصطفى روحانية ونورا فوق نور ، وما ابعد البون بين هذا الشعر ، والشعر التركى المعاصر له فى ذلك العهد القديم ، فقد كان تعليميا جافا ، وصوفيا رمزيا مبهما ، تضل الافهام فى وعورة الفاظه ومتاهات معانيه . فلا جرم كانت لهذا المولد عند الترك سيرورة عظيمة ، ولا ادل على ذلك من ان المتقين منهم قد جرت عادتهم بالاجتماع بالمساجد والمنازل فى شهرى ربيع الاول والثانى للاستماع الى من ينشده بصوت العندليب ، فيقع الخشوع فى الارواح ، وتسرى هزة الطرب فى الابدان ، ثم يترحمون على سليمان شلبى قارئين الفاتحة لروحه فى عليين ، وهم على عادتهم هذه منذ ستمائة سنة . وقد قلد هذا المولد كثير من الشعراء ، وفى ذلك يقول مؤرخ تركى قديم من مؤرخى الادب يدعى لطيفى افندى :

« لقد رأيت من هذه الموالد مائة مولد ، واجلت نظرى فى كل منها ، فلم اجد ماوجدت فى مولد سليمان شلبي من جمال اللفظ ورقة المعنى واضطرام العاطفة ، فمولده اعلى المولد رتبة واوسعها شهرة . »

وهذا دليل على ان الشعراء جهدوا ان يأتوا بمثله فكلت عن ذلك قرائحهم ، وارادوا ليدركوا شأو الشاعر فلم يشقوا غباره .

غير أنه من خطل الرأى فى نظرنا ، ان نعتبر المجيد مجيدا والمبرز مبرزا دون ذكر لمن يتلوه فى رتبته ، لعقد الموازنة بين الفاضل والمفضول ، وإثبات مايمكن ان يكون من تخالف وتقارب واتفاق ، ولن يعرف الحسن من الردىء إلا بالاضافة والمقايسة .

* * *

فنرى حتما من الحتم ان نذكر الشاعر حمدى ومولده ، لان اجماع المؤرخين منعقد على ان مولد حمدى هو المولد الوحيد الذى يتلو فى الجودة مولد سليمان شلبى . وحمدى شاعر صوفى عاش فى عهد السلطان بايزيد الثانى ومات سنة ١٥٠٨ ميلادية .

وليس هذا الشاعر مدينا بشهرته الادبية لهذا المولد ، فقد اشتهر بمنظومة له تسمى يوسف وزليخا ترجمها عن الفارسية إلى التركية ، واختارها بالذات لانه كان مجفوا من اخوته كما كان يوسف الصديق ، فاجاد الترجمة واضاف اليها من عندياته ، وصدق فى شعوره وهو يتجرع من تلك الكأس المريرة التى تجرع منها يوسف فى الزمان الاول ، كما ان لحمدى منظومة اخرى هى قصة ليلى والمجنون التى ترجمها كذلك نظما عن الفارسية فكان لذلك محسنا متقنا . اما مولده فلا يعادل فى شهرته منظومتيه المذكورتين ، وانا لنجد فارقا واضحا بين مولد حمدى ومولد سليمان شلبى ، فحمدى يضمن منظومته غزليات ، وهذا مالم تجر به عادة الشعراء على عهد سليمان شلبى ، ومن قوله : « وانطلق يوما رحمة العالمين إلى حراء للتعبد والتهجد ، وهناك بغتة ان يظهر الحق له ، لانه رأى روح القدس عيانا ، فقال للحبيب بعد ان حيا ، انا جبريل يانبى الدنيا ، فقومك يأمرون بالمعرف وعن المنكر ينهون ، ويحفظون القرآن عن ظهر قلبهم ، وتلك نعمة لا يشركهم فيها غيرهم . »

والفرق جلى بين المولدين ، فحمدى فاتر العاطفة يسرد

الحقائق مجردة من وشى الصناعة وزخرف الفن ، والمستمع اليه تدركه سأمة ونعسة بعد اذ عدم مايشوقه ويروقه ، وكلامه مجـــرد قول مفيد ، وقد تتطلع النفوس من الشعراء إلى قول لايفيد ، ولكنه يفعمها بالانغام والاحلام كما كان من صنيع سليمان شابى فى مولده ، احسن الله جزاءه عليه .

من قصيدة للشاعر الفارسى فرهنك ، قالها وصفا لباريس عام ١٣٠٤ هجرية ، وهى متميزة بالجدة والطرافة اذا اعتبرنا زمانها الذى قيلت فيه . كما انها تعبير شرقى عن مشاهداته للغرب منذ اكثر من نصف قرن ، ورأى ايرانى فى نظم الحكم وتقاليد المجتمع عند الفرنسيين .

* * *

« هلم ، وشاهد بعين تكشف الاسرار ، فباريس انوار على انوار . ولتفتح ناظريك لترى من حولك ماقد خفى عليك . لقد اظهر الحق تعالى القوم على سر الحر ومعنى الحرية ، فكلهم

سادة نجب تعدم فيهم نضو الذل والعبودية ، شبابهم وشيبهم ، نساؤهم ورجالهم ، كأنهم ملوك زمانهم ، فكل منهم له سورة وصولة ، عريض الثراء رفيع السناء . لا يأخذ البصر فيهم متعطلا ولا متبطلا فانهم جميعا اهل جد وعمل ، ومنهم ذو الرياسة وصاحب السيادة ، والمتوفر على اداء مهمته ، والمشغول بما يشغله . انها مدينة لها من جنة الخلد زينتها وبهاؤها ، وروضـة لها من رياض الربيع بهجتها ورواؤها . ليلها اشبه شيء بنهارها ، لكثرة المشاعل وتوهج نورها ، انظر الى الحسان يخطرن سربا بعد سرب ، والوجوه صباح كأنها اقمار ، والخدود ملاح كأنها ازهار . يا لطرقاتها ، كأني بها حديقة إرم ! فقد تناوح الدوح في جنباتها ، وصفف الكثير من المقاعد في ارجائها . هذه العربات تحمل الخرد الغيد ، وتلك بهـا اهـل الصبابة والهوى ، لله ما اجمل مشيتها ، وما اشبه من فيها بالحوراء في حجلتها ، يا كثر ما تمضي مركبات الترام بها ، وتصل بين البعيـد من اطرافها ، كـأنها مقاصير في قصور الجنة ، ينقلها الناقلون من يسرة الى يمنة . الورد والنسرين اينما توجهت ، والروض والياسمين حيثما نظرت . انها باريس ، نفح فيها طيب الازهار ، فكأنها وعاء عطر العطار . لا تصدق ما اصف

لك واقص عليك ، حتى تقدم وتشاهد بعينيك . للقوم شعار هو الصدق ، فهم صادقون فى الاقوال ، مخلصون فى الأعمال ، وهم لذلك ملتزمون فى اسواقهم وبيعهم وشرائهم ، لن تسمع هجرا ولا هراء ، اللطف والظرف من شيم النفوس عندهم ، وان احدهم ليؤثر اخاه ولا يؤثر عليه ، الناس هناك طرا على دين عيسى ، وفى ارجاء البلاد آثار على ذلك تدل وتشهد ، كلهم روحانيون ومسيحيون ولهم بدينهم دراية وسعة احاطة . ففى الكنيسة رأيت القس يرتل ويتبتل ، وهذا يجعل الطيلسان دثاره ، وذاك يجعل فى وسطه زناره .

وفى (نوتردام) شاهدت معتكفا للتعبد ، وقد نقش صورة على لوحة ، ورسم لعيسى رسما امامه ، فهناك ركعته وسجدته ، وهذا الجدار قبلته ، انهم من دينهم فى نعمة محبورون ، وصادقون مخلصون . فى نفوسهم طهر وفى طباعهم صفاء ، ولهم من حميد الخصال ما كان لنبيهم ، انهم لعملهم متقنون ، وهم مختارون له لا مجبرون عليه ، رأيهم واحد فى المشورة ، وبعضهم لبعض يبذل المعونة ، لهم عقل وتفكير ، وعلم وحكمة وتدبير ، ولكنى اريد ان اسر اليك شيئا فصدقه ، على الرغم من سعة علمهم ودقة

فهمهم ، فالطب عندهم اضاليل واكاذيب ، فلا شفاء عندهم من الادواء ! وهم جميعا ملوك وسلاطين ، فليس لديهم ملك ولا سلطان . بلادهم لا يحكمها حاكم ، وجيشهم لا يقوده قائد ، غير ان جمعا من الحكماء والعقلاء يجتمعون فى قصر من القصور ، وهناك ينعقد المجلس للناطقين بلسان واحد مبين ، فتتفرق بهم شجون الكلام ، ويتشاورون فيما حزب من الأمور والمهام . ولهم مجلس من سبعمائة . كلهم عالم كبير الفطنة ، وهم متفقون فى الاقوال والاعمال ، واسم هذا الجمع وذاك المجلس الجمهورية ، فمدار الحكم فى فرنسا على الجمهور ، ولم يقر فيها أحد بحكم لسلطان ، بعد لويس فيليب ونابليون . فمن كل فرد سلطان على الدولة يسوسها ويدبر شؤونها ، ولا خوف عليه ولا بأس ، فقد حل العلم له كل مشكلة ، وذلل امامه كل عقبة ، وإذا قال احدهم قولا فلن يجد مكذبا ولا مفندا ، ولا مكابرا ولا معاندا . »

خيال الظل عند الترك

إذا قلنا ان مايعرف بخيال الظل او خيال الستارة هو فى واقع الامر مسرح الترك القديم ، فقد جلونا الفكرة وقربنا الصورة ، وإذا ذكرنا ما كان من شديد ولوعهم به وانصرافهم اليه على تباين طبقاتهم ، حق لنا أن نسرد قصته عندهم ، ونحن بذلك انما نؤرخ الفن التمثيلي لديهم ولدى كثير من الشعوب الاسلامية وغير الاسلامية التى اخذته عنهم ، كما نصور جانبا من حياتهم ونتفهم روح المجتمع فى لهوه البرىء وهو يتخذ من الرسوم والتصاوير اداة رمز وتعبير .

ومن الحقائق التاريخية التى انعقد الاجماع على قبولها ، ان الترك فى آسيا الشرقية عرفوا خيال الظل عن الصين . والصين كما هو معلوم اهل حذق وصناعة ، ومما يعزى اليهم انهم اول من اتخذ الورق وابدع فى الرسم والنقش . فكانوا يرسمون على قماش

او ورق او ما اشبه ذلك ، كهيئة الانسان والحيوان ، فاذا أتموا الرسم حصلوا بذلك على ستار يزدان بعجيب الصور ، فاثبتوه فيما يشبه مصباحا كبيرا ، وحرصوا ان يحيط به من كل ناحية فى شكل مستدير ، ثم يضعون فى وسط المصباح من الداخل شموعا كثيرة فاذا اوقدت وسطع نورها فى الظلام بدا امامها كل مافى الستار من نقوش وتهاويل ، كأنها أشباح واضحة الحدود والشكول. ويدار المصباح حول نفسه فيدور الستار امام الرائى وتتعاقب صوره . وقد ضرب الترك المثل بدورانه فقالوا : «يدور كما يدور مصباح الخيال . »

وكان الفرس اول من اخذ خيال الظل عن الترك وقد جرى ذكره كثيرا على السنة شعرائهم فيقول عمر الخيام فى احدى رباعياته : « ياهذا الفلك الدوار الذى يدور بنا ! كأنى به فانوس الخيال ، فالشمس مبعث الضوء وهذا الكون مصباح ، امانحن فصور واشباح فى غدو ورواح . » كما قال فريد الدين العطار وهو من شعراء الصوفية عند الفرس : « كان رجل تركى صاحب ستارة ، وكان عظيما فى علمه منقطع القرين فى فنه ، يحسن النقش على الستار ، ويجد الرزق اينما سار ، وهو على الدوام يلعب ،

ويخلق من الالوان صورا تعجب ، فكان اذا ابلى الزمان نقشا له ، اسرع فاستبدل به غيره . وصوره يختلف بعضها عن بعضها شكلا ولونا ، اما العابه فيعرضها فى سبع ستائر ، برقشها وزينها »

ويؤخذ من هذا الشعر ان اللعب بخيال الظل كان صناعة لغجر الترك يستدرون بها الرزق ضاربين فى الآفاق ، فمضوا بحرفتهم هذه الى مصر . وفى القرن الثالث عشر الميلادى تغزل شاعر مصرى فى حسناء تلعب بالخيال فقال :

ارتنا خيال الظل والستر دونها
فأبدت خيال الشمس خلف غمام
تلاعب للاشخاص من خلف سترها
كما لعبت افعالها بأنام

ويقول ابن اياس ان السلطان جقمق امر باحراق شخوص خيال الظل ، وان السلطان الملك الناصر كان يطيب له استدعاء من يدعى أبا الخير ليشاهد منه العاب خيال الظل . وفى عام ١٥١٧ فتح السلطان سليم الاول مصر ، غير ان الامور لم تستقم له إلا بعد قتل طومان باى آخر المماليك الشراكسة ، فلما قتله وبات آمن السرب ناعم البال فى قصره بالروضة ، شاقه ان يذكر نصره

المبين ، فوجد مقتل طومان باى احسن مايذكر به ، وما كان منه الا ان استحضر احد اللاعبين المهرة بخيال الظل ، وما مثل فى حضرته حتى طلب أن يشاهد على ستارته كيف شنق طومان باى على باب زويلة ثم صلب بعد ان انقطع الحبل به مرتين ، قيل ونال السلطان اربه ، وشاهد ما أحب أن يشاهد ، فسر كثيرا وأعجب باللاعب اعجابا لامزيد عليه ، ووصله بمال جزيل وخلعة ، ثم شرط ان يكون هذا اللاعب معه فى عودته الى استانبول ، ليطلع منه الامير سليمان على مايعجبه ويبهجه . وقفل السلطان الى وطنه فصحب معه ستمائة من اللاعبين بخيال الظل فيما يقال ، وقد خير هؤلاء اللاعبون بين البقاء والعودة فى عهد السلطان سليمان القانونى .

وهذا واضح الدلالة على ان الاتراك العثمانيين عرفوا خيال الظل عن المصريين الذين كانوا قد تلقنوا فنونه من الاتراك الشرقيين غير العثمانيين . وقد اقبل الترك على خيال الظل اقبالا عظيما ، وراقهم كثيرا ان يشاهدوه ، فكانت تعرض عليهم ألعابه فى المنتديات والمشارب ، كما جرت العادة باستعراضه فى ليالى رمضان خاصة ، تلك الليالى التى يتبسط الناس فيها ويطلبون

مايسرهم بعد يوم جوعان عطشان ، فكان ذلك دأبهم فى المدن والقرى ، ولم تكن مشاهدته مقصورة على الصغار دون الكبار ولا على سواد الناس وحدهم دون اوساطهم وصفوتهم ، فقلما كانت تخلو منه قصور العظماء فى حفلات الزواج والختان ، وقد قدم على كل الملاهى فى قصور السلاطين ، فيروى عن السلطان مراد الثالث انه اقام حفلة عظيمة يوم ختان ولده ، وكان خيال الظل فيها موضع اعجاب الحضور ومجلبة لبهجة النفوس ، وقد حظى أصحاب الخيال عند السلاطين واكرموا اعظم اكرام ، فقد ذكر الرحالة التركى اوليا شلبي لاعبا بالخيال يدعى حسن زاده ، فقال انه كان يلعب بالخيال مرتين فى كل اسبوع ليدخل المسرة على السلطان مراد الرابع الذى كان يصطفيه ويرفع منزلته ، لحذقه العربية والفارسية ولطف نظره فى فن الموسيقى . ومما يروى عن السلطان ابراهيم انه كان متهالكا على اللذات وصاحب لهو وطرب ، يقرب الندماء ويتسخى على كل من هز نفسه اعجابا واطرابا . وقد أراد مرة ان يكافىء احد اللاعبين بالخيال ، فاسند اليه منصبا رفيعا يغبطه عليه عظماء الدولة . وفى عام ١٦٥٢ زار تركيا سائح فرنسي ، وكان العهد عهد السلطان محمد الرابع ، فقال ان معظم

من يلعبون بالخيال من اليهود . ووصف سائح آخر العاب الخيال عند الترك وهو يتحدث عن الاحتفال بختان ولى العهد الامير مصطفى ، فكان من حديثه ان قال : « ولما اقبل الليل ، عرض خيال الظل ، فشاهده السلطان ومعه وزراؤه من سرادقهم . »

وكان لهؤلاء اللاعبين عند الناس قدر ومنزلة ، وقد كتب على قبر احدهم هذا البيت الذى يتضمن معنى صوفيا جميلا وهو : « ان الستار هبة وهبها الله للفنان ، ليظهر عليه مخلوقات الرحمن . ويجعل المظهر وسيلة الى معرفة المخبر . »

اما المعانى التى طرقها اللاعبون بخيال الظل ، ورمزوا اليها باخيلتهم وصورهم ، فانها تشبه كثيرا ماطرقه شعراء الترك على توالى عصور الادب التركى ، فقد كان الشعر صوفيا وقصصيا فى بدايه تأسيس الدولة العثمانية ، ثم ظهرت فيه الذاتية بعد فتح القسطنطينية وثبات دعائم الدولة واتساع رقعتها ، وكذلك كانت الاعيب الخيال تدور على المعانى الصوفية ، وتمثل قصص العشاق كقصة خسرو وشيرين وطاهر وزهرة ، ثم تقدم الزمن فكان خيال الظل نقدا للمجتمع وتبصيرا بالمحاسن والمساوىء ،

وفى القرن السابع عشر تطور عن خيال الظل مايعرف بقره كوز ، وهو يفترق عن الخيال بأن الشخوص فيه دمى تحرك من خلف ستار ، ويقال ان اول من ابتدعه درويش قدم من إيران فى عهد السلطان اورخان المتوفى سنة ١٣٥٩ ميلادية ، واسمه الشيخ كشترى المدفون فى مدينة بروسه . ومعنى قره كوز فى التركية (اسود العين) وتلك صفة الغجر ، واليه تنسب اللعبة لأنه الشخصية الرئيسية فيها التى تتلوها شخصية حاجى واد . ومن مألوف العادة ان تبدأ التمثيلية على النحو الآتى : يلتقى القره كوز وحاجى واد ، ويأخذان باطراف الحديث بينهما ويتم اتفاقهما على القيام بعمل رابح ، فيبدو القره كوز شديد الجهل بعيد الفهم ولا غرو فهو غجرى اسود العينين لاحظ له من معرفة ولا عهد له بحياة العمل فى المدينة ، ويظهر معهما أشخاص من جميع الاجناس كاليهود والارمن واليونان ، وهم يتكلمون التركية بلهجة تثير ضحك المشاهدين والمستمعين . وقد يدور التمثيل على قصة من قصص القره كوز كقصة البيمارستان والزورق والكاتب . اما لغة القره كوز فقد تسمو وتبلغ فى سموها لغة الحريرى والبديع ورموز الصوفية ، وقد تسف فتنحط الى عبارة السوقة

وهراء العجائز . ومن المستطرف ان يغنى حاجى واد قبل بدء التمثيل ، وغناؤه بالعربية والفارسية ، اى بلغتين اسلاميتين كانتا عند الترك قديما مصدر العلم ورفيع الثقافة . فيتغنى بقول القائل

احن شوقا الى ديار
لقيت فيها جمال سلمى
يالا يالا آه ، يللى واى
لقيت فيها جمال سلمى

ثم يقول بالفارسية : « منذا فى هذه الأرض البعيدة ، يزف الى البشرى بوصل حبيبي يالا يالا آه ، يللى واى ، يزف الى البشرى بوصل حبيبي . »

وكان تمثيل القره كوز عند الترك اداة طيبة للتعبير يتخذونها فى بعض الاحايين ، فإذا ارادوا ان يوقفوا السلطان على أمر من الأمور ولم يجدوا فى انفسهم جسارة للتصريح به ، أو كان لهم حاجة عند عظيم من العظماء ، وشاءوا ان يلطفوا فى المسألة ، وكلوا الى القره كوز ان يتحدث بلسانهم ويعرض مطالبهم بدقيق التلميح ، ومليح الكناية والاشارة . ومنذ مائة عام أو اقل ، استزارت كريمة محمد على باشا الكبير عقيلة الصدر الأعظم فى تركيا ، وشاهدت

الزائرة التركية تمثيليات القره كوز فى قصر الاميرة المصرية ، فعرفت كثيرا من عاداتها ، لأن التمثيل كان مصورا لبيئتها ، وكان القره كوز متحدثا عنها وعن حاشيتها .

وقد عرف اليونان واهل رومانيا خيال الظل والقره كوز عن الترك ، فراجت هذه الألاعيب عندهم فى طبقات الشعب على الخصوص ، وانها لمصدر من مصادر الادب الشعبى ، فى دراسته المستفيضة خير كثير .

طيور فى شعر الفرس

إذا تصورنا الطير مذكورة فى الشعر ، فالسابق إلى الفهم انها لسان الطبيعة ينطق عنها ، وصوتها المترنم ، تموج نبراته فى نفوس الشعراء نجوى لها يهتزون ومنها يطربون ، ومادام هـذا شأنها معهم ساغ لنا ان نقول ان ذكرها يجرى على لسان الشاعر كلما تملى حسن الطبيعة فانتشى وغنى . غير ان شـعراء من الفرس يخرجون عن هـذا المألوف ، لأن ذكرهم لها ليس قاصرا على شعر الطبيعة ، وانما يتعداه إلى فنون اخرى واغراض على حدة ، كان تناولهم اياها غير مانعهد عند العرب مثلا .

وإذا ما تتبعنا صنيعهم هذا منذ اقدم العصور ، وجدنا فى تاريخ الفرس الخرافى بطلا يقال له « سام بن نريمان» كان يبتهل

إلى ربه سائلا ان يرزقه ولدا يشد ازره وتقر به عينه ، واشتملت منه جاريته على حمل ، ففرح واستبشر ، بيد ان الهموم عصفت بقلبه يوم ولد له ، لأن الوليد كان ابيض الشعر ، كأنه شيخ علته الكبرة ، فلما رآه على هذه الهيئة استقبحه واقتحمته عينه ، وامر به فاخرج إلى الجبل ، واصعد به حيث ترك وحيدا .

وقد ذكر الفردوسى هذه القصة فى شاهنامه ، ومن قوله :

« وكان على رأس الجبل معشش العنقاء ، وكانت تطير فى طلب الرزق لأفراخها ، ورأت الصبي فى مثل ذلك الموضع ، فألقى الله محبة منه فى قلبها ، ورفرفت عليه بجناحيها ثم حملته وحلقت به ووضعته بين افراخها ، فكانت تربيه مع اولادها حتى طالت عليه المدة ، وترعرع بين اولاد العنقاء . وكانت القوافل تعبر تحت ذلك الجبل فوقعت ابصارهم على مولود انسى بين افراخ العنقاء ، فقضوا العجب من ذلك وتحدثوا به . »

وفى اساطير الفرس كذلك طائر يقال له « هما » إذا وقع ظله على رأس انسان صار ملكا ، فاشتقت من اسمه كلمة « همايون » وهى فى الفارسية بمعنى ملكى او مسعود ، وقد جرى لهذا الطائر ذكر فى الشعر ، ونسب اليه السعد واليمن كما فى قول هذا الشاعر

المداح : « هو ذا الملك المظفر المنصور ، والسيد الاريب ذو الرأى المصيب ، لقد اولم الوليمة العظيمة فى قصره الجديد العتيد ، وكان اليوم يوم السعد الاكبر والطالع الميمون ، الحظ موات والنجوم فى اسعد بروجها ، أما الفأل فمنسوب إلى هما . »

ولئن اكثر شعراء العرب من مناجاة الحمام ومناغاته ، بعد ان هاج هديله احزانهم واشواقهم ، فشعراء الفرس لا يذكرونه إلا فى الندرة ، ولا يعلق بحفظنا من شعر تضمن ذكره إلا هذه الرباعية من رباعيات عمر الخيام وهى : « ذلك القصر المنيف الذى يسمو إلى الجوزاء ارتفاعا ويسجد الملوك على اعتابه تذللا وانكسارا ، لقد ابصرنا على طنفه فاختة ، وحكاية صوتها ، اين اهل الديار ... اين اهل الديار ! »

وقول من قال « الحمائم مع الحمائم والصقور مع الصقور ، وعلى اشكالها تقع الطيور »

اما البلابل فقد طرب شعراء الفرس لها ورددوا ذكرها وسموها احسن اسمائها ، فالبلبل صاحب الف قصة والف صوت ، وطائر السحر ومرتل كتابهم المقدس القديم ، وهو العاشق الولهان ذو القلب العميد ، الذى يعشق الوردة فيحوم

حولها ليبثها شكوى الهوى ، وينفس عن فؤاده تباريح الجوى ، والبلبل هو ذلك المحب الوامق الذى لا يتحول عن عهد ، لأنه لا يشاهد إلا على غصنه المياد إلى جانب وردته الساهمة الحالمة ، التى قد تتوجع لنواحه ونحيبه ، فتشق قميصا اخضر من اكمامها الرقاق . وقد صور الشاعر ذلك بقوله : « انه بلبل الروض ، يطيل من وقفته عند وردته للشدو والتطريب ، فياله عاشقا غناؤه النجوى ، بينه وبين من يهوى »

وإذا تلازمت الورود والبلابل فى البستان فإنها متجاورة فى الشعر الفارسى ، وقد جرت عادة للشعراء بمراعاة ذلك ، فقلما ذكرت وردة من غير بلبلها ، ولا بلبل من غير وردته ، ونسوق مثالا على ذلك تلك الغزلية الجميلة لحافظ الشيرازى وهى :

« وانطلقت إلى الروض سحرا ، ورغبتى ان اقطف منه زهرا ، وهناك سمعت ترنما للعندليب ، وارحمتا له ! انه عاشق مثلى ، ولقد منى بعشق وردة فارتجت المروج من نواحه بالحنين والرنين ، ونقلت فى الروض خطاى ، واطلت التأمل فى ذلك البلبل وتلك الوردة ، انها ذات الجمال ، وهو المشتاق الى الوصال ، فلا تفضل منها لتسكين بلباله ، ولا تبدل فى الهوى لحاله . .

شد ما احزنني انين البلبل فعزني تجلدي وصبري . ما اكثر الورود المتفتحة في هذا الروض البهيج ، غير ان احدا لا يقطف واحدة ، الا اصيب من شوكها بوخزة . لا تأمل الخير يا حافظ من هذا الزمان ، فليس فيه إلا الضر والشر والحرمان . »

والحجل من الطيور التي اورد الشعراء اسماءها في اشعارهم ، وما ذاك الا لفرط اعجابهم بمشيته ، فضربوا المثل بها ، وشبهوا تبختر الحسناء بتأطر الحجلة في سيرها . يقول حافظ « ارأيت هذه الحجلان مقهقهة متبخترة يا حافظ ؟ لقد ذهلت عن شاهين القضاء ، ولسوف ينقض عليها ويفتك بها ! »

ولفريد الدين العطار المتوفى في سنة ٦٢٧ هجرية منظومة بعنوان « منطق الطير » ، وهي طويلة تتألف من اربعة آلاف وستمائة بيت ، والمنظومة برمتها في التصوف ، وقوامها قصة فحواها ان الطيور اجتمعت ذات يوم ، فقال قائلها ما من مدينة إلا ولها حاكمها ، فلا بد لنا من حاكم ندين بطاعته وننضوي تحت لوائه ، وقام الهدهد فقال ان العنقاء حاكمنا ، وعرض على الطير ان يهديها إلى مقرها ثم اشترط الصبر على وعثاء السفر ، غير ان كثيرا من هذه الأطيار تريثت عن هذه السفرة ، وادركتها

المخاوف من المشاق والاهوال ، وبسط كل طائر عذره الذى يبرر به عدم رغبته فى ان يسافر مع السفر . فكان من البلبل ان قال انه لا يطيق فراق الوردة ، وقالت الببغاء انها لا تستطيع خروجا من قفصها الذى حبست فيه لحسنها ، واظهر الطاوس استحياء من هوان شأنه على الطيور ، لانه كان سببا فى خروج آدم من الجنة ، ثم قال البط انه لا يصبر عن المياه كما لا يصبر الحجل عن الجبال ، أما البومة فذكرت انها لا تعيش الا بين الخرائب والاطلال . ثم قال طائر الهما انه يؤثر الحضر على السفر ليهب الملك للسعداء ، كما قال الصقر انه لا يجسر على ان يبرح اكف الملوك فى صيدهم ، ثم اشتكت الصعوة ضعفها وضآلة حجمها . وبذلك كان من يرغب فى الرحيـــل إلى العنقـــاء ثلاثين طائرا وحسب . ورحلت الطير وامامها الهدهد دليلها الهادى ، فلقيت من سفرها هذا نصبا ، وعبرت سبعة اودية هى وادى الطلب والعشق والمعرفة والاستغناء والتوحيد والحيرة والفناء حتى انتهى بها المطاف إلى العنقاء ، وهناك نظرت اليها فكأنها نظرت إلى مرآة ترى فيه صورتها . فكلمة (سيمرغ) فى الفارسية يمكن ان تكون بمعنى عنقاء او ثلاثين طائرا ، فكأن الطيور رأت فى نفسها

ماطلبته خارجا عنها ، وهذا معنى صوفى واضح ، فمن عرف نفسه فقد عرف ربه ، وبذلك تظهر المعانى الصوفية العامرة التى ضمنها الشاعر منظومته . ومن قول العطار تصويرا لما يعرف عند الصوفية بالفناء فى الذات الالهية : « واشكل الأمر على الطيور ، فما عرفت اهى العنقاء ام ثلاثون طائرا ؛ واخذ العجب منها كل مأخذ ، ففكرت ولكن من غير عقل ، ولما حارت فى امرها ولم تهتد إلى حقيقة حالها سألت الحضرة امامها من غير ان تفتح بالكلام فمها وارادت كشف السر المكتمن ، والتمييز بين نحن وانت . فالقى فى نفوسها ان هذه الحضرة كالمرآة ، من نظر اليها رأى نفسه فيها روحا وجسدا . فلما جئتم وانتم ثلاثون طائرا رأيتم انفسكم ثلاثين . ولو كنتم اربعين لوجدتم انكم اربعون »

ومن شعراء الصوفية فى ايران من يدعى جلال الدين الرومى ، وهو شيخهم وسيدهم غير مدافع : وقد توفى عام ٦٧٢ هجرية بعد ان نظم كتابه المثنوى الذى يعتبر عمدة لكل صوفى ودارس للمذهب للصوفى ، وفى الكتاب قصص منظومة يعنينا منها فى هذا المقام قصة البقال والببغاء التى دفقت الزيت فى الدكان ومنها : « كان لبقال ببغاء فتيقة اللسان عذبة الالحان .

وكانت تحرس الدكان وتبادل المتجرين غرر الكلام . واتفق يوما ان وثبت هرة تبغي اللحاق بفأر فرعب ذلك الببغاء رعبا ، وطلبت فى احد الاركان مهربا ، فاندفقت زجاجات الزيت . وجاء صاحبها من داره ، وجلس جلسة السادة على دكانه ، ثم رأى الزيت المدفوق فضرب رأسها حتى تساقطت ريشاته ، وانقطعت الببغاء عن كلامها اياما ، فعض الرجل بنانه ندما ، وجعل ينتف عثنونه حزنا وهو يقول : لقد غابت شمس نعمتى ، فياليتنى قبل ضربها كنت قد كسرت يدى ، وبعد ثلاثة ايام بلياليها ، جلس الرجل على دكانه مكروبا كاسف البال . ومر به درويش حاسر ، وقد بدا رأسه الاقرع كأنه ظهر الاناء ، فانطق منظره الببغاء فورا ، ونادت الدرويش باسمه وهى تقول له : ما الذى اذهب شعرك ؟ لعلك دفقت الزيت ! وضحك الناس كثيرا من قياسها ، فقد حسبت الدرويش نظيرا لها . فلا تتصدوا للقياس على صنيع اهل الفضل ، فان لفظين قد يتفقان فى رسمها ويختلفان فى معناهما . لقد اضل ذلك خلق الله اجمعين ، فما اقل هؤلاء الذين يعرفون لاهل الحق حقهم . »

فهذه القصـة على بساطتها وسذاجتها واضحة المعنى عميقة المغزى تتجلى فيها براعة شعراء الفرس فى سرد القصص ، وانطاق الاطيار بالحكم الغوالى .

مذهبان هدامان في تركيا وايران

المذهب الهدام قلب للاوضاع وعكس للآيات وفساد فى الارض وضلالة لاضلالة بعدها ، فلا يأخذ به إلا ثائر طياش ذهب عقله وعزب صوابه ، وخبط خبط العشواء فى الليلة الظلماء ، أو صاحب هوى ضل وغوى وافترى الاكاذيب والاضاليل ، متخذا من الباطل وسيلة إلى غاية ينشدها . ولن يكون امره الا وبيل العاقبة مخوف العقبى ، لأن الشجرة المرة لاتثمر إلا مرا ولو سقيتها شهدا ، كما قال شاعر فارسى ، وانك لاتجنى من الشوك العنب كما يقول المثل العربى . وفى تاريخ الفرس والترك لذلك مثالان نسوقهما تبصرة وعبرة وتذكرة .

ففى القرن الخامس للميلاد ظهر مزدك الفارسى ، وكان يطلب النجوم ويستدل بها على ماقدر للناس من سعد ونحس ، ولما عرف منها ان نبيا سوف يظهر امره ، احب لنفسه ان يكون هذا

النبي. فابتغى الوسيلة الى النبوة ، وهدته الحيلة إلى ان يهيء خطة له مرسومة يسير على هديها ، فأعلن فى الناس انه قد جاءهم يبين لهم على فترة من الرسل ، بعد ان رق ايمانهم وفسدت عقائدهم ، وطرحوا تعاليم المجوسية التى تعلموها من نبيهم زردشت ، ثم قال لهم انه إنما جاء هاديا لهم مصلحا لدينهم ودنياهم، وتشبه بنبي من انبياء بنى اسرائيل بعثه الله الى قومه بعد ان نسوا تعاليم موسى وماورد فى التوراة . فدعا مزدك الى مذهب ثنوى وقال بالنور والظلمة واله الخير واله الشر . وقد جاء عنه فى تاريخ الطبرى : « قال مزدك واصحابه ان الله إنما جعل الارزاق فى الارض ليقسمها العباد بينهم بالتآسى ، ولكن الناس تظالموا فيها وزعموا انهم يأخذون للفقراء من الاغنياء ، ويردون من المكثرين على المقلين، وان من كان عنده فضل من الأموال والنساء والامتعة فليس هو بأولى به من غيره . فافترص السفلة ذلك واغتنموه ، وكاتفوا مزدك واصحابه وشايعوهم فابتلى الناس بهم وقوى امرهم ، حتى كانوا يدخلون على الرجل فى داره فيغلبونه على منزله ونسائه وامواله ، فلم يلبثوا إلا قليلا حتى صاروا لا يعرف الرجل منهم ولده ، ولا المولود اباه ، ولا يملك الرجل شيئا مما يتسع به ».

ودعا إلى مذهبه الملك قباذ والد انو شروان فأجابه ، وسأله عن معجزته ، فقال مزدك انه قدير على انطاق النار باذن ربه ، لتشهد بصدق دعوته وصحه نبوته ، ولما طلب الملك اليه ان يجيء بالبينة فاستمهله يوما . ثم توجه الى بيت نار المجوس وامر عبيده بحفر سرب ينتهى إلى موقدها ، على ان يكون فى سقف السرب، ثقب صغير لا تراه العيون ، فاذا كمن فيه انسان وتكلم ظهر صوته ولم يبد شخصه ، ولما كان من الغد دعا الملك ليطلعه على معجزته ، فاقبل الملك فى بطانته واهل مشورته ، واوقدت نار عظيمة ، وهمهم مزدك وزمزم ، فرد عليه رجل من اتباعه كان فى السرب ، وانبعث صوته من الثقب بجانب النار وهو يقول ان صلاح الدنيا والآخرة فى اعتناق المزدكية . وتمت الحيلة على قباذ واتباعه وترجح عندهم ان النار تنطق ومزدك نبي بصدق ، فآمن به ايمانا لا يتزعزع ، واكرمه كأعظم ما يكون الاكرام ، واجلسه على عرش من ذهب وجوهر ودخل الناس فى دينه افواجا من غير تفكر ولا تدبر ، إلا رجال الدين فقد تحرزوا منه ورووا عليه الكذب ، وهدتهم حكمتهم الى ما فى مذهبه الهدام من شر وفساد .
وكان انوشروان كاشحا له بالعداوة بعد ان اطلع على خزيه

وافترائه ، فاشخص الرسل خفية الى رجال الدين ، وناط بهم ان يقولوا لهم : « ما الذى الزمكم الصمت ، وما هذا الفشل الذى تبدونه ازاء مزدك ؟ اليس فيكم ناصح لأبى ، يسأله ماذا دهاه حتى انطلى الزور عليه ، واختدعه كلام هذا الماكر ، لقد بدد الكلب الاموال ، وهتك اعراض المحصنات ، وجعل امر البلاد الى الغوغاء والدهماء ؟ سلوه على اى اساس ارسى مذهبه ، والى اى نظام نسب مسلكه واعلموا انكم اذا اطلتم صمتكم ، فستذهب اموالكم وستختطف منكم نساؤكم . ولن يدوم الملك فى اسرتنا . فمن الحتم ان تنطلقوا الى ابى ، وتبذلوا النصح له ليرشد امره ، ولزام عليكم ان تقارعوا مزدك حجـــة بحجة وتأتوه بسلطان مبين . »

وانهى انوشروان مثل هذا الكلام الى رجال الدولة ، حتى اتاهم بالمقنع وألبهم جميعا عليه . وعلم مزدك برأى انو شروان فيه ، واسر ذلك الى ابيه قباذ ، فاستدعى الملك ولده وقال له فى ذلك ، فصارحه انو شروان بقوله : « ان دين المجوس لا يأمر بالمساواة فى المال والنساء وإلا انعدم الفرق بين الناس وبين تلك السوائم التى تشترك فى اناثها ومراعيها . » وكبر على الملك ان يسمع

ذلك من ولده ، وتعجب ان يخالفه فى الرأى ، فرد عليه انو شروان ردا منيفا بقوله : « لقد علمتنى ذلك ، لأنك خالفت اباك وتحولت عن مذهبه ، فغير من مسلكك اغير من مسلكى ! »

ثم ارتضى قباذ من انو شروان أن يهيء من البراهين والحجج ما يسفه به رأى مزدك ، ويظهر فساد مذهبه ، وامهله اربعين يوما يقتله بعدها ان اخفق فى مسعاه . وقبل انو شروان ذلك ، وارسل الى موبذ فى الجنوب يستقدمه على جناح السرعة ، ولما قدم عليه قبل انقضاء مهلته بيوم او بعض يوم ، اوقفه على جلية الامر ، وذكره بأنه هالك ان الخمه مزدك ، فطلب اليه ان ينافح عنه ويتحدث بلسانه واوصاه خيرا . وانعقد مجلس حضره الملك وولده والموبذ ومزدك . فقال الموبذ ان مزدك هذا على علم بالنجوم ، وقد تردى فى الخطأ ابين الخطأ ، واستدل بالنجوم على ظهور نبى فى هذا الزمان له كتاب عظيم ومعجزات واعاجيب ، يشطر القمر شطرين ، ثم يقضى على دين المجوس قضاء مبرما ، ويوعد بالجحيم كما يعد بجنات النعيم ، ووقع فى وهم مزدك انه هذا النبى ، مع ان مزدك فارسى ولن يكون هذا النبى من الفرس ، ومزدك يدعو الى المجوسية وعبادة النار ، على حين ينهى هذا

النبي عن ذلك وينفر الناس منه ، ولا يستبيح نساء الغير واموالهم، فلا جزاء عنده إلا قطع اليد لكل من سلب ما ليس له .

ثم واجه مزدك فقال انه يرى ان تكون الاموال ملكا للخلق مشاعا، وهذا يتعارض مع الاحسان ووقف الاموال على وجوه البر والصدقة ، لأن الحاجة لا تمس بعد ذلك الى عمل الخير ومواساة الفقير والرأفة بالضعيف . ثم تابع الموبذ كلامه فقال: اذا اصبحت المرأة لأكثر من رجل فالى من ينسب ولدها ؟ واذا وضعت زوجة الملك حملها فهل يكون الجالس على عرش البلاد من نسل الملوك ام نسل السوقة ؟ فاسقط فى يد مزدك ولم تنفرج شفتاه عن كلمة . وامره الملك بالكلام فقال أضربوا عنق هذا الموبذ، وكره الملك أن يقتل الموبذ فى غير ذنب كان منه ، فاسرها مزدك واضطغنها على الملك فنوى الفتك به ، وعمد الى الدهاء والحيلة جريا على عادته ، وقرر ان يكون الاحتكام الى النار ، واوعز الى من تنطق النار بلسانه ان يطلب قتل قباذ ، كما طلب الى رجلين من شيعته ان يغمدا السيف فى قلبه حالما يسمعان الامر بقتله . وجاء اليوم الموعود ، والتقى المحتكمون فى بيت النار وامرت النار بقتل قباذ لتأكل فلذة من قلبه ، وهم الرجلان

بالقتل إلا ان حراس الملك حجزوا بينهم وبينه .

ولما تولى انو شروان الملك بعد ابيه ، عول على ان ينكل بمزدك وقومه ، فدعا المزدكية الى حفل دينى ، وهناك أمر جنده فحملوا عليهم وذبحوهم عن آخرهم ودفنوهم فى بستان منكسين بحيث تظهر من الارض ارجلهم . ولما قضى الامر استزار مزدك وطلب اليه ان يسايره قليلا فى البستان فاشار الى الارجل الظاهرة من الارض وقال له : « هذه ثمرات مذهبك يا مزدك ! » ثم حانت منه التفاتة الى جنده فدفنوا مزدك حيا ، ويقال ان التخلص من هذه الفئة المفسدة كان سنة ٥٢٣ ميلادية .

غير ان المزدكية لم تندثر اندثارا تاما بعد مزدك ، فقد كان اهل كرمان على هذا المذهب فى العصر الاموى ، كما تطورت المزدكية الى مذاهب فارسية اخرى فى العصر الاسلامى ، فقد ظهر من يدعى حاجى بدر الدين سنة ١٤١٦م، وهو رجل تركى يصل نسبه بملوك السلاجقة ، ومجمل القول فى سيرته انه حصل العلوم وقضى شطرا من عمره فى رحلة وتطواف ، ولما وافى مصر اشتغل بتأديب السلطان فرج بن برقوق ، ثم رحل الى تبريز ، وازدلف الى تيمورلنك وشهد مجالسه فناظر العلماء

واوتى الحكمة وفصل الخطاب ؛ غير ان الله اضله على علم فمال الى الالحاد والافساد ، وخرج على الناس بمذهب يروق جهالهم ، لينضموا اليه وينضووا تحت لوائه ، ولا غاية له من ذلك إلا التوصل الى الملك والسيادة ، فقرر ان يسوى بين الخلق فى كل مايملكون إلا النساء ، وظاهره ملحدان من مريديه وهما بوروكوجه مصطفى ، ويهودى يدعى طورلق ، فخلعوا طاعة السلطان محمد الاول ولعنوه ، والقوا فى روع السذج البسطاء من اتباعهم انهم مصلحون وهم المفسدون ، وما كان ايسر ان يخدعوا قوما لا يعلمون . وتهافت خلق كثير من اهل الاناضول على مذهبهم تهافت الفراش على النار ، فساقوهم لمحاربة السلطان كأنهم حمر مستنفرة لاتدرى اين يساق بها من فجاج الارض ، وارسل السلطان جيشا عليهم يقوده صاروخان بك ، وتصافت الفئتان وانتشب القتال فدارت الدائرة على جيش السلطان ، فأنفذ اليهم على بك حاكم مدينة آيدين على رأس جيش عظيم ، غير ان النصر خذلهم كذلك فى هذه الكرة . وترامى الى محمد الاول نبأ الهزيمة فامتلأ غضبا . واقسم بلحيته ليذهبن ريحهم ، ويفرقنهم ايدى سبا ، فجمع الجند من اطراف مملكته وحشدهم تحت لواء

ولده الامير مراد وبايزيد باشا الوزير ، ودلف جيش السلطان الى من فسقوا عن الدين ، فنكبتهم نكبة وقصمتهم قاصمة . وشنق بدر الدين واليهودى ، اما مصطفى فذاق عذابا غليظا ، ونصر الله الاسلام والمسلمين على هؤلاء الضالين الذين جاءوا بما لايقره عقل ولا دين .

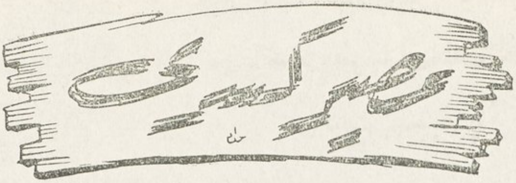

في العام السادس للهجرة ، أوفد النبي صلى الله عليه وسلم رسولا على كسرى برويز يحمل كتابا فيه الدعوة الى الاسلام . وكبر ذلك على ملك الفرس وثارت له حفيظته . فخرج عن طوره ومزق الكتاب تمزيقا ، غير ان الله مزق ملكه ، وسلط عليه ولده شيرويه الذى قتله .

وهذه تمثيلية شعرية نظمها الشاعر الايرانى المعاصر اويسى سنة ١٣٢٤ هجرية ليصور فيها منقلب الطاغية بعد ان آثر الكفر على الايمان ، وباء بغضب الله وسخط من رسول الله . ونحن هنا نجتزىء من هذه التمثيلية بفصلها الاول .

الفصـــل الاول

(حجرة تزدان بزينات الملوك ، فيها من المناضد اعظمها ،

ومن المقاعد مايتحلى بالذهب الابريز . وقد جلس كسرى على مقعد كبير يشبه ان يكون عرشا تحمله السباع ، وفى وجهه غبرة من هم وغم . شيرين بالقرب من باب الحجرة التى دخلتها منذ قليل ، وهى بادية اللوعة والحيرة تديم نظرها الى الملك المحزون، ثم يجرى الشعر على لسانها ، تعبيرا عن ذات نفسها .)

المشهد الاول

(كسرى ، شيرين ، فيروز)

شيرين (لنفسها) ـ كسرى ، ياملك الملوك ، ياصاحب الحول والسلطان ، ويلاه ما بالك وما هذه الاحزان ! (تدنو منه) ما الذى اكسف بالك وغير حالك ، لقد انسيت فى الغم ملكك ودنياك ، فلو عرفتنى خطبك واوقفتنى على جلية امرك.

كسرى ـ ماذا عسيت ان اقول ، الصمت افضل لى واجمل بى ، فان الحديث عن قلب جريح يزيده جراحا على مافيه ، كأنى اصبت اليوم بخبول ، لست ادرى ماذا دهانى وصنع بى مايعجز عنه بيانى . فقلبي تغشاه من الاسى ظلمات بعضها فوق بعض ، وان كان لكل شيء حد ، فما لهذا الاسى من حد . تعالى ياشيرين ، جالسينى ، اسعدينى وعن السر استكشفينى .

رأيت البارحة فيما يرى النائم فتى وسيما يشرق بهاء ولألاء، على فرس عربي حسن السير والرقصان، وقد تهدلت ذؤابته العقصاء كأنها الوهق، فهيبه الى ان قال لى: ياهذا الفتى عد عن الكفر واسلم تسلم. قلت: ما الى هذا سبيل، ديني لن ارتدعنه وقومي لن اكون بدعا فيهم. وما سمع الفارس ذلك مني حتى مضى عني بعد ان خفقني بسوطه خفقة اوجعتني وارمضتني، فساءت حالى من رعب ومن وصب، وما هنأني عيش بعدها، وطويت بساط بهجتي وغاضت بشاشتي، غير ان املا بقي لى بعد كل ماحاق بي، فانطلقت الى خزائني وكنوزي، لأشهد ماقد يشرح الصدر من ضيق ويسر القلب من شجن، اليس فيها الدرر والعطور والجوهر والحرير؟ ولأتبصرها وافتش عن حالها، واذا تعرفت ماتحوى الخزانة، جدت منها على اهل الحاجة والفاقة فتسعد بذلك روحي وتقر عيني.

ودخلت بيت الزخرف، فما رأيت من ذهب ولا من جوهر وكأني لم اضع نفائسي حيث وضعتها، لقد كان لى اربعون بيتا بالنفائس مفعمة، فلم يتبق لى منها جميعا غير اربعة! ودخلتها الواحد بعد الآخر فشاهدت ماوجد وسألت عما فقد، وطلبت

الى الخزنة ان يدفعوا الى مفتاح تلك الكنوز التى كانت الارض تميد وترزح تحت اثقالها ، ثم تسلمت مفتاحا من ذهب له بهاء القمراء ورونق شمع اضاء ، وامسكت بالمفتاح ، لأستفتح الباب من كنز غاب تحت التراب ، ونبشت الارض وكشفتها فبدا صندوق من المرمر تحتها ، وعليه قفله الذى ضل عن مفتاحه ، وامرت بالفتح ، ونفض التراب عن الصم الصلاب ، فاذا طاق ، واذا طلسم من لجين ولوح من نضار ، وحروف نقشت ، ومن ذهب وفضة سبكت . فقلت لاستودع هذا اللوح بهبود .

(ينادى فيروز الخادم) ـ تعال يافيروز ، عجل بتقديم اللوح الذى اودعته وديعة عند بهبود .

فيروز ـ سمعا وطاعة انا آتيك به .

كسرى ـ (يخاطب شيرين) انه لطلسم عجيب يحوى من الاسرار كل دقيق غريب ، ولا يخدعنك مظهره عن مخبره ، وان فيه لامرا ينبغى استطلاعه .

(يقول لفيروز) : ناد بزرك اميد ، ليحضر الينا ، وليكشف هذا السر لنا (يقول لشيرين) مالها الا بزرك اميد النحرير ، ولاينبئك مثل خبير .

المشهد الثانى

(كسرى ، شيرين ، فيروز ، بزرك اميد)

فيروز - بزرك اميد بالباب .

كسرى - ليدخل علينا .

(يقول لبزرك اميد) . تقدم يابزرك اميد ، امعن نظرك فى هذا اللوح العجب ، اى شىء فى هذا الذهب !

(يمسك بزرك اميد باللوح ويقرأ) .

بزرك اميد - هذا اللوح قديم قديم ، وكتابته تتضمن رمزا يؤخذ منه ان الملك اردشير وهو من هو سعة علم بالافلاك ووقوفا على احكام النجوم ، رأى فى علمه انه اذا اقترن نجم بنجم ، ظهر عظيم فى بلاد العرب ، له الفضائل كلها ، وتجرى عليه صفات الحسن جميعها ، فهو الامين الوفى ، وهو مشرق الجبين وصاحب اللسان العذب المبين ، وله من المعجزات وعجائبها ماسوف يهز الكواكب فى مسالكها . انه خاتم الانبياء والمرسلين ، يسود الامم كافة بدين الحق الحنيف ، من اتبعه فاز بما هو خير من الملك وابقى ، والعاقل العاقل من دخل فى دينه فان الغنم لمن صافاه ، والغرم على من عاداه .

(ويسمع كسرى هذا من كلام بزرك اميد فيربد وجهه وتثور نفسه)

كسرى - هذه اوصاف رأيتها في منامي ، فهات يابزرك اميد ماعندك فى هذا الباب والقه على مسامعنا .

بزرك اميد - اذا سألتنى أيها الملك المنصور ، عما فى هذا اللوح المسطور ، فمحمد هو النبي العظيم الكريم . الذى يؤيده الرحمن بروح من عنده ، وقد اصطفاه من دون الخلق اجمعين ، وان لسانه المبين لمفتاح هذا العالم المغلق المبهم . لاذكر فى هذا اللوح الا لهذا الرسول الطاهر المرتضى ، انه جبوة الله وصفوته ، وقد طاب به ما فى مكة من تراب فكانت له ريح المسك الفتيق !

(ويزداد كسرى غما على غم ، فيجف قلبه وتختلج جوارحه) .

كسرى - كفى ماقلت يابزرك اميد كفى ، لاتزدنى شرحا ولا تفصيلا . (يقول فى نفسه) ارى الدنيا اظلمت فى عينى ، ورأسى ينتابه من الكمد دوار وخمار . الهى ، مابالى ! لقد دب السقم فى روحى والخور فى نفسى .

(وتريد شيرين لتسعده وتنفس عنه مايكربه) .

شيرين - ياملك الملوك ، ياكبير الفطنة وصاحب العز

والجبروت ، يامن لك من تاجك وعرشك مثلما كان لكيقباد العظيم سلفك ، ان نبيا قصوا عنه احسن القصص ، منذ الزمان العريق فى القدم ، واستخبر النجوم عنه أناس قبلنا فاخبرتهم ، لن يكون ضالا ولا غويا وحقيق ان يكون له شرعة ورفيع منزلة ، انه يقارع بالحجة الالهية ، ويدعم مذهبه بالدلائل العقلية ، فليبق اسمه مقترنا بالخير والحسنى ، ولتسد ذريته فى قومه من بعده . فلو رق قلبك لدينه ياملك الزمان ، لنلت الخير والامان ، ورفعت من طريقك كل شوكة وكل عقبة كأداء .

كسرى ـ الحق ماتقولين ، والصدق به تنطقين ، ولكن الهى هو من اوجد قومى وخلق اجدادى ، فأنى يكون لى تحول عن مذهبهم وتبديل لشرعتهم ، انى لاحتشم الملوك الاولين ، وقلبي ينازعنى الى هذا الدين القويم ويدعونى ، غير ان امرى ليس فى يدى ، والجد لا يواتينى ، فالسعد حليف لصاحب هذا الدين الحنيف .

شيرين ـ دع عنك دينك هذا القديم ، واعتنق الدين الجديد ، كن حازما ، اطلب الخير العميم ، وسر فى الطريق النهج القويم ، يأمن قومك الذل والصغار ، اجعل بالك الى الواقع فلكل

زمان لبسة ، ذد عنك الشيطان ونزغاته ، ايها الملك لكل يوم مايقتضيه ، ولابد لك من رعاية مقتضى الحـــال ، لايكونن عقلك قاصرا عن الادراك ، وانظر الى الساعة التى انت فيها ، انظر الى الافلاك ، انها تتغير ابدا ، فالتغير سنة من سنن هذا الـكون ، من لايستشرف الرقى والسمـــو ، تسؤ حاله ولا تسعد ايامه .

كسرى - اعلمى يقينا ياشيرين بانى مادمت ملكا ، فانا صاحب عرش وجيش ، وانى لاربأ بأرض بلادى الطاهرة أن تكون موطئا لسنابك خيل المغيرين ، فيمنى قومى بذلة ليس بعدها ذلة. لا ، لن يدخل على ايران مذهب جديد وتشريع لاعهد لها به ، فان ماقد يصلح بلدا قد يفسد بلدا آخر ، انى لمقتنع بما قلت ، عليم بكل ماقررت ، ولـكن يا اسفى ، ان اللسان لايفشى السر فى كل مكان .

المشهد الثالث

(كسرى ، بزرك اميد ، شيرين ، فيروز ، عربى)

فيروز (يدخل الحجرة على كسرى محييا) بالباب رسول يطلب شرف المثول .

كسرى — ماذا يريد منا ؟ ألم تسأله من أوفده علينا !

فيروز — يا ملك الزمان ، لقد قال انه لا يصرح بمقصده إلا للملك السعيد ، وظاهره يدل على انه رسول ندب ، يتجافى عن ان يبوح بالسر .

كسرى — ليدخل ليظهرنا على ما أقدمه .

(تخرج شيرين ويدخل العربى)

العربى — إذا اتبعت الهدى ، فسلام عليك ايها الملك .

كسرى — ما اخبث لسانك ياعربى وما اسوأ ادبك ، ماحاجتك ! افصح ، ليس المقام مقام سلاطة وقحة ، امن مكة قدمت ام من المدينة ، قل من اين جئت ؟

العربى — لقد اشخصنى رسول الحق فخر الكائنات ، اليك ياوارث ملك جمشيد . وحملنى كتابا اريد ان اعرضه عليك ، انه در يتيم اهديه اليك ، فخذه ايها الملك ، وانفض الكفر والضلال عن قلبك .

كسرى — بزرك اميد ايها الوزير الخبير ، تسلم هذا الكتاب واقرأه علينا .

بزرك اميد — ياله كتابا مطيبا ، فانه معجون بالعنبر الاذفر ،

وقد كتب مافيه بالخط الكوفى : « من محمد بمكة إلى برويز ملك الفرس ، باسم ذلك الذى لايتحيز فى مكان ولا يقفر منه مكان ، خالق هذا الوجود ، ومن يفيض وجوده بالجود انه الاله كيفما دعى ، والملك القدوس بكل معنى ، وليس لسائل ان يسأل عن كيفيته ولا كميته فما العبد إلا فى اسر سيده . انت انسان ضعيف يامن تدعى كسرى ، ولو انضوى العالم بأسره تحت لوائك ، وكان لك من العظمة ما كان لاسلافك ، فانت حى وكل حى إلى ممات ، وليس لانسان بدفع الموت يدان . لا تغرنك نفسك ، فمن اغتر بها ولم ينظر إلا إليها عميت بصيرته ، اجعل الفضيلة نصب عينيك ، واعلم ان الرذيلة صرف النظر عنها إلى نفس تكثر من اعجابك بها ، لقد جعل الله الأرض بساطا ، والربع المسكون بعضا منها ، فكان العراق جزءا من هذا الكل وفيه مدينة المدائن ، وفى المدائن الجم الغفير من الانام ، وانت بينهم طيف فى المنام ، فعليك بالقياس والنظر ، لتعلم قدرك بين خلق الله . هى الدنيا مستقر للبرية ، فمحال ان تطلب لنفسك الالوهية ، اشهد بأن لهذا الكون ربا ، لامكان له ، ولا حاجة للمكان به ، وان ربا يعز من يشاء قد جلعنى للعالمين نبيا . النار لاتعبد ، فليس

فيها الا المحترق بها ، واسلم وآمن . »

(وما وصل بزرك اميد من قراءة الكتاب إلى هذا الحد حتى تململ كسرى تململا شديدا ، وخرج عن صبره فجذب الكتاب من يده ومزقه) .

كسرى — تأمل جرأة العرب إلى أى حد بلغت ، هل خوطب ملك قبلي بمثل ماخوطبت به ؟ منذا الذى يجسر على ان يجعل اسمه فوق اسمى ، سأخسف الارض بهم واهدم الدنيا على رءوسهم فالويل لهم .

(غير ان الغضب يسكت عن كسرى شيئا فشيئا ، ويعقبه خوف وضعف ، فيرفع كف الضراعة) .

كسرى — يا الهى العظيم ، ربى ، يا بارىء النسم ،

(ويقف بزرك اميد ، ويخرج العربى ، وبزرك اميد فى اثره)

المشهد الرابع

كسرى (وهو خائف وجل) ارى وجه الزمان يتجهمنى ، والدنيا تتغيم فى عينى ، رحماك يا الهى ، رفقا بايران ، وآل ساسان ، يامن رعيت اسلافى من قبل واعنتهم على كل عظيم وجليل من الاعمال ، اولنى اليوم شيئا من عنايتك وافتح على

بابا من رحمتك (ثم تثوب اليه نفسه فيقول) كلا كلا، لا ارى بعد اليوم لايران صولة ولا دولة، لقد تقوض الملك فيها، وعم الخراب كل ارجائها ونواحيها، ولا اثر لتلك الامجاد التى عرفها ابناء ساسان فى سالف الزمان. لقد قال نبى الفرس بان لادوام فى ايران لعز ولا لرخاء، وستمضى العظمة وتخضد الشوكة، وسيمر علينا الف من الاعوام ونحن نعدم كل حق وصدق. ان هذا الملك لا يؤمن عليه من هذه الشرور، فلن أضع نفسى على رأس المنحوسين المتعوسين، وإذا ما كانت العاقبة عارا وشنارا فكيف اتيح لمن جاء بعدي ان يلومنى ويثلبنى ؟! لأ قطع القلب عن هذه الدنيا، فاقبع فى ركن العزلة، واتزود من دنياى لآخرتى آه، ما اطيب ان استنقذ روحى من هـذا المعترك الصاخب وانزوى فى معبد بعيد ؟ بزرك اميد، بزرك اميد ...

(ينادى بزرك اميد فيدخل عليه)

المشهد الخامس

(كسرى و بزرك أميد)

كسرى - اقدم وشاورنى فى أمرى، وانثر على من كلامك الدرر الغوالى، فى نيتى الاعتزال، فقد رق عظمى وعلت سنى،

فليخلفنى شيرويه ولدى ، ولك أن تنظر فى خير الوطن ومايصلح به ، أنت عليم بأنى مقطوع الأمل من ولدى هذا لشكاسته وشراسته ، ياله من عاق جرعنى من جفوته غصص الأسى ، فعن أى شيء تريدنى أن احدثك ، اعن ولائه ام عن جفائه ، وعن علمه ام دينه ، آه شدما أنا متخوف على منكود الطالع هذا ، فلسوف تسوء عاقبته كما ساءت أعماله . انما مثلى ومثله كالذئب الذى لا يأمن على نفسه الشر حتى من أمه ! ان الخير لا يكون من يديه ، فأنا لا أرجو الرشد فيه ، وهل تترك النار بعدها إلا الرماد ! انه لا يأبه لغيره ، ولا يعنى إلا بنفسه ، أنا من زينت رأسى بتيجان نزعتها من رءوس الملوك الصيد ، ولكن ماجدوى ذلك ان كان لى خلف سوء . ما كل زوجة بعروب ، وما كل مولود بولد رشيد ، لا ثمرة من كل زهرة ، وحلاوة السكر لا تسرى فى كل عود . كأى من غريب عنك أشد وفاء من قرابتك ، وكم من ولد قتل الوالد . وما دام ابن الملك لا كفاية له ولا خير فيه ، ، فما كان أحرى بالعدم أن يطويه .

بزرك أميد ـ أيها الملك المستنير وصاحب الرأى والحزم والتدبير ، يامن يميز الخير من الشر ، والهدى من الغى ، ان ابنك

يرنق صفوك وينغص عيشك ، ولكن لا يجمل بوالد ان يعادى ولده ويقطع ماحقه ان يتصل من سببه ، ان شجرة التوت لا تلعن ولا يستخف الناس بشأنها إلا لأنها تلق بثمرها ، وليس كذلك شجرة الرمان التى لها من ثمارها تيجان . مادمت فاضلا عاقلا ، فان ولدك مثلك لأن العصا من العصية ، ولئن كان لشيرويه جموح الجواد ، فلسوف يجعله الزمان سلس القياد ، انها أيها الملك سكرة الشباب ، تعقبها الشيخوخة بحكمتها ورويتها .

(يهم كسرى بالقيام ويظهر شديد الأسف)

كسرى ـ صدقت يابزرك اميد لافض فوك ! إذا اشفق على الخراب ملكى فما العيب عيبى ، ومادام عزمى قد صح على أن اعتزل ، فلا منتدح عن ان يقوم شيرويه ولدى ، بالأمر من بعدى .

وزيران يهوديان

وزيران نستمد قصتهما من واقع التاريخ ، ونرويها غير متزيدين فيها ، ولاهم لنا من ذلك إلا أن نكشف عن نفسيتهما ، ونتفهم مايجول فى طويتهما ونرى كيف اتسعت لهما الحيلة وواتتهما الفرصة ، فتوصلا إلى منصب الوزارة وهو ماهو رفعة وسموا ، فى الزمن القديم على الخصوص .

ففى مصر ، وعلى عهد الدولة الاخشيدية ، ظهر من يدعى يعقوب بن كلس ، وهو يهودى من أهل بغداد ، رحل فى صحبة ابيه إلى مدينة الرملة بفلسطين ، وكان شابا فتيا له من حداثة سنه مايفعم نفسه بالآمال والأحلام ، فباشر من الأعمال مايدر عليه رزقا حسنا ، وتوسط بين من يبيع ومن يشترى ، وعلا شأنه فى مهنته بعض العلو ، فاصبح وكيل التجار ، غير انه لم يكن

ليقنع بما لديه أو ما سوف يصل اليه ، لأن مطامعه كانت تلح عليه قائلة هل من مزيد ، فيرى الشيء صغيرا ، وان كان كبيرا . وما وسعه إلا العزم على الرحيل إلى مصر بلد الخصب والخير العميم ، رجاء ان يصيب ما يصبو اليه من بسطة فى الرزق وسمو فى المنزلة .

والقى الفتى عصاه واستقر به المقام فى مصر ، ووجد السبيل إلى ان يتصل بكافور . فعرض عليـــه درايته بشؤون المال . واخبره باهبته لاداء كل ما يطلب اليه اداؤه لا تثاره واستثماره وأنس كافور منه مخايل الألمعية وآيات الحزم والفطنة ، فالحقه بخدمته ليفيد من خبرته بفنون الزراعة وما يتبعها من اصول التجارة ، وارسله إلى إرجاء البلاد ، فعرف الأحوال ووقف على الاخبار ورسم الخطة لا صلاح ما تمس الحاجة إلى اصلاحه ، وكان من فضله ان نجح الزرع وكثر المحصول ، فتحصلت الثروة وامتلأت خزانة الدولة ، وارتفعت بذلك مرتبته عند كافور . وقد اتفق ان مات رجل عريض الثراء من أهل الرملة يقال له ابن بلدى ، ولم يكن لهذا الميت من يرثه من بعده ، فكان للدولة حق وراثته ، وانتهى هذا الخبر إلى

يعقوب من احد اليهود ، فما كان باسرع من ان ذهب الى كافور وقال له ان ابن بلدى مات وخلف كنزا دفينا يحوى عشرين الف دينار . فامره كافور بالسفر توا الى الرملة ومعه من البغال ما يكفى لحمل المال والعودة به الى مصر . ومضى يعقوب لطيته ، وهناك عثر على الكنز . ولما احصى مافيه وجد ثلاثين الفا لاعشرين الفا ، فكتب بذلك الى كافور الذى اعجب الاعجاب كله بامانته ، وزادت فيه ثقته الى ابعد الآماد . ثم كافأه على ذلك بمال جزيل ، الا ان يعقوب رد منه قدرا كبيرا وتظاهر بالقناعة باليسير . وكان لزاما على كافور بعد الذى رأى من كفايته وامانته وقناعته ، ان يرفع من رتبته ، فعمل بمشورته ولم يقطع برأى دونه ، كما اجله شرفاء الدولة وعظماؤها .

ورغب كافور فى ان يتخذه وزيرا ، ولا غرو فالمال عماد الدولة ، وشؤونه متصلة الأسباب بشؤون السياسة . وروى عنه انه قال يوما اى وزير يضاهى يعقوب بن كلس ! غير ان يهوديته كانت الحائل المنيع بينه وبين الوزارة . وعرف يعقوب انه لو كان مسلما لصلح ان يكون وزيرا فاعتنق الاسلام وجعل لنفسه شيخا يعلمه القرآن والفقه والعلوم الاسلامية ، ثم دخل المسجد

فى يوم جمعة واعلن على الملأ انه من المسلمين . وانطلق الى كافور فى حشد من المهللين والمكبرين . فاستقبله بالتكرمة وخلع عليه والطفه . فثار لذلك حقد ابن الفرات الوزير وساءه اسلام يعقوب بن كلس ووصوله الى ذروة العلياء . كما حز فى نفسه ان يكون وزيرا من بعده فى يوم من الايام . فكاد له وتربص به الدوائر ، وقد مكنه الله منه لما مات كافور ، لأنه بقى وحيدا من غير نصير يحميه . فأوقع ابن الفرات القبض عليه مع جماعة من رجال الدولة وكاد يبطش به ، غير انه افتدى نفسه وولى هاربا الى بلاد المغرب .

واتصل هناك بيهود مع المعز لدين الله الفاطمى ، ودخل خدمته سنة ٣٥٧ هجرية ، وهو احد اسباب حركة المعز ، وارسال جوهر القائد الى الديار المصرية ، وقد عرف منه احوال مصر وضعف اداة الحكم فيها . واحاط علما بكل شىء من امور زراعتها وادارتها وماليتها . فافترص ذلك ورآه مغريا بالاقدام ولما دخل المعز مصر سنة ٣٦٢ هجرية كان يعقوب بن كلس معه لا يفارقه ، وجعل اليه الاشراف على الخراج خصوصا ومالية

الدولة عموما، ووجد ابن كلس مس الحاجة الى اصلاح مالى على اعظم جانب من الاهمية، فلما تم لجوهر فتح مصر، اعاد فتح دار الضرب وسك الدينار المعزى فاستلزم ذلك ان تهبط قيمة الدينار الراضى الذى كان متداولا من قبل، فسخط الناس وطالت شكواهم، غير ان ابن كلس وجد فى تثبيت قيمة الدينار المعزى كسبا كبيرا للدولة وان كان فيه غبن عظيم للرعية، وازداد من المعز اعجابا به ورضى عنه، فلم يكترث للناس ومضرتهم وزخرت خزانة الدولة بمال كثير كان المعز فى مسيس الحاجة اليه بعد ان تكبد النفقات فى فتح مصر. وحظى ابن كلس عند مولاه فاطلق يده فى شؤون الدولة، وهيمن على مرافقها، وارسى اسس الادارة المالية وسن قوانينها.

ومات المعز وخلفه العزيز، فاتخذ يعقوب ابن كلس مستشارا سياسيا وحربيا، وحدث فى عهده ان ثار عليه افتكين فى دمشق، فانفذ اليه جيشا تحت امرة جوهر، غير ان جيش مصر لم يثبت امام جيش الثائر، فتقهقرت فلوله، وابرم الصلح بين القائدين. واسخط ذلك العزيز. وشاور يعقوب ابن كلس فى الامر، فاشار عليه باعادة الكرة وتجريد حملة على افتكين. وتولى العزيز قيادة

جيشه بنفسه. ونصره الله على عدوه فعاد به اسيرا . وكان اول ماعمله يوم عودته هو اسناد الوزارة الى يعقوب بن كلس . ثم منحه لقب الوزير الاجل . فكان اول من وزر للدولة الفاطمية فى الديار المصرية .

غير ان هذا الصفاء لم يدم طويلا بين العزيز ووزيره الاجل فقد غضب عليه وامر باعتقاله وصادر ممتلكاته ونال منه عشرين الف دينار اضافها الى خزينة الدولة ثم زجه فى غيابة السجن . وكان كل هذا الشر والاذلال لسبب لم يكن فى الحسبان . فان العزيز رضى عن عدوه واسيره افتكين ، فعفا عنه وبالغ فى اكرامه حتى جعله من اصحاب المنزلة فى حاشيته ، ولم يرض ابن كلس عن هذا الصنيع من العزيز ، فدس لافتكين من سمه ، وعرف العزيز جلية الامر فكان منه ماكان ، ثم وقفت امور دولة العزيز باعتزال الوزير . فخلع عليه واعاده الى وزارته ، ورد اليه ما اغتصبه منه ، واغدق عليه نعمه كالمعتذر . ومات يعقوب بن كلس بعد ان اقام فى خدمة العزيز اثنتى عشرة سنة وكان موته سنة ٣٨٠ هجرية .

قيل ومات على اليهودية ، فانه لم يعتنق الاسلام إلا نفاقا للتوصل به الى غاية ينشدها ، والادلة على ذلك غير قليلة ،فكان

متعصباً لابناء جنسه ، واستخدم كثيرا منهم فى الشام ليأتوه بأخبار البلد . ولما احتدم النقاش مرة بين اسقف ويهودى يقال له موسى ، وانتهى الامر باهانة نالت اليهودى من صاحبه النصرانى خرج ابن كلس عن صبره ولم يستطع البقاء على تحفظه فنصر اخاه فى الدين والجنس وعزر النصرانى على مافرط منه . وجهد يعقوب ابن كلس كثيرا لستر نفاقه فكان يتحاشى التحدث عن اليهود واليهودية إلا فيما ندر . كما الف كتابا فى الفقه الاسلامى اهداه الى العزيز وهو المعروف بالرسالة الوزيرية .

واذا عدنا الى بغداد بلد يعقوب بن كلس الوزير ، وجدنا يهوديا آخر من اهلها يدعى سعد الدولة ، وكان اول امره يحترف الدلالة فى الاسواق إلا انه اشتغل بالطب فتميز وبرز . ولم يخرج على مألوف اليهود فى كل زمان ومكان ، وهو الاغرام بالمال والتفنن فى وسائل جمعه . وقد حسده اقرانه واهل بلدته على نعمته ومهارته فى مهنته . وطلبوا التخلص منه بكل حيلة ، فرغبوه فى ان يزايل بغداد الى تبريز ليكون طبيبا للسلطان ارغون المغولى . وقد اراد الله له خيرا عظيما بهذه الرحلة لم يخطر له ولا لحساده على بال ، فان السلطان قربه وانس به ، فكان إذا مرض

لم يطبه إلا سعد الدولة ، وارتاحت نفسه الى حديث منه طلى يديره بلباقة وحسن اداء . وكثيرا ما كان الحديث يسوق المحدث الى ذكر بغداد والعراق ووصف اعمال هذين الاخوين من الامراء اللذين كانا يحكمان العراق من قبل السلطان ، فحكما حكم ظلم وجمعا الخراج قسرا وقهرا ، فساءت الحال وخاب الزرع وتفشت الادواء واضطرب حبل الامن ، والحاكمان عن كل ذلك فى شغل بمال يكنزانه ، وفرس يقتنيانه ، وجارية يبذلان النفيس فى شرائها . وشرط سعد الدولة على السلطان ان يأتيه من الخراج بضعف ما كان يأتيه فى حكم الأميرين ان جعل اليه ولاية العراق. وسرعان ما آمن السلطان بكلام الطبيب ، فعزل الاخوين وجعل اليه امر العراق ، فاظهر كفاية وكياسة فى تمهيد الأمور واصلاح ما افسد سلفه . فحسنت الحال ورضى الناس ، أما السلطان فاتخذ سعد الدولة وزيرا سنة ١٢٨٩ ميلادية .

وتسلم سعد الدولة ازمة الحكم فاسند مناصب الدولة إلى اخوته وذوى قرباه من اليهود ، وما رأى ذلك يهود العراق وايران حتى ابتهجوا ، واستشعروا العزة بعد الذلة ، فما كان منهم بالأمس القريب إلا دباغ وحائك وكاتب ، واصبح اليوم منهم

من لهم منزلة الامراء والعظماء، واعتبروا سعد الدولة محررهم من ضيمهم وذلهم ورافعهم من وهدتهم، وجاءوا اليه من الآفاق، ووقفت جموعهم ببابه وقد انطلقت السنتهم جميعا بقولهم انه الرجل الذى بعثه الله ليخلصهم، ومناط الأمل فى المجد والسؤدد لبنى اسرائيل فى آخر الزمان، وكان سعد الدولة على هذه العقيدة، فتزعمه حركة اليهود لاستعادة امجادهم الغابرة جعله رئيسا سياسيا وروحيا لهم. ويروى أنه كان يوما بجوار ضريح الامام موسى بن جعفر، واراد أن يتفأل بالقرآن على عادة المسلمين فى ايران، وفتح المصحف فوقعت عينه على قوله تعالى فى سورة طه: «يابنى اسرائيل قد انجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الايمن ونزلنا عليكم المن والسلوى» ففرح واستبشر، وتصدق بمائة دينار. وقد قال أحد شعراء بغداد متهكما فيما آل اليه امر اليهود على عهد سعد الدولة:

يهود هذا الزمان قد بلغوا ... مرتبة لا ينالها فلك
الملك فيهم والمال عندهم ... ومنهم المستشار والملك
يامعشر الناس انى قدنصحت لكم ... تهودوا قد تهود الفلك
فانتظروا صيحة العذاب لهم ... فعن قليل تراهم هلكوا

وكان سعد الدولة شديد العداوة للاسلام والمسلمين ، فاغرى السلطان ارغون بابعاد المسلمين عن المناصب . والسلطان ارغون وهو المغولى الوثنى معروف فى التاريخ بكراهته للمسلمين فقد سبق له ان فاوض البابا وملوك اوربا فى تجهيز حملة صليبية من الأوربيين والمغول لطرد المسلمين من بيت المقدس وعاهدهم على اعتناق النصرانية ان وفقوا فى ذلك . كما اقترح سعد الدولة على السلطان ان يهيء اسطولا فى بغداد ليهاجم به الكعبة ويجعلها هيكلا وثنيا . ونوى قتل عدد جم من علماء المسلمين بعد ان عرف سخطهم عليه .

ولما مرض ارغون مرضه الذى مات فيه جزع سعد الدولة جزعا شديدا لأنه كان موقنا بأن نهايته مرتبطة بنهاية مولاه ، لم يكن ذا امل فى الحياة بعده امام بطش اعدائه وهم كثر . وقد نسبوا مرض السلطان إلى سم دس له بايعاز من سعد الدولة . فقتلوه سنة ١٢٩١ ميلادية ، ولم يعلم السلطان بخبر مقتله ، ومات بعده بأيام .

واظهر المسلمون الشماتة بموت الوزير . وارادوا شفاء غيظهم من اليهود فاعملوا السيف فيهم ، وفى ذلك يقول الشاعر .

نحمد من دار باسمه الفلك هذى اليهود القرود قد هلكوا
وقارن النحس سعد دولتهم وافتضحوا فى البلاد وانهتكوا
وشتت الله شمل ملكهم وبالحسام الصقيل قد سبكوا
كم حكموا فى البلاد لاحكموا وارتكبوا الموبقات وانتهكوا
ابكاهم الله عاجلا اسفا من بعدما فى زمانهم ضحكوا
سقاهم الحتف سادة خشن فامتلأت بالجماجم السكك
يا اخبث الطير يا بغاث لقد صادكم فى الخميلة الشبك
هجوتهم ابتغى بهجوهم جنان خلد يزينها البرك
رغما لمن قال فى قصيدته تهودوا قد تهود الفلك

جعفر خان يعود من الغرب

تمثيلية هزلية للكاتب الايرانى على نوروز المتوفى سنة ١٩٢٦ ، كان عرضها للمرة الأولى بطهران سنة ١٩٢٢ فى حفلة اقامتها جماعة ايران الفتية ، تلك الجماعة التى عقد اعضاؤها نفوسهم على ان يرتقوا ببلادهم إلى ماهو ارفع ، ويقبسوها من حضارة الغرب علما وفنا ، والتمثيلية تصور الحياة الايرانية اوضح تصوير غير ان المؤلف ينزع إلى المبالغة فى وصف تأخر الشرق وتقدم الغرب وان حمل ذلك منه على توضيح الحقائق وشرح المبادىء ، وايا ما كان . فالمبالغة لا تفهم إلا على أنها مبالغة ، وهذا ما قد يستملح فى فن الأدب .

المشهد الأول : المكان دار جعفر خان بطهران والزمان عام ١٩٢٢ .

(نحن فى حجرة بدار قوم مستورى الحال ، جدرانها العارية مطلية بالجص ، والبسط الايرانية مبسوطة على أرضها . على يمنة الداخل باب يفضى إلى حجرة لحفظ المتاع ، وعلى اليسرة باب ينفتح على دهليز ، وفى احد الاركان منضدة صغيرة وكرسى ، ويظهر على تلك المنضدة وعاء للحلوى وآخر مفعم بالحمص والزبيب إلى جانب سكين وشوكة ، وفى ناحية أخرى منضدة صغيرة تحمل اناء للشاى وقميصا وجريدة وتقويما . أما وسط الحجرة ففيه وسادة كبيرة . وتشاهد سيدة ذات سن حافية القدم فى ثياب ايرانية كان النساء يلبسنها قديما وهى ستزة وسراويل وخمار للصلاة ، وقد جلست إلى جانبها فتاة تدعى زينت بادية فى ثياب العصر الحديث المتميزة بالبساطة والقصر ، والفتاة تتزين وتتطرى ناظرة فى مرآة بيدها ، فتخط حاجبها وترسم لهما شاربا دقيقا جريا على عادة الايرانيات المتجملات .)

الام - (وهى تدخن نارجيلتها) صلى احد حاجبيك بالآخر لتكونى مقرونة الحاجبين ، اليوم يوم عودة جعفر الأعز الأكرم ، فلزام عليك أن تظهرى بطلعتك البهية حتى يقتنع بأن بناتنا لا يعوزهن شىء لبنات الغرب

زينت (وهى تخط حاجبها) خبرينى ياخاله ، منذ كم رحل جعفر خان الى بلاد الغرب

الام ـ منذ سبع أو ثمانى سنوات . لقد كان صغيرا يوم ارتحل عنا . اما الآن فلا بد ان يكون قد بلغ مبلغ الرجال حفظه الله (متأوهة) ولكن اى جدوى فى ذلك ، لاشك انه اصبح رقيق الدين فاسد العقيدة ، الا قاتل الله اباه الذى انتزعه من بين يدينا ليكون فى صحبته عند الغربيين .

زينت ـ اصدقينى بالله ياخاله : أصحيح مايقال من ان اهل هذه البلاد يقتاتون بلحم القرد والدب وما اشبه ! ؟

الام ـ هذا حق لاريب فيه ، هؤلاء الملاعين يأكلون من كل شيء ، ويحتسون من الخمور صنوفا جعلها الله فى حلوقهم لعاب الافاعى ! لقد قالت لى زوجة افتخار دفتر التى قدمت من الغرب مع زوجها بأن لأهل هذه البلاد شرابا يتخذونه من جلود الرهبان بعد موتهم .

زينت ـ نسأل الله السلامة ونضرع اليه ان يحفظنا . لقد مر بسمعى انهم يعصرون الكونياك من النعال البالية والجوارب المنتنة ، اهلكهم الله واذهب ريحهم !

الام ـ نعم اليس كذلك ؟ ليس هؤلاء القوم على ملتنا ليتخذوا لهم من الزبيب والعنب شرابا كالناس جميعا

زينت ـ (مظهرة وجهها) أيروقك وجهى الآن ياخاله ؟

الام ـ جميل جميل كبدر التم ، وان كان يحسن ان تكتحلى اما إذا لم يتيم حسنك هذا ولدى فياله من حمار ! (ثم تنادى قائلة يامشهدى اكبر)

المشهد الثانى (الام ـ زينت ـ مشهدى اكبر)

(يدخل مشهدى اكبر ، على رأسه قلنسوة من لبد وفى وسطه منطقة ، اما جوربه فمن صوف مختلف الالوان)

مشهدى اكبر ـ لبيك ياسيدتى

الام ـ دونك هذه النارجيلة ، قف بباب الدار ، ولتخبرنا بمقدم جعفر خان حالما تشعر به .

مشهدى اكبر ـ الحمد لله حق حمده ياسيدتى ، لقد تراخت بنا الأيام لترى عيننا جعفر خان . والله لهو عندى آثر من ولدى كما قد تعلمين ياسيدتى ، منذا يظن انى لم اكن له الا مؤدبا ! لقد عدوت اليوم سبع مرات نحو باب الدار ظنا منى بأن الطارق جعفر خان ثم عرفت بعد ذلك انى كنت من

الواهمين . فان الطارق الأول لم يكن سوى القصاب ، و تلته امرأة هي زوجة على الغاسل ، وثالثة الاثافي بائع من يهود .

وهممت بتقبيل اليهودى على انه سيدى ! ولا غرو فإن لنا عيناغاض بصرها ، فلم تعد تبصر كما كانت من قبل تبصر (يمسح عينيه) .

زينت — مايبكيك يا مشهدى اكبر ؟ وهبك قبلت اليهودى هل فى ذلك من بأس ؟ (تتقطع ضحكا وتسعل)

الام — دقى ظهرك بقبضة يدك ينقطع هذا السعال (تدق ظهر زينت)

مشهدى اكبر — خيرا ياسيدتى ، السعال بشير الهدية ، مد الله فى عمر سيدنا ، لا احسبه الا حاملا الى منظارا او عينين صناعيتين فى جملة مايحمل من هدايا .

زينت — ويحك يامشهدى اكبر ماذا تقول ؟ اى عيون هذه العيون الصناعية ! أيمكن ان تكون العين صناعية (تضحك)

مشهدى اكبر — والله ياسيدتى انها شىء عظيم ، لقد قرأت فى جريدة من الجرائد ، ان الالمان توصلوا اخيرا إلى اختراع عيون احد بصرا من عيوننا . لأحمل الآن نارجيلة سيدتى)يحمل النارجيلة)

الأم — هل هيأت الكبش يامشهدى اكبر ؟

مشهدى اكبر — نعم ياسيدتى ، لقد دفعت الشفرة إلى القصاب لسنها ، وسيحضر بها فى التو والساعة (يخرج)

الأم — وعمك يازينت ، الا يزورنا فى يومنا هذا ؟

زينت — بلى ، سيحضر غير انه توجه الى المسجد لشراء شيء لمشهدى اكبر . اين وضعت مسحوق الوجه الابيض ؟

الأم — هنالك فى حجرة الامتعة

زينت — اذن اذهب لاصلاح هيئتى ثم اعود (تخرج)

المشهد الثالث (الام بمفردها ثم مشهدى اكبر)

الام (تنهض) — لابد من تنظيم هذه الحجرة وتنسيقها حتى تقع من ولدى موقع القبول . لقد هيأت له مقعده ، وخطت له قميصا يلبسه فى نومه (تطوى القميص وتضعه على المنضدة) ونضدت له فراشا فى الغرفة المجاورة . هو اليوم على عادات الغربيين فحاجته تمس الى هذا . (يدق الباب)

(تنادى) مشهدى اكبر يامشهدى اكبر ، يالله قد اتانا جعفر !

مشهدى اكبر — ناديتنى ياسيدتى ؟

الأم — الباب يطرق ، اذهب وعجل بفتحه ، انه جعفر العزيز

مشهدى اكبر — تقولين ان الباب يطرق ياسيدتى ؟!!
ماسمعت، ولم يتبق للعين بصر، ولكنى ذاهب فورا (يخرج)

الأم — اللهم قدر لى ان ازوج ولدى، وارى حوله من الاطفال سبعة او ثمانية يهللون ويعدون ويبكون ويفسدون اثاث هذه الدار، ولتلحقنى بعد ذلك ياربى برحمتك. ليس لى فى الدنيا امنية غيرها، وزينت ستعيننى وتشد ازرى فى القيام على خدمة الدار وستكون الى جانبى فى الحياكة وترقيع الثياب وكيها وطهو الطعام وقراءة القرآن، وهى تمت اليه بالقرابة اليست ابنة خاله، فزواج مثله من مثلها قضاء مقدر وأمر مقضى. لقد عرضت الأمر على اخى فارتضاه. سنزفها إلى جعفر وسيقيمان معنا فى دارنا، فنراهما من حولنا.

المشهد الرابع (الام - مشهدى اكبر)

الأم — اين هو، ماباله لايدخل!

مشهدى اكبر - (فى يده رقعة للزيارة) سيدتى بشراك ياسيدتى، ان لى عندك حسن الجزاء! انه هو، هو جعفر نفسه امام الباب، احمدك اللهم الحمد الذى انت اهله.

مشهدى اكبر — ياسبحان الله لست ادرى، لقد فتحت

الباب فرأيت امامى شابا وسيما سمهرى القوام ، عرفت فيه جعفر خان ، وقلت ها انت ذا ياسيدى الأعز ، وقام فى نفسى ان اعانقه واغمره لثما غير انه دفعنى عنه قائلا ، دعنى لا يصبنى رشاش من بصاقك ، انت تحمل الجراثيم

الأم - حسنا ، ولكن هلا اخبرتنى عما حال بينه وبين الدخول ؟

مشهدى اكبر - لقد دعوته فما اكترث لدعوتى ، وقال لى ، دونك رقعتى فاحملها إلى سيدتك ريثما انقل من العربة حقائبى ، ثم سأل ان كنت فى الدارام خارجها .

الأم - (تأخذ الرقعة) ما هذا ، ما انا بقارئة (وتدفع الرقعة إلى مشهدى اكبر)

مشهدى اكبر - هذه كتابة أهل الغرب ولا علم لى بها ، غير انى اذكر انه قال عنها انها رقعة الزيارة .

الأم - مهما يكن من امر ، عليك ان تدعوه إلى الدخول

مشهدى اكبر - سمعا وطاعة ياسيدتى ، أنا ذاهب اليه (يخرج)

الأم - (بمفردها) ولدى الحبيب . . لابد ان يكون قد لقى

من سفره هذا نصبا . لقد هيأت له النقل والحلوى والسكين والشوكة فليشبع جوعته . والظمأ لا اخاله إلا قد اجهده ، فلأذهب واحضر له خسايبل به حلقه (تخرج)

الشهد الخامس (مشهدى اكبر - جعفر خان - كاروت)

(يبدو جعفر خان فى حلته الأوربية الرمادية اللون وعليها معطف ، وفى يده قفاز ، يمناه تحمل حقيبة ، ويسراه تقبض على سلسلة يقود بها كلبه ، ومن ورائه مشهدى أكبر وهو يحمل حقيبه ومظلة وعصيا يضعها على الأرض . يتكلم جعفر خان الفارسية وفى لسانه لكنة ظاهرة)

جعفر خان - (يضع الحقيبة على المنضدة) اف اف ! لقد وصلت اخيرا . كانت طريقا طويلة وسفرة مرمضة فغصصنا بغبار حشوه الجراثيم (ينفض الغبار عن حذائه وقلنسوته ، ثم يخلع القلنسوة ليضعها على المنضدة ، ويلتفت إلى كلبه ناظرا إلى الساعة فى رسغه) - ياكاروت ، لقد غادرنا مدينة (ينجه امام) فى السابعة والربع صباحا ، فكأننا قطعنا الطريق فى ثمانى ساعات وثلاث وعشرين دقيقة على التحديد .

مشهدى أكبر - والآن ياسيدى الاعز ، آمل ان يكون

العيش قد هنأك فى تلك الديار ، لقد غبت بضعة اعوام .

جعفر خان - نعم ، وفى ذلك الكفاية ، وانت يامشهدى اكبر ، كيف حالك ، مازلت حيا ، لم تمت !

مشهدى اكبر - ذلك من سماحتكم وحسن رعايتكم ياسيدى ، لقد حفظ الله علينا نعمة العافية فبقيت فينا بقية . حمدا لله لقد قدم سيدنا من بلاد الغرب ، وهو الآن بسبيل ان يحيا حياة جديدة ويتخذ له زوجة يسكن اليها .

جعفر خان - انا ؟ ما اصبت شاكلة الصواب يامشهدى اكبر ، الرجل لا يتخذ الزوجة لنفسه (يلتفت إلى الكلب) أليس كذلك ياكاروت ؟ (يقول لمشهدى اكبر) اعطنى هذه الحقيبة

مشهدى اكبر .. كيف ذلك ياسيدى !

جعفر خان - هذه الحقيبة .

مشهدى اكبر - حسنا ياسيدى .

جعفر خان - (يتناول الحقيبة من يد مشهدى اكبر ، ثم يفتحها مخرجا منها فرجون الملابس وكتابا فرنسيا ونضاحة عطر ومشطا ، ويضع هذه الأشياء المختلفة على المنضدة) والسيدة اين هى ؟

مشهدى أكبر ـ ستحضر فورا ياسيدى

جعفر خان ـ (يسلم مشهدى اكبر سلسلة الكلب) امسك بهذا لحظة يامشهدى اكبر .

مشهدى اكبر ـ ولـكنه نجس ياسيدى

جعفر خان ـ كاروت نجس ؟! انه انظف منك الف مرة .. انى انظفه بالصابون فى كل صباح ، اذهب يا كاروت . (يقبض مشهدى اكبر على طرف السلسلة غير انه يباعد بينه وبين الكلب)

مشهدى اكبر ـ (متمتما متغيظا) انه عمل لنا جديد ! لقد اصبحنا حراسا للكلاب بعد ان سلخنا من العمر ثمانين عاما وكنا المسلمين المؤمنين .

جعفر خان ـ الجو هنا خانق يزهق الارواح (يضغط على نضاحة العطر) الهواء محمل بالجراثيم . ولا شك .

مشهدى اكبر ـ ولـكن اصدقنى ياسيدى ، الم تجد هدية تحملها الينا من بلاد الغرب افضل من هـذا الكلب . انه كلب اوربى قذر ، وكان اولى بك ثم اولى بك ان تتحفنا بمنظار .

جعفر خان ـ بمنظار ، ولماذا ؟

مشهدى اكبر ـ لقد علت سننا ، فكل بصرنا وقل سمعنا

جعفر خان ـ كم لك من العمر ؟

مشهدى اكبر ـ لما عاد والدك ـ يرحمه الله ـ من اوربامع الشاه ناصر الدين ، لم تكن ولدت بعد ، واذكر ان السيدة الوالدة قد سقطت ثنيتاها (يعد) عشرون عاما هنا وخمسة وعشرون عاما هناك .. ستة وخمسون عاما .. وسبعة عشر عاما. وبذلك يكون لى من العمر ثمانون او خمس وثمانون سنة ياسيدى على التقريب .

جعفر خان ـ خمسة وثمانون عاما ـ انها لعادات قبيحة تتأذى بها الصحة ، فالأقلاع عنها من الضرورة .

مشهدى اكبر ـ عادات قبيحة ؟

جعفر خان ـ وهل فى ذلك من شك ، من يحيا حياة عادية ، يمت بعد ستين عاما ، هذا اضرار بالصحة (يتقدم فى المسرح ويقول لنفسه) لندخل الحمام ونغتسل ففى الساعة السابعة وعشر دقائق لابد من الخروج لمقابلة مدام هلفا بازوف . لقد عرفت هذه السيدة القوقازية فى الطريق وكنت رفيقها فى السفر ، منذ زايلنا مدينة باكو ، لقد وعدتها بالزيارة لتقدمنى إلى زوجها الذى قد ينفعنى فى قابل الايام ، انه يتجر فى السيارات .

المشهد السادس (الام - مشهدى اكبر - جعفر خان - كاروت)

الأم - (فى يدها حزمة من خس) - يالله يا لله ! (تقبله) جعلنى الله فداء وجه لك كالقمر (تبكى فرحا)

جعفر خان - ولكن مايبكيك !؟

الام - آه لو تعلم ماصنع فراقك بى ، و لقد رقبت عودتك فطالت رقبتى ، دعنى اقبلك ، ها انت ذا بعد ثمانى سنوات بتمامها، حمدا لربى (تبكى)

مشهدى اكبر - لم البكاء يا سيدتى ، لقد عاد سيدنا ، وهو فى عافية لا بأس عليه .

الام - نعم ، كلا ، تقول حقا وصدقا ، لقد انتهى الأمر (تكفكف دمعها) كم شمعة اوقدت من اجلك وكم فاضت يدى بالعطاء على اولياء الله ، لتعود إلى سالما غانما .

جعفر خان - اوقدت الشموع ؟ ولماذا !

الام - لتعجل فى ايابك ايها العزيز .

جعفر خان — آه ...

الام — خبرنى الم تنل منك وعثاء السفر؟ الم تصب بوعكة ؟

جعفر خان — لم يكن السفر مضنيا ، وإن كان كاروت قد

سبب لنا ما كرهناه وضقنا به .

الام — كاروت ، وما كاروت ؟

جعفر خان ـ اجادة انت فيما تقولين ؟ الم اقدمه اليك بعد (يشير إلى الكلب) هو السيد كاروت . ابسط ذراعك إلى السيدة يا كاروت ابسط ذراعك . انه لا يحذق الفارسية !

الام — (تبتعد عن الكلب) ولكنه نجس ، بالله ما هذا الذى جئتنا به !

مشهدى اكبر ـ ياسبحان الله .

الام ـ مهما يكن من امر ، حدثنا قليلا عن تلك البلاد واهلها عليهم لعنة الله . لقد حرمونى من ولدى هذه الحقبة الطويلة من الزمان (تتأوه) حمدا لربى الذى احيانى حتى ارانى ولدى ، ما كان اطول تلك الصلوات التى اقمناها من اجلك انت وزينت ، وكم مرة طفنا حول اضرحة الأولياء .

جعفر خان — زينت ، ومن زينت ؟

الام — ويحك اما تعرفها ! ابنة رقية هانم التى كانت تغذوك إذا ما تغيبت للذهاب إلى الحمام ، او زيارة قبر الامام ، لعلك نسيت .

جعفر خان — زينت ، الآن ذكرت ما قد كنت له ناسيا .

الام — في عهد الطفولة كنت تلاعبها وكانت تلاعبك .

مشهدى اكبر — كان جعفر خان يعابثها ويسميها (زين) أى البرذعة ، فكانت تمتطى ظهره قائلة : ان كنت انا زين ، فمن تكون ياجعفر ؟...

جعفر خان — كانت صغيرة يوم رحلت إلى اوربا .

مشهدى اكبر — والآن ، لقد ربا عودها ، واكتمل حسنها حفظها الله ، فأصبحت آنسة عاقلة مهذبة احسن التهذيب ، وستشاهدها هنا بعد هنيهة .

الام — نعم يابنى ، إذا دخلت عليك فلتكن لها ملاطفا مجاملا ، لقد طلبت لك يدها .

جعفر خان — شكرا لك ، امهليني برهة حتى القى عصاى وتستقر بي النوى . ولى بعد ذلك ان افكر فى اسرة لى اكونها . بالله اى معنى لهذا ؟

الام — مامعنى اننا جميعا نتزوج ، اليس ذلك كى تنجب الزوجة ذرية صالحة ، وترعى شئون الدار ، وتتزين لبعلها ؟

مشهدى اكبر (لنفسه) لنسأل السيدعن تلك العيون ونصيب خبرها من الصحة (بصوت مرتفع) يقولون ان اهل اوربا

يصنعون العيون ، أصحيح مايقولون ؟

جعفرخان ـ واى عجب فى هذا ، إذاماذكرنا انهم يصنعون انوفا وآذانا و... وكل مالك رغبة فى صنعه .

مشهدى اكبر ـ قاتلهم الله ، لقد اعيوا الشيطان خبثا وفاقوه حذقا ، لم يبق إلا ان يخلقوا إنسانا آليا .

جعفرخان ـ اكبر الظن انهم موفقون إلى خلق هذا الانسان الآلى بعد خمسة أعوام او ستة .

الام ـ ماذا تقول ! استغفر الله ، يخلقون انسانا آليا !

جعفرخان ـ هذا مالاريب فيه ، ان عالما امريكيا يتوفر على هذا العمل ، وقد تناقلت الصحف اخباره فى اوربا وامريكا ، كما رآه الناس على الستار الفضى . وقد اعانته الحكومة الامريكية بأربعة ملايين من الدولارات ، للانفاق على تجاربه العلمية .

مشهدى اكبر ـ ويحهم ! قاتل الله اباهم ! انا ذاهب لترتيب حقائب السيد وتنضيدها .

جعفرخان ـ جئنى كذلك بادوات الزينة ، فسأدخل الحمام .

مشهدى اكبر ـ اى ادوات ياسيدى ؟

جعفر خان - ادوات الحمام .

مشهدی اکبر - حسنا ، وهل لديك امر آخر !

جعفر خان - وهيء حجرة لكاروت ، وفراشه عندك فى الحقيبة الكبرى ، ومن حقه عليك ان تعامله بالحسنى ، وترعاه اكرم الرعاية ، فكاروت كلب مؤدب مدرب شديد الوفاء ينحدر من اصل انجليزى .

مشهدی اکبر - (لنفسه) ان اكرم كلبا وارعاه ، هذا مالا عهد لنا به . (بصوت مرتفع) ولكنه ياسيدى لا يعرف لغتنا ، ولا علم لى بالفرنسية فكيف اخاطبه !

جعفر خان - خاطبه بالفارسية ، فان ذكاءه لشديد وفهمه لقريب وإذا ماشئت ان تترجم اسمه ، فاعلم ان كاروت فى الفرنسية بمعنى جزر .

مشهدی اکبر - جزر ، (يلتفت إلى الكلب) ياجزر ، هيا بنا ياسيد جزر (يخرج مع الكلب)

المشهد السابع (الام - زينت جعفر خان)

زينت (تدخل وهى سافر) انظرى ياخالة إلى هذا المسحوق (تفاجئها رؤية جعفر خان فتصرخ وتخرج هاربة)

جعفر خان (لنفسه) لا بأس بها لولا شاربها !

زينت (تدخل وعلى وجهها نقاب رقيق يستر اسفله) اسعد الله صباحك .

جعفر خان - اسعد الله صباحك يا آنسه ، كيف حالك .

زينت - حالى كما تشاء مرحمتكم ان تكون .

جعفر خان - وكيف حال مرتضى خان ، ألم يحضر معك !

الام - لقد تخلف فى ضاحية (تاجريش)

زينت - كان بوده أن يحضر ليحييك ،غير ان وعكة احتجزته

جعفر خان - اذن اسعى اليه لاعوده فى يوم الجمعة .

الام - اذهب يابنى الحبيب .

جعفر خان - كنا نتحدث عنك فيطول حديثنا .

زينت - ان مثلك لا يتحدث عن مثلنا ، لقد شاهدت فى اوربا من الملاح ماجعلك تسلونا وتنسانا ، فأين حسننا من حسنهن ؟ ولن نكون فى رأيك من بنات حواء بالاضافة اليهن .

جعفر خان - هذا مالادوام له ، ستصبحن كذلك شيئا مذكورا ، والعجب لك يا آنسة انك لم تتزوجى بعد .

زينت - لم يجر بذلك قضاء الله

الام - ان قلوب العشاق لتهفو الى محاسن لهاوفضائل تتحلى بها ، وقد طلب يدها مائة منهم وعمها هو الذى امتنع من تزويجها فهى عارفة بكل مايروق الزوج ويسعده، وحاجياتخطه ، والحلوى تصنعها ، كما ترجم بالغيب ، ولها بالسحر دراية .

جعفر خان (فى نفسه) تلك هى الصفات التى تنفعنى ! (بصوت مسموع) - حسنا وماذا تحسنين غير ذلك ؟ أتعزفين على البيانو اتجيدين الرسم والتلوين ، اتلعبين التنس ؟

زينت - حاشا لى ان اصنع ذلك ، اراقصة انا ام ممثلة تطوف بالشوارع .

جعفر خان - نحن الباريسيين نظن ذلك . .

الام - وامصيبتاه ! فتى من طهران يقول نحن الباريسيين !

المشهد الثامن (الام - زينت - جعفر خان - مشهدى اكبر)

مشهدى اكبر - لقد احضرت الكبش ياسيدتى امتثالا لامرك وهو فى المطبخ ، وانتظرتك لرغبتك فى ان تقصبيه بنفسك ، وهاهو ذا جارنا على الغاسل ، قد اشخص زوجته لتنال نصيبها من اللحم .

الام - حسنا حسنا ، ستنال نصيبها . تعالى يازينت واعينينا

مشهدی اکبر ـ لقد وعدتنی یاسیدتی بالرأس والاكارع والكرش فلاتنسى البر بالوعد .

الام ـ حسنا حسنا یامشهدی اکبر ستنال ماوعدت به .

زینت ـ (توجه القول بدلال الى جعفر خان) لتكن قراءة هذه الجريدة مسلاتك حتى نعود اليك . (تقدم اليه جريدة كانت على المنضدة)

جعفر خان .. شكرا يا آنسه (الجميع يخرجون ماعدا جعفر خان)

المشهد التاسع (جعفر خان بمفرده)

جعفر خان . لا بأس بزينت لو لا هذا الشارب (يقعد على الكرسى ويقرأ الجريدة) فيجد ما يأتى : ـــ

حفلة تمثيلية تقام لاعانة الجريدة الوحيدة فى بابها (جهنم) هلموا لا تندموا ، فى ليلة الجمعـــة ٢٩ ربيع الثانى ، المسيو شاكال الفنان الطائر الصيت بالمسرح الامبراطورى فى فلاديفستوك مع صاحبته فى بهو الجراند اوتيل سيعرضان رقصات أدبية واجتماعية على الطريقة الاوربية الحديثة . هلموا لاتندموا .)

لا بأس ، هاهى ذى الحياة تدب فى طهران ، ثم يقرأ (انباء

داخلية على جانب من الاهمية . لقد شرف امس دولة رئيس الوزراء المحكمة وشرب كوبا من الماء القراح ، وكان الوزراء جميعا فى حضرته وقد استمرت الجلسة إلى ماقبل الغروب) ويقلب الصحيفة (وصل الى العاصمة السيد مفتخر الذى يعتبر من شباب البلاد الخيرين العاملين بعد ان قضى ثلاثين عاما بالجامعات الاوربية فى دراسة الفلسفة والعلوم والرياضة البدنية وفن النحت ونظرا لكل مابذل من جهد فى تحصيل هذه العلوم ، رأت الحكومة تعيينه فى ادارة الرى وسيتولى قريبا مهام منصبه) من هذا الذى يقول ان المثقفين لاتقدر ثقافتهم حق قدرها فى ايران ، يالها جريدة قيمة تأتى بأحسن الاخبار وتعرض احكم الافكار، لنقرأ هذا العنوان (يقرأ فى الصحيفة الاولى) (العاصفة .. جريدة سياسية ادبية علمية اسبوعية اخلاقية اجتماعية مصورة ، فلسفية عملية وطنية اقتصادية .. مقر الجريدة .. شروط الاشتراك وما يجرى هذا المجرى) (يقوم) لابأس والله ، الاحوال تنتظم والامور تتسق فى ايران شيئا فشيئا (يقترب من صحن النقل) ماذا اعدوا لنا ياترى . حمص وزبيب ! لم انعم بأكلها منذ زمن بعيد (يقعد) ولكن كيف يؤكل هذا ؟ لا وجود للمنشفة .

(يأكل بالشوكة) .

المشهد العاشر (جعفر خان — الخال)

الخال (لنفسه) كيف هذا ! ، يأكل الحمص والزبيب بالشوكة (ينادى) جعفر خان ياجعفر خان .

جعفر خان — خالى . (يقف ويمد إليه يده مصافحا) .

الخال — (يدفع يد جعفر خان) ما هذا ! لست ممن يصافحون باليد (يقبل وجنتى ابن اخته) مرحبا بك مرحبا حدثنا ماذا صنعت فى بلاد الغرب .

جعفر خان — كنت فيها هانىء العيش ناعم البال مرضى الحال ، مع شدة الأسف على بعدكم عنى .

الخال — لا ، لا تأسف على بعدى عن تلك البـــلاد ، ورجائى ألا تتمنى لى أن أكون فيها . كيف رأيت طهران ؟

جعفر خان — وجدت فيها بعض التغير .

الخال — كيف ؟ ماذا وجدت .

جعفر خان — فيها أحوال تبدلت ، وأمور تحسنت ، فالقوم يستصبحون بالكهرباء ويرشون شوارعهم .

الخال — ثم ماذا ؟

جعفر خان — يلوح لى ان جبال البرز قد عظم ارتفاعها .

الخال ــ كلا يا سيدى كلا . الاستصباح بالكهرباء ورش الشوارع لتجميل المدينة ! انهم بذلك يفسدون طهران افسادا لا صلاح بعــده أبدا . بالله أى حاجة بنا إلى نور الكهرباء ورصف الشوارع ؟ تأمل لقد قبضوا على المتسولين المساكين وأخرجوهم من المدينة ، وصنعوا بالمجانين ما صنعوا بالمتسولين ليقال عنهم انهم شيدوا ملجأ للمعوزين والزمنى ، وينسب إليهم فضل انشاء بيمارستان لمن ذهبت عقولهم .

جعفر خان ــ تلك مؤسسات ما أعظم نفعها ، وبمثلها تمضى البلاد قدما نحو الحضارة والتقدم . ان بلاد أوربا لاتخلو من البيمارستانات ، والملاجىء للايتام والعجزة .

الخال ــ على رسلك يابنى مادمت تخاطبنى على قدر عقلى وباللغة التى أفهمها .

جعفر خان ــ أريد لأقول انه لزام علينا أن نحذو حذو الأوربيين مادمنا ننشد التقدم .

الخال ــ كلا ياسيــدى كلا ، هل كان لهؤلاء الغربيين وجود على عهد سليمان بن داود ؟

وهل ظهرت الجامعات وملاجىء العجزة ومعاهد باستور فى

ذلك الزمان ؟ ومع ذلك كان الناس بخير . ان ملاجىء العجزة هى علة عجزنا اليوم . اسمع أيها العزيز ، ان تقليد الغربيين تقليد القرد لن يجدينا نفعا .

جعفر خان — (لنفسه) ان مائى وماء خالى لا يجريان فى نهر واحد كما قال الحوذى يوما فى طريقه ، فلا طائل من ذلك النقاش .

الخال — لقد دخلت الحجرة بنعليك ! اخلعهما .

جعفر خان — أخلع نعلى ؟!

الخال — نعم لا بد من ذلك .

جعفر خان — ولكن للصحة ....

الخال — ليس للصحة فى ذلك من دخل وإلا فما هو ؟! أنت تنجس الحجرة كلها ، والبساط الذى عليه تصلى .

جعفر خان — إذا خلعت نعلى اتسخت قدماى .

الخال — كلا ، اخلعهما اخلعهما .

جعفر خان — (لنفسه) ان كانوا سيبدأون فى مضايقتى من الآن ، فلن يكون دوام لهذه الحال (بعد تردد) لنصبر قليلا ولنظهر بعض الطاعة فى البداية ، وبعدها يمكننا أن نملى

إرادتنا فى يسر وسهولة (يخلع نعليه)

الخال — اسمع الآن ، بعد أن عدت إلى وطنك سالما غانما فقد حققت أن تجارى قومك فى كل مالهم من عادات ، لابد لك من أن تأكل بأصابعك وتطهر فاك بعد الشرب وتنام على الأرض و ... وقلنسوتك .

جعفر خان — لقد خلعتها لتهوية رأسى ، انها مسألة صحية .

الخال — ما هذه الصحة التى تترنم بذكرها ، يا هذا ضع قلنسوتك على رأسك . أنت ايرانى فلا تتكلم بهذا الكلام (يهم بوضع القلنسوة على رأس جعفر خان) .

جعفر خان — قال الطبيب ان لبسها على الدوام يورث الصلع .

الخال — ماذا !؟

جعفر خان — سيتساقط شعر رأسى .

الخال — ان طبيبك هذا أوقح من ذئب . وما يدريه هو . عليك أن تنتصح بنصيحتى أنا . إذا لم تلبس قلنسوتك فى ايران فستجد من يضعها لك على رأسك (يضع القلنسوة على رأس

جعفر خان) نحن الايرانيين علينا أن نتعلق بقلنسوتنا أشد التعلق ، فانها آخر ما تبقى لنا .

جعفر خان — (يخلع معطفه ويقول فى نفسه لقد بدأ يثير اعصابى) .

الخال — القلنسوة رايتنا ، هى العلم ، هى التاريخ ، هى الوطن (يلحظ رباط عنقه ومنديله المطل من جيبه) وما هذا أيضا وذاك . أنت فاسد الهندام (يقول له ناصحا) اخلع كل هذا واطرحه .

جعفر خان — (وهو مستاء) ولكن ياسيدى هذا رباط للعنق وهذا منديل ، تلك امارات المدنية فكيف اطرحها !

المشهد الحادى عشر (الخال — مشهدى أكبر — جعفر خان — كاروت)

مشهدى أكبر (فى يده سلسلة الكلب) سيدى ان هذا الكلب آخذ فى مضايقتنا ، لقد دخل المطبخ ووجد كرش الذبيحة فاعمل فيه أسنانه ولسانه .

جعفر خان — هذا لا يقبله العقل يا مشهدى أكبر ، كاروت كلب مدرب لا يأكل الكرش .

الخال ــ بسم الله الرحمن الرحيم ، ما هذا ؟ وأين وجدت هذا الكلب .

مشهدى اكبر ــ بالله ما ذا عسيت أن أقول ، جزر ملك سيدى وقد جاء به من بلاد الغرب .

الخال ـ (لجعفر خان) اهو تحفة نادرة ؟! (لمشهدى اكبر) اطلقه فى الطريق ، سينجس كل شىء هنا .

جعفر خان ــ كيف يطلق كاروت فى الطريق انه تذكار من مدام هلفا بازوف . لقد أنفقت عليه كثيرا منذ صحبته من باكو إلى هنا ، فدفعت له رسم الجمرك وثمن تذكرة الباخرة وأجر العربة والآن تقولون عنه انه نجس !

الخال ــ لا إله إلا الله ، لقد أصبت بالجنون حقا من أوربا (لمشهدى أكبر) احمل الكلب احمل الكلب (مشهدى أكبر يتهيأ للخروج) .

جعفر خان ــ أنا أعترض (يعدو خلف مشهدى أكبر ويلحق به) لا تطعه يا مشهدى أكبر ولا تذهب لاطلاقه .

(مشهدى أكبر يخرج بالكلب) (يقول جعفر خان فى باله) متى يتحضر هؤلاء القوم .

الخال ـ اسمع يابنى . لسنا فى أوربا ، نحن فى ايران ودينا الاسلام . لا حاجة بنا إلى تلك المدنية التى تذكرها ولا يمكن أن نواكل الـكلاب ، وإذا ما شئت أن تعيش بين ظهرانينا فاجعل نصب عينك اطراح هذه البدع . ولزام عليك أن تطرد كلبك وتتزيا بالزى الايرانى . لا تـكوسراويلك ، ولا تـكن صاحب رأى . والآن عجل بالذهاب لتغيير مابك ثم عد لأحدثك .

جعفر خان ـ ولـكن . .

الخال ـ كلا كلا ، افعل ما أوصيتك به ، البس ثوبا ايرانيا وستفهمنى أحسن مما كنت تفهمنى (يخرجه ثم يقول بصوت خفيض) لا إله إلا الله .

المشهد الثانى عشر (الخال ـ الأم)

الأم (تحمل صينية عليها فنجان) ـ أين ولدى لقد احضرت له شوكولاته .

الخال ـ شوكولاته ! دعى هذا أيتها الأم ، لقد أفسدوه ماوسعهم ان يفسدوه فى أوربا ، اتطلبين بذلك مزيدا من افساده ؟!

الأم ـ لقد تحضر ولدى واصبح من عاداته أن . .

الخال ــ كلا لا تطيعيه (تضع الصينية على المنضدة) ارفعى هذا عن المنضدة ، أى حاجة به إلى كرسى وشوكة ، لابد من تعليم هذا الفتى ، انه مخبول ، لقد أدخل الكلب النجس حجرتنا ، أقول هذا لصالحه ، ثم ألسنا راغبين فى أن نزوجه زينت ؟ إذا لم يخرج عن عاداته فكيف تكون العشرة بينهما ! سيسىء عشرتها ويكدر عيشها ، سيطلب اليها أن تنام على سرير وتجلو أسنانها بالفرجون وتأكل على المنضدة وسيحذرها الجشاء ، أنا لا أحب لزينت أن تشقى فى حياتها . فانا أكفلها بعد موت أبيها ، وكنت اوثرها على أولادى حتى بلغت مبلغ النساء ، ولابد من مداومتى على تلك الرعاية الأبوية .

المشهد الثالث عشر (الام ـ الخال ـ مشهدى أكبر)

مشهدى اكبر ــ سيدتى سيدتى ، لقد تجرد جعفر خان من ملابسه فى فناء الدار وجعل يملأ الابريق ماء ثم يشنه على أم رأسه ، ولما سألته عما يصنع ، قال انه يبترد ، وقد دخل الآن غرفة الأمتعة وأخذ يتفقد ملابس سيدنا المرحوم . ولما قلت له فى ذلك أجابنى بقوله ، صه يا هذا فأنت تؤذى أعصابى ، وأخشى ما أخشاه عليه هو ذهاب عقله لا قدر الله .

الخال ـ (للأم) انظرى ، ألم أكن على حق فى قولى بوجوب تربيته وتعليمه .

الأم ـ لن يدوم على هذه الحال ، فهذا أبوه قد عاد من الغرب بعادات قبيحة كما عاد .

مشهدى اكبر (لنفسه) العصا من العصية ومن شابه اباه فما ظلم .

الأم ـ سيتمدن شيئا بعد شىء ولن يوافى الشتاء حتى يكون قد نام بجانب المدفأة وأقلع عن عادة صب الماء على رأسه ، وأطلق شاربه .

الخال ـ كلا يجب العمل من الآن قبل أن يتسع الخرق على الراقع .

مشهدى اكبر ـ السيد على حق ولا ريب ، ما أنس لا أنس قوله لى ان الانسان يجب أن يموت بعد بلوغ السبعين .

المشهد الرابع عشر (الأم ـ الخال ـ مشهدى اكبر ـ جعفر خان)

جعفر خان (خلع ياقته ورباط عنقه ولبس قميصا ايرانيا

فضفاضا) ـ لم اجد سوى هذا القميص ، انه واسع بعض السعة.

الأم ــ لا بأس أيها العزيز ، ليس عيبه بظاهر .

جعفر خان ــ فى هذه الأيام القلائل ، سأكون كما يريدون لى أن أكون ، ثم سأعلمهم المدنية ما هى فذلك مبدأ ادار عليه السياسى الفرنسى تاليران سياسته (بصوت عال) اسقنى يا مشهدى أكبر ، وليكن الماء مغلىً حتى تموت جراثيمه

مشهدى اكبر ــ سمعا وطاعة سيدى (يخرج) .

الأم ــ (لجعفر خان) تعال لقد هيأت لك ياقة ايرانية بدلا من الأفرنجية (تعلق فى عنقه تميمة) .

جعفر خان ــ ما هذا ! ماذا تصنعين ؟

الأم ــ حذار من لمسها ياولدى ، انها وقاء من العين الشريرة .

جعفر خان ــ العين الشريرة ؟

الخال ــ تعال ياولدى علق هذه التميمة فى ذراعك ، لقد ابتعتها لك اليوم (يعلق التميمة فى ذراعه) .

جعفر خان ــ ماذا أصنع بتمائمكم ؟

الخال ــ من حملها امن المرض .

جعفر خان — (هازا رأسه) حسنا حسنا حسنا .

مشهدى اكبر — (يدخل وهو يحمل كوبا من الماء كبيرا) تفضل يا سيدى .

جعفر خان — هل تأكدت من غليان هذا الماء قبل احضاره وخلوه من جراثيم الأمراض ؟

مشهدى أكبر — لقد نضجت الجراثيم ، خذ وانظر بنفسك .

جعفر خان — (ينظر فى الماء) حسنا (فى اللحظه التى يهم فيها بوضع الكوب على فمه يعطس مشهدى اكبر) .

الأم — صبرا يا جعفر صبرا .

جعفر خان — وكيف ؟

الأم — لا تشرب فهذا (صبر) .

جعفر خان — لقد طلبت هذا الماء لأشربه ،

الجميع — لا لا . لا يحسن بك أن تشرب فهذا (صبر) .

جعفر خان — ماذا تعنون بهذا الصبر ، أنا ظمآن (يهم بالشرب .)

الخال — (ينزع الكوب من يده) لقد جاءنا (صبر)

فلا تشرب .

جعفر خان -- (يذعن) ماذا أقول !

مشهدى أكبر ـ اسمع يا سيدى العزيز إذا جاءنا (صبر) فلابد أن تصبر والا نالِك مكروه ـ أخرس الله لسانى ـ كأن تشرق بالماء (يعطس) .

الجميع ـ هذه (عجلة)

الخال -- لقد جاءتنا العجلة (يقدم الكوب الى جعفر خان اشرب الآن .

جعفر خان -- كيف ؟ ان كان شرب الماء لا يستحب بعد العطس فهو لا يجوز الآن .

الخال -- كلا ، كانت العطسة الاولى صبرا اما العطسة الثانية فعجلة .

جعفر خان -- ماذا تريدون بصبركم وعجلتكم ، دعونى وشأنى ، لا اريد الشرب .

الجميع -- انها عجلة .

الخال -- هذا لا يجوز ، متى وجدت العجلة فالشرب واجب (يرغمه على الشرب)

جعفر خان -- ما هذه المشاكل التى ارتبك فيها .

الخال (للأم ومشهدى اكبر) اريد ان افاتح جعفر خان فى أمر زواجه فيحسن بكما أن تتركانا وحدنا .

الام -- حسنا اذن نخرج (تخرج الام ومشهدى اكبر) .

المشهد الخامس عشر (الخال - جعفر خان)

الخال -- تعال يا جعفر خان ، اقعد هنا لافضى اليك بشىء .

جعفر خان -- حسنا (يهم بالقعود على الكرسى) .

الخال -- لا لا . (يشير الى البســاط الذى قعد عليه كدأب الايرانيين . يقعد جعفر خان الى جانبه وان كان لا يحسن القعود) ، نحمد الله على عودتك من أوربا وبقائك فى ايران .

جعفر خان -- لست على ثقة من ذلك واكبر الظن انى . .

الخال -- لا . لا تقل هذا ولا تخطره على بالك ، لقد استقر بك المقام فى ايران ، ففكر فى عش لك تبنيه ، ودار لك تؤويك ، وحياة جديدة تنشؤها ، ومعنى هذا أن يصح منك العزم على الزواج ، وقد شاورت املك فى الامر واخترنا لك زينت .

جعفر خان ـ لقد قررتما ذلك ؟ شكرا لكما

الخال ـ نحن فى ربيع الأول ، والزواج لا يستحب فى هذا الشهر ، فلنرجىء ذلك إلى الشهر المقبل إن شاء الله .

جعفر خان ـ الشهر المقبل اوفق ، ولكن قد يكون لى رأى خاص ابديه .

الخال ـ لقد فكرت انا وامك فى كل ما يمكن ان يجول بفكرك ، سنحدد من الايام المقبلة ما نقيم فيه حفلات العرس التقليدية ، ثم ندعو الشيخ ظريف الشريعة لعقد القران وفى نهاية شهر رجب سنحدد ليلة الزفاف .

جعفر خان ـ عفوا ، نحن نسير سيرا عنيفا فعلى رسلنا ، ولا يسعنى الا ان اطلعكم على عدم رغبتى فى الزواج ، وإذا تزوجت فلن اتزوج ايرانية .

الخال ـ لن تتزوج ايرانية ! ان كان الامر كذلك فالزم الصمت ، لان الاوربيين لن يقدموا الينا بناتهم للزواج . وإذا لم يكن من الامر بد فستكون الزوجة من اللائى تعرفهن . فمدام جعفر خان اما طاهية او غاسلة أو راقصة .

جعفر خان ـ لو فرضنا جدلا انى ساتزوج ايرانية فذلك

معلق بشروط لايمكن قطع النظر عنها ، فلابد بادىء ذى بدء من معاشرة الخطبة مدة من الزمن ودراسة طباعها للتأكد من امكانية التفاهم معها ، وهذامايتطلب من الاعوام خمسةأو ستة.

الخال - بعد الزفاف ينفسح الوقت لمعرفة الزوجة حق المعرفة ، فلا ضرورة لكل ماذكرت.

جعفر خان - نعم ولكن بعد ان يسبق السيف العذل ، ولابد للانسان ان يكون قد رأى ذلك الوجه الذى سوف يراه آناء الليل واطراف النهار.

الخال - بعد الزفاف سيرى كل صاحبه رؤية تفى بحاجته وتسد نهمته.

جعفر خان - وما جدوى ذلك بعد الزفاف ؟

الخال - الرؤية محرمة قبل الزفاف ، انك ايها العزيز لا تميز خيرا من شر !

جعفر خان - وهل من الشر ان اعلم ان كان لزوجتى انف طويل او مستدير ؟

الخال - ان كان الامر كذلك فلتكن هادىء البال من هذه الناحية ، فلا عيب فى انف زينت .ولكن لايعزبن عن فكرك

ان هذه الامور لاتحتمل المزاح ولا التندر ، حذار من ان تتحدث عنها فى مجالسك والا عرضت نفسك للرجم .. وهناك موضوع آخر احب ان احدثك عنه ، لقد سلخت تسعة اعوام فى الدراسة باوربا ثم عدت إلى طهران ، فماذا تنوى ان تصنع ؟

جعفر خان - اريد انَ التحق بعمل إدارى واتبوأ منصبا من المناصب .

الخال - وما وسيلتك إلى هذا المنصب ؟

جعفر خان - اتقدم إلى مصلحة من المصالح أو وزارة من الوزارات ، واذكر مؤهلاتى الدراسية ..

الخال - مهلا ياصديق ، هذا لا يجديك فتيلا ، لست ذا تجربة فى ذلك ، دعنى اوقفك على حقيقة الامر . لا بد قبل المضى فى ذلك من ان تكون على وفاق مع نفر من الناس تستعين بهم على انجاح مسعاك . وبعد ايام تلبس من صالح ثيابك وتحرص على ان تبدو فى هيئة أهل الفضل والوقار ، وتذهب إلى الوزير فى الصباح الباكر . وهناك تحييه وتجله اجلال من يتملق له طمعا فى قضاء حاجة عنده ، فتخلع عليه انخم الالقاب وتسميه اكرم الاسماء ، ثم تذكر الغرض من زيارتك ، ولا بأس من

ان توردفى كلامك بضعة ألفاظ كالوطن والدستور . وحذاريك يابنى ذكر دراساتك ، اما إذا سألك عن نوع اختصاصك العلمى فلا تنس ان تقول انه من القحة ذكر العلم فى حضرتكم وادعاء التبرين فيه امامكم ، وخادمكم اجهل من راعى ضأن فهو لا يميز الالف من العصا !

جعفر خان - وهل يسنى لى هذا ان انال المنصب الذى اصبو اليه !

الخال - وهل فى ذلك من شك ؟ واذا لم توفق بذلك فى المسعى فعليك بوسيلة اخرى . تصير الى الوزير ، فتثلبه وتتوعده ، وفى الغد تدفع الاجر لجريدة تنشر مقالا ضده ، وبذلك تنال ماتتمنى وإذا لم تفلح هذه الحيلة (يتظاهر بعد النقود) فضع خطابا فى ظرف يحمل إلى مكتب معاليه ، وهذه الوسيلة لا تخيب ابدا .

جعفر خان - هذه مسألة من مسائل الاقتصاد السياسى وان كنت لا افهم السبب فى ارسال الخطاب إلى مكتب معاليه .

الخال - يمكن ان يتسلمه بيده ، غير ان هذه الحيطة كانت تتخذ مع اصحاب المعالى الاقدمين الذين كانوا يتظاهرون بالتقى والورع ، كمن يغسل سجادته فى كل يوم ليدرك الناس من ذلك

انه قوّام يطيل الصلاة والتعبد ، والواقع من الامر ان سجادته اذا اتسخت فانها لاتتسخ من صلاته عليها !

المشهد السادس عشر (الخال - جعفر خان - الام - مشهدى اكبر)

مشهدى اكبر - لقد هيأت لك الحمام ياسيدى بكل ادواته ، غير انى لم اعثر على الاسفنجة فوضعت لك حجرا بديلا منها .

الخال - تريد الذهاب اليوم إلى الحمام ؟

جعفر خان - نعم ، انا اليوم قادم من سفرى وقد تراكم على الغبار والجراثيم .

الخال - فى اى يوم نحن ؟

الام - الثلاثاء .

الخال (لمشهدى اكبر) ناولنى هذا التقويم لنعلم ان كان يوم الثلاثاء يوما موافقا للذهاب إلى الحمام .

جعفر خان - نعم ؟

الخال (يأخذ التقويم من مشهدى اكبر ويفتحه) تريث قليلا (يقرأ فى التقويم : ربيع الاول ، ربيع الثانى ، الاثنين ، الثلاثاء ، الاربعاء الساعة الرابعة والدقيقة الثانية والثلاثون

والثانية السابعة عشرة بعد طلوع الشمس ، ويدخل القمر فى برج العقرب ، هذا الوقت وقت سعد لوضع الاطفال فى المهد ، وخياطة الملابس الجديدة ، وخلع الاسنان ، والفصاد . وهو وقت نحس لبناء المساجد ، ومقابلة العظماء ، وعقد القران ، ونثر الحب . وسعد للختان ، والفطام ، وتسويق البضائع ، وصيد السمك . ونحس لارسال الهدايا ، والضرب ، وركوب البحر ، وتناول المسهلات ودخول الحمام . فدخول الحمام محظور ولا يستحب ان تذهب اليوم إلى الحمام .

جعفر خان — كيف ؟! كيف يكون الاغتسال شرا ؟

الخال — اذهب فى يوم الجمعة فهو اوفق لذلك .

جعفر خان — اوفق ، ولكنى متسخ الجسم ولم اغير قميصى منذ امس .

الام — ليس هذا شيئا يذكر يابنى . انتظر إلى يوم الجمعة فانه افضل .

جعفر خان — دعونى من هذا ، ودعونى اذهب وامح عنى اوساخى ففى ذلك الخير كل الخير .

الجميع — لايستحب ذلك اليوم فانه يوم شؤم .

جعفر خان - اه ، وعليه فلن اذهب ابدا حتى ولا فى يوم الجمعة ، لابد من زيارة مرتضى خان .

مشهدى اكبر - اتريد زيارة مرتضى خان ؟ السفر اليه غير مرغوب فيه يوم الجمعة .

الخال - سنستطلع الرأى فى التقويم (يفتح التقويم)

جعفر خان - لا جدوى من ذلك ياعم لا جدوى . . . انا مقتنع !

الخال - انتظر برهة حتى ارى (يقرأ) ربيع الثانى ، الجمعة يحسن فيه غرس الاشجار ، تقليم الاظفار ، تغيير المسكن . الاقتراض

جعفر خان — هذا صحيح لاريب فيه .

الخال - لا يجوز فيه التأجير ولبس الجوارب والمرض وتحرير عقود سرية .

جعفر خان - كفى بالله كفى ، انا موافق على ذلك .

الخال - لا مانع فيه من قشر الخيار والضحك والارتشاء

جعفر خان - انا مستسلم مطيع .

الخال - والنحس لا شك يدرك من يؤدى الدين ويتصل باهل الحل والعقد ويسافر برا .

جعفر خان ــ حسنا لن اسافر برا (لنفسه) يا الهى ماذا عسيت ان اصنع مع هؤلاء القوم (يتغيظ ويتناول كتابا على المنضدة ويتصفحه)

الأم ــ ماهذا فى يدك ايها العزيز ، ان كان كتاب صلوات او عظات فضعه جانبا لتقرأ لنا منه بين الحين والحين .

جعفر خان ــ انه تمثيليات موليير

الخال ــ اتقرأ التمثيليات .

الام ــ ويلاه هل اصبحت ممثلا ! ؟ !

الخال ــ لا ينقصك الا ان تكون موسيقيا او راقصا .

جعفر خان ــ للتمثيل نفاسته وعظيم اهميته فى اوربا ، وقد يكون للممثل او الممثلة من التأثير على الجماهير مالا يكون لرجل الدين بمواعظه .

الخال ــ التمثيل عندنا هو القره كوز والحاوى ودع الباقى جانبا ، ان السفر الى اوربا ليس سببا يدعوك الى نبذ فضائلنا وتقليد الغربيين تقليد القردة .

جعفر خان ــ (لنفسه) سيحطمون أعصابى تحطيما (ينظر فى الساعة) الخامسة وست عشرة دقيقة ، لقد تأخرت

ست دقائق عن موعد مدام هافا بزوف التى تنتظرنى ، هذا سيء غاية السوء . (بصوت مرتفع) انا مشغول بعمل فى الخارج فليس من الخروج بد (يلبس حذاءه) .

الخال ـ ما الذى يشغلك وانت لم تكد تصل ...

الام ـ ستحضر للعشاء لقد طهيت لك لحما شهيا .

جعفر خان ـ فى اى ساعة تتناولون العشاء ؟

الام ـ بعد غروب الشمس بساعتين أو ثلاث ساعات

جعفر خان ـ ساعتان او ثلاث ساعات ، هذا ما لا افهم، ان كنتم تأكلون فى منتصف الثامنة حضرت فى منتصف الثامنة وان كان العشاء فى الثامنة الا الربع حضرت فى الثامنة الا الربع . وان كان العشاء فى الثامنة والثلث جئتكم فى هذا الميعاد .

الام ـ احضر حالما تشعر بالجوع .

جعفر خان ـ (بصوت خفيض) آه لو تمكنا من ادخال دقة المواعيد فى هذه الرؤوس (بصوت مسموع) السلام عليكم

مشهدى اكبر ـ (يعطس) .

الجميع ـ صبر صبر .

جعفر خان ـ هذه المرة ليست لى (يهم بالخروج) :

الخال ـــ كيف ذلك ، انتظر .

جعفر خان ـــ قد يلازم الزكام هذا الشيخ الى يوم مماته ، فما لى وله ! ؟

الجميع ـــ لاتخرج هذا محال .

جعفر خان ـــ يا عجبا لهؤلاء الناس ، انهم لا يدركون حتى سياسه تاليران . (يفكر برهة) وإذا جاءت العجلة سأتمكن من الخروج . (ويعطس) .

الأم ـ لا يا ولدى لقد تظاهرت بالعطس .

مشهدى اكبر ـ ولا بد ان تكون العجلة منى ياسيدى .

الخال ـ لسنا مازحين .

جعفر خان ـ (لنفسه) سأعود إلى التغيظ والتبرم (يرتفع صوته) اريد ان افهم العلاقة بين انف هذا الرجل وبين رغبتى فى الخروج .

الخال ـ استغفر الله ، انت تركب الشيطان فترجل عنه .. انت لا تفهم يا سيدى ان هذه أشياء لم نختلقها ، لقد وجدت على الدوام وستبقى على الدوام .

جعفر خان ـ ان تفكيرى العاجز يقصر عن هذا المستوى

انا ذاهب .

الجميع ـ (يمنعونه) انت تطلب المستحيل .

جعفر خان ـ انا اعترض (بصوت خفيض) يالهم من سوائم ! (ويقطع الحجرة جيئة وذهابا) ان بقيت لحظة معهم فأنا ميت كمدا ومنشق غيظا (يرفع صوته) ايها السادة ، لقد رأيت من صبركم ، ماعيل له صبري . لقد كان من خطل الرأى ان عدت إلى تلك البلاد ، والآن أسألكم اجازة واذهب (يجمع امتعته ويضعها فى حقيبته)

الام ـ كيف !

الخال ـ ماذا ؟

المشهد السابع عشر (جعفر خان . الخال : الام : مشهدى اكبر : زينت : كاروت) زينت ـ (فى يدها رباط الكلب) لست ادرى ماذا اصنع بهذا الكلب القذر لقد دخل النملية واكل كل ما كان فيها من قشدة وشمع وحلوى .

الام ـ ليأكل الحلوى .. ان زوجك ذاهب يازينت فامنعيه من الذهاب .

جعفر خان ـ يمشى فى الحجرة غاضبا (لارغبة لى فى ان

اكون وزيرا ولا نائبا ، ولا فى امتلاك العربات والسيارات .
فلأرجع إلى البلاد التى قدمت منها على مافيها من شرور وآثام .
هيا بنا يا كاروت ، ان ارض هؤلاء القوم لا تطيب لنا .

الخال ـ الم اقل ان بلاد الغرب تصيب الناس بالجنون ؟

جعفر خان (يخلع التعويذة من صدره ويلقيها على المنضدة) دونكم تعويذتكم والقميص وزينت .

الام ـ وامصيبتاه ! ماذا تصنع ياجعفر !

جعفر خان ـ اما انت يا اماه فلى عندك رجاء واحد . وهو الا توقدوا الشموع من اجلى (ينزع الحقيبة ورباط الكلب من يد زينت ويهم بالخروج) هيا بنا ياكاروت هيا بنا .

الخال (يمسك بعضده) ماذا بك هل جننت ؟!

مشهدى اكبر ـ سيدى ان السفر برا غير مسموح به (ينزع الحقيبة من يده)

زينت ـ الا تبقى لاجلى ؟

جعفر خان ـ لا ، هذا مستحيل ، هيا بنا ياكاروت .

الجميع ـ (يمنعونه ومشهدى اكبر ينزع منه الحقيبة) لن تسافر لن تسافر .

الخال ـ السفر غير مباح

الام ـ ليتني مت قبل هذا

زينت ـ واشقوتى

مشهدى اكبر ـ لقد طهينا لك طعاما شهيا هذا المساء ..

، (يسدل الستار)

قصيدة مشهرة فى الادب التركى الحديث لرضا توفيق بك المتوفى منذ شهور . والرجل من اعلام السياسة واساطين الادب ، غير ان الفلسفة كانت اخص مايشغله حتى عرف بالفيلسوف ، وإذا مادل هذا المثال من شعره على شيء ، فانما يدل على أن القلوب الشاعرة قد تجاور العقول المفكرة فى الاحايين . فالانسان عقل وروح ، يتردد ذهنه بالنظر والتدبر بطلب المعانى ، كما يطرب ويحلم وتستبيه الاغانى .

كنت فى امسية بين الحقول اجول .. فكأنى ببنات الحور قد حللن فى كل الارجاء وسكن . وكلما ادرت طرفى حائرا مستوحشا ، حسبت هذا الخلاء مليئا بأسرار الحسن . ونقلت

الخطى ، نخلت الجبال والجلاميد تمضى معى ، وشاهدت تمرغ الافياء امام الدوح ، فوقع فى نفسى ان كل شيء هناك يرانى ، كما شعرت ان الكون مسرور مجبور لوجودى . ومنذ الازل البعيد كان هذا الغدير البرود يغنى لتلك الناحية غناء الام لابنها فى المهد . وقد تكشفت لى الخميلة عن بائح سرها ، فكأن شبابى كان هناك دفينا . وانبسطت شجرات الصنوبر كهيئة الاجنحة ، وبدت المروج كما تبدو السماء ذات النجوم الطوالع . اما الازاهير فيا لها عجائب على الافهام منبهمة ! وما وقعت على شيء عينى ، الا خلته سحرا فثار عجبى . كانت ساعة للهوى والنجوى ، والبلبل الصدوح يغنى ويغنى . والصوت الضاحك منطلق من بين الافنان ، وتشهى الزهر قبلة على الطير ، فدار بخلدى ان الكائنات قد جنت بالعشق جنونا .

وكأن الفصل اصبح الخريف من ذاك العام ، فبدت الأرض والأوراق والسحائب وهى تكتسى الصدأ . أما شجرات السرو فتجللت بالسواد كأنها تلبس الحداد . ورأيت للكآبة غبرة على الصخور الحالمة الواهمة ، واضرمت فى المغرب نار للفراق ، وعاد إلى الوكر اليف كل طير . واتكأت الشمس على الجبل

شأن الجريح المتهالك . لقد ترشفت روحى على لذة لونها المستعر المذاب ، وما ابصرت حمرتها الدامية فى الافق حتى حسبت الافلاك مثلى جريحة الفؤاد . كانت المياه ارجوانية والجبال بنفسجية ، واحدى بنات الحور على الغدير واقفة منتظرة ، ولثم نجم المساء منها الجبين ، فما ظننته الامحبا لها وامقا ، وبدت حمر الازاهر على حافة الماء ، وفى الورود هالات نارية ، وانعكست من بعيد اصداء مترددة للشكوى ، فشبه لى غزال اصاب قلبه الصياد .

لقد سرى من الشمس ماء حسنها فى الروض والثريا والبدر ، وذاك لانها ارتضعت شفتها الذابلة وهى تجود بنفسها . ورأيت حمرة الارجوان فى كل شىء ، حتى خيل الى ان قمر هذه الامسية ورد الضياء .

فهرس

	صفحة
مقدمة	٧
الوطنية فى الشعر التركى	١٢
رأى فى الخيام	١٩
السلاطين الشعراء	٢٦
على قبرها	٣٥
عرش وسلطان	٤١
الشاعر الحزين	٤٩
قافلتان إلى الحجاز	٥٧
شاعران سجينان	٦٤
غضبة الأرض	٧٣
الشاعر وبنت الملك	٨٠
رثاء الابناء فى الشعر الفارسى والتركى	٨٧

صفحة

ثورتان	٩٩
مصارع العظماء	١١١
من اوهام العشاق	١٢٢
شاعران هجاءان	١٣٠
فى قرية الغرباء	١٤٢
شاعران ضحاكان	١٥٠
حمالة الحطب	١٥٩
عصر الزهر	١٦٧
روح حيرى	١٧٦
شاعرتان تركيتان	١٨٤
اب ظلوم	١٩٣
سقاية عابر السبيل	٢٠١
المغامر الشاعر	٢٠٩
دراويش الترك	٢١٨
الترك فى حماماتهم	٢٢٧
الاسير	٢٣٥

صفحة

مصر فى الشعر التركى	٢٤٥
يقظة الليل	٢٥٧
الطبيعة فى الشعر الفارسى والتركى	٢٦٠
وطنية المرأة الايرانية	٢٧١
رثاء السلاطين	٢٨٠
الفرس فى ادب الغرب	٢٩٢
السفور والقبعة فى تركيا	٣٠٣
السفراء فى ايران القديمة	٣١٢
ثورة الجوع	٣٢٢
الوطن	٣٣١
عائشة التيمورية فى شعرها الفارسى والتركى	٣٤٦
دهاؤه وكيدها	٣٥٩
الهند فى الشعر الفارسى	٣٦٧
شاعر السلام	٣٧٧
مولد النبي فى الشعر التركى	٣٨٦
باريس	٣٩٤

صفحة

خيال الظل عند الترك	٣٩٨
طيور فى شعر الفرس	٤٠٧
مذهبان هدامان فى تركيا وايران	٤١٦
مصير كسرى	٤٢٥
وزيران يهوديان	٤٣٩
جعفر خان يعود من الغرب	٤٥٠
غربة المساء	٤٩٧
فهرس	٥٠٠
تصويبات	٥٠٤

تصويبات

الخطأ	الصواب
ص ١٤ س ١٥ فلا يجدون	ولا يجدون
ص ٢١ س ٨ شتد	اشتد
ص ٣٩ س ١٥ إني	أني
ص ٤١ س ٣ إنبعثت	انبعثت
ص ٤٢ س ٩ وريثه	وارثه
ص ٤٦ س ٨ ولا	كالا
ص ٥٥ س ٣ آثر	أثر
ص ٥٦ س ١١ وانتترت	وانتثرت
ص ٥٩ س ٢ متزمون	متزمتون
ص ٥٩ س ١٢ طواياها	طوايا
ص ٦٧ س ٢ قام	اقام
ص ٧٥ س ١٣ تشتغل	تشغل
ص ٧٥ س ١٥ انب	انت
ص ٧٨ س ٣ انفق	اتفق
ص ١١٢ س ١ اليأس	البأس

الخطأ	الصواب
ص ١٣٠ س ٥ الشعور	لشعور
ص ١٣٩ س ٦ حتى لئلا	لئلا
ص ١٨٧ س ٧ انثنت	انثنت
ص ١٩١ س ١١ أرشف	ارشف
ص ١٩٥ س ٥ ولا يظلمون	فهم لايظلمون
ص ١٩٧ س ١٣ ويجلٌ	ويجلّ
ص ٢٠٥ س ٤ فقد	قد
ص ٢٠٦ س ١ جملة مكررة	
ص ٢١٨ س ١ للغوى	اللغوى
ص ٢٣٠ س ٦ جوهر	جوهرا
ص ٢٣١ س ٣ بن	ابن
ص ٢٣٢ س ١٦ عقدنا	عقدن
ص ٣٦١ س ٧ فرَّخى	فرَّخى
ص ٢٨٥ س ٣ وريث	وارث
ص ٤٤٠ س ٨ وأنس	وآنس
ص ٤٤٠ س ١٠ إرجاء	أرجاء
ص ٤٥٦ بين السطر السادس عشر والسابع عشر جملة سقطت	الأم ـ ايه هو ؟ ما باله لايدخل!

١

كمل طبع هذا الكتاب فى الأول من شهر يونية
سنة ١٩٥٠ ميلادية ، الموافق للخامس عشر من شهر شعبان
سنة ١٣٦٩ هجرية .

مذكرات

مذكرات

مذكرات

مذكرات

دار الفكرة

دار الفكرة مؤسسة مصرية صميمة تقوم على سواعد فتية من شباب ناهض مثقف. غايتها نقل أفكار الغرب إلى الشرق وبعث التراث الشرقى والاسلامى على أوسع نطاق وأبعد مدى. وهى تأمل بذلك أن تسد الفراغ الشاغر فى المكتبة العربية

مطبعة الفكرة

شارع منشأة الفاضل . ميدان الخديو اسماعيل . القاهرة

*PB-37348
5-20T
C-C

Date Due

Demco 38-297

Bookkeeper®
Deacidification for Libraries and Archives
August 2009
PERMA-BOUND®
PAT. NO. 3,161,423

NYU - BOBST
31142 02883 5364
PJ7518 .M5
Min adab a

ظهر للمؤلف

فارسيات وتركيات

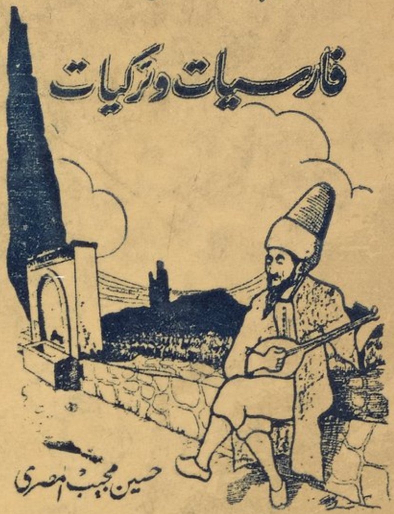

يظهر قريبا

تاريخ الأدب التركي

حسين مجيب المصري

طبع الغلاف بمطبعة منير الشرق